روبرت بار

مغامرات المحقق فالمونت

ترجمة :
شيماء طه الريدي

بغدادي مكتبة 1265

مغامرات
المحقق
فالمونت

روبرت بار

مكتبة 1265

مغامرات المحقق فالمونت

ترجمة : شيماء طه الريدي

بغدادي

بغدادي

عنوان الكتاب : مغامرات المحقق فالمونت
إسم المؤلف : روبرت بار
ترجمة : شيماء طه الريدي
الطبعة الأولى - 2022

تصميم الغلاف : زيد مهدي
الاخراج الفني : هشام نزار

جميع الحقوق محفوظة لـ دار بغدادي
ISBN : 978-9922-9599-1-7

روبرت بار: أَدِيبٌ وصَحفِيٌّ اسكُتلنديٌّ-كَنَدِيٌّ شَهِير، وُلِدَ في جلاسجو باسكتلندا عامَ ١٨٤٩. كانَ مُعظَمُ إنتاجِهِ الأَدَبيِّ في مَجالِ أَدبِ الجَرِيمة، الَّذِي كانَ رائِدًا في عَصْره. ومَعَ ذُيوعِ شُهْرةِ قِصصِ «شيرلوك هولمز» فِي ذلِكَ الوَقْت، كتَبَ بار «مُغامَرات شيرلو كومبس»، وهِيَ أَوَّلُ مُحاكَاةٍ ساخِرةٍ لهولمز. ألَّفَ العَدِيدَ مِنَ المَجْموعاتِ القصَصِيَّةِ المَغْروفة، مِثْل: «انْتِقام!»، و«نَجاحَات يوجين فالمونت»، وغَيْرِهِما. ويُقالُ إنَّ شَخْصيَّةَ المُحقِّقِ الشَهِيرِ «يوجين فالمونت» الَّتِي ابْتكَرَها بار — والمَنْسُوجةَ عَلى مِنْوالِ شَخْصيَّةِ شيرلوك هولمز — هِيَ الَّتي أَلْهمَتْ أجاثا كريستي شَخْصيَّةَ المُحقِّقِ «هيركيول بوارو» المَغْروفة. تُوفِّيَ بار عامَ ١٩١٢ مُتأثِّرًا بمَرَضِ القَلبِ فِي قَرْيةِ ولدنجهام فِي إنجلترا.

لغز
الثروة المفقودة

لم يخطر لي اسمُ الراحل اللورد تشيزلريج قطُّ دون أن يتداعَى إلى ذهني على الفور اسم السيد توماس ألفا إديسون. لم يسبق لي أن رأيت الراحل اللورد تشيزلريج من قبلُ، ولم ألتقِ السيد إديسون إلا مرّتين في حياتي، غير أن الرجلين تربط بينهما صلة في ذاكرتي، وكان تعليقٌ أبداه الأخير ذات مرةٍ هو ما ساعدني إلى حدٍّ كبيرٍ في حلِّ الغموض الذي غلَّف به الأول تصرُّفاته.

ليس لديَّ مذكراتٌ لتُخبرني بالعام الذي حدث فيه هذان اللقاءان مع إديسون. كنت قد تلقَّيت رسالةً من السفير الإيطالي في باريس يطلب مني انتظاره بمقرِّ السفارة. وعلمت أن من المزمع في اليوم التالي أن ينطلقَ وفدٌ من السفارة إلى أحد الفنادق الكبرى للقاء المخترع الأمريكي الكبير، وإهدائه رسميًّا العديد من الأوسمة الرسمية المصاحبة لألقاب شرفية أنعم بها عليه ملكُ إيطاليا. ونظرًا لدعوة العديد من النبلاء الإيطاليين ذوي المقام الرفيع، ونظرًا لأن أصحاب المقام الرفيع هؤلاء لن يرتدُوا فقط الملابس المرتبطة برُتبهم، ولكنهم في حالات كثيرة سيرتدون جواهر لا تُقدَّر بثمن، كان حضوري مرغوبًا فيه اعتقادًا بأنني قد أستطيع درء أيِّ محاولة من جانب أبناء الطبقة العليا ممن يتَّسمون بخفة اليد، الذين قد يحاولون الاستيلاء على هذه الكنوز، ويمكنني أن أضيف، بشيءٍ من الرضا عن النفس، أنه لم تقع أيُّ منغِّصات غير متوقعة.

كان السيد إديسون، بالطبع، قد تلقَّى قبل وقتٍ طويلٍ إخطارًا بالساعة التي سيكون فيها الوفد المفوَّض في انتظاره، ولكن حين دخلنا قاعة الاستقبال الكبيرة المُخصَّصة للمخترع، صار واضحًا لي من نظرة عين خاطفة أن هذا الرجل الذائع الصيت قد نسي كلَّ شيءٍ بشأن المناسبة؛ فقد وقف بجوار طاولةٍ جرداء نُزع عنها المفرش وطُرح جانبًا في أحد الأركان، وعلى هذه الطاولة وُضِعت قطع عديدة من آلات سوداء ومشحمة: عجلات مسنَّنة، وبكرات،

ومسامير مُلولبة ... إلخ. كانت هذه الأشياء، على ما يبدو، تخص العامل الفرنسي الذي كان واقفًا على الجانب الآخر من الطاولة، وفي يده المتسخة أحدُ هذه الأجزاء. لم تكن يدا إديسون نظيفتين تمامًا؛ إذ كان يفحص المادة بوضوح ويتحدَّث مع العامل الفرنسي، الذي كان يرتدي سترة العُمَّال الطويلة المعتادة لحدَّاد ولكنها ذاتُ مقاسٍ صغير. حسبته رجلًا يملك ورشةً صغيرةً خاصة به في أحد الشوارع الخلفية، يقوم بأعمال هندسية عجيبة، ربما بمساعدة مساعد ماهر أو اثنين، وبعض الصِّبية المبتدئين. نظر إديسون نظرات جادة نحو الباب مع دخول الموكب، وعلى وجهه مسحة ضيق من المقاطعة، امتزجت بلمحة من الارتباك بشأن ما يعنيه هذا العرض الرائع. يُولع الإيطاليون، شأنهم شأن الإسبان، بالرسميات حين يتعلق الأمر بمناسبة عامة؛ فكان المسئول الذي يحمل الصندوق المزخرف الذي يحوي المجوهرات ويرتكز على وسادة مخملية، يتقدَّم بخطًى وئيدة إلى الأمام، وتوقف أمام الأمريكي الحائر. بعدها تحدَّث السفيرُ بصوت جهوري ببعض الكلمات الرقيقة عن الصداقة بين الولايات المتحدة وإيطاليا، وعبَّر عن أمنيته بأن تعود المنافسة بين البلدين بمنافع ومزايا على البشرية، وضرب المثلَ بالمخترع المُكرَّم باعتباره النموذج الأبرز الذي لم يأتِ به العالَم بعدُ لرجل يغدق على جميع الأمم بالنعم في فنون السلام. واختتم السفيرُ البليغُ حديثَه بقوله إنه امتثالًا لأوامر مولاه، فإن من دواعي واجبه وسروره أن يُقدِّم ... وهكذا إلى آخره.

غير أن السيد إديسون، الذي بدا واضحًا عليه القلق وعدم الارتياح، ألقى ردًّا مناسبًا بأقل الكلمات المُمكنة، ولما كان العرض قد انتهى على ذلك، فقد انسحب النبلاء ببطء يتقدَّمهم السفير، وتذَيَّلت أنا الموكب. كنت في غاية التعاطف في قَرارة نفسي مع العامل الفرنسي، الذي وجد نفسه، وعلى غير المتوقع، في مواجهة هذا القدر البالغ من الفخامة والعظمة. رمقه بنظرةٍ

واحدة جافة، ولكنه رأى أن خلوته كانت ستنقطع ما لم يُزح بعضًا من هؤلاء النبلاء الرائعين. بعدئذٍ حاول أن يتقوقع على نفسه، وأخيرًا وقف بلا حول ولا قوة مثل شخص أصابه الشلل. فعلى الرغم من الأعراف والتقاليد الجمهورية، يُضمر قلبُ كلّ رجلٍ فرنسيّ احترامًا وإجلالًا عميقَين للمواكب الرسمية التي يغلب عليها الترف في الملابس والتنظيم كهذا الموكب، ولكنه يحب أن ينظر إلى الأمر من بعيد، وبدعم ومساندة أقرانه، لا يندفع بقوة على نحوٍ متنافرٍ وسط هذه الأشياء، كما كان الحال مع المهندس الذي أصابه الذعر. وبينما كنت في طريقي للخروج، نظرتُ نظرةً خاطفةً من فوق كتفي إلى هذا الحِرفي الماهر المتواضع الذي قنع بربحٍ لا يتجاوز بضعة فرنكات معدودة، وإلى المخترع المليونير المقابل له، وكان وجه إديسون — الذي كان باردًا وجامدًا أثناء الخطبة، مذكِّرًا إياي بقوة ووضوحٍ بتمثالٍ نصفيّ لنابليون — قد صار الآن متوهجًا بالحماس وهو يلتفت إلى ضيفه المتواضع. ويصيح في بهجة قائلًا للعامل:

- دقيقة من التجريب العملي تُساوي ساعةً من الشرح والتفسير. سوف آتي إليك في متجرك غدًا، في حوالي العاشرة، وأريك كيف تجعل هذا الشيء يعمل.

أخذت أتسكع ببطء في الرَّدهة حتى خرج الفرنسي، وبعد تقديم نفسي إليه، طلبت منه منحي شرف زيارة متجره في العاشرة من يوم غد. كان هذا متوافقًا مع الدبلوماسية التي ستجدها سائدةً بين طبقات فرنسا العاملة، وفي اليوم التالي سعدت بمقابلة السيد إديسون. وفي سياق حديثنا هنَّأته على اختراعه المصباح الكهربائي المتوهج، وكان هذا رده الذي ظلّ عالقًا في ذاكرتي للأبد:

- لم يكن اختراعًا، وإنما اكتشاف. كنا نعرف ما نريد، نسيجٌ مُكربَن من شأنه أن يتحمل التيار الكهربائي في الفراغ، لِنَقُل لألف ساعة. لو لم يوجد مثل هذا النسيج، لما كان المصباح المتوهج، كما نعرفه، ممكنًا. بدأ المساعدون في البحث عن هذا النسيج، وقمنا ببساطةٍ بكربنة كلّ شيءٍ استطعنا أن نضعَ

أيدينا عليه، ومرَّرنا تيارًا كهربائيًّا عبره في الفراغ. وفي النهاية توصَّلنا إلى النسيج المناسب، كما كان سيحدث حتمًا إذا ثابرنا عليه لفترة طويلة بما يكفي، وإذا كان النسيج موجودًا؛ فالصبر والاجتهاد سوف يقهران أي عقبة.

كان هذا الاعتقاد بمنزلة عونٍ كبيرٍ لي في مهنتي. أعرف أن الفكرة السائدة عن عمل المحقق هي أنه يتوصل إلى حلول ألغازه بطريقة درامية، من خلال تتبُّع المفاتيح والدلائل غير الظاهرة للشخص العادي. هذا يحدث كثيرًا بلا شك، ولكن الصبر والجهد اللذين يُوصي بهما السيد إديسون، عمومًا، هما الدليل المرشد الأكثر أمنًا؛ فكثيرًا ما كان تتبُّع الأدلة الممتازة يقودني إلى كارثة، مثلما حدث مع محاولتي البائسة لحلِّ لغز الماسات الخمسمائة.

كما أسلفتُ القول، لم يسبق لي التفكير في اللورد تشيزلريج من دون أن أتذكَّر السيد إديسون في الوقت عينه، ومع ذلك فقد كان الاثنان مختلفَين تمامًا. وأرى أن اللورد تشيزلريج هو أكثر رجل عديم القيمة على مرِّ التاريخ، بينما إديسون عكسه تمامًا، وذات يومٍ جلب لي خادمي بطاقةً كُتِب عليها اسم - اللورد تشيزلريج ، قلت: - أدخِل سيادة اللورد. ليظهر شابٌّ في حوالي الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين، أنيق الملبس، ذو أسلوب ساحر، وعلى الرغم من ذلك بدأ لقاءَه بتوجيه سؤال لم يُوجَّه إليَّ من قبلُ قط، سؤال إذا وُجِّه إلى محامٍ، أو أي شخص يعمل في مجال آخر، لأجيبَ عنه بشيءٍ من السخط. والواقع أنني أعتقد أن قَبول عرض كالذي قدَّمه لي اللورد تشيزلريج، من شأنه، حال إثباته، أن يؤدي إلى إلحاق العار والدمار بالمحامي، هو قانون مكتوبٌ أو ضمنيٌّ في مهنة المحاماة، بدأ اللورد تشيزلريج حديثه قائلًا: - سيد فالمونت، هل سبق أن تولَّيت قضايا بنظام المضاربة؟

- مضاربة يا سيدي؟ لا أظن أني أفهم.

تورَّد وجهُ سيادته خجلًا كالفتيات، وتلعثم قليلًا وهو يحاول شرح الأمر.

- ما أعنيه، هل تقبل قضيةً بأتعابٍ مشروطة؟ بمعنى، حسنًا ... سيدي ... لكي أكون صريحًا ومباشرًا تمامًا، لن يكون لك أجرٌ إذا لم يكن هناك نتائج.

جاء ردّي حادًّا نوعًا ما:

- لم أتلقَّ عرضًا كهذا في حياتي من قبلُ، وأستطيع القول فورًا إنني سأكون مضطرًّا لرفضه حال واتتني الفرصة. إنني أكرس وقتي واهتمامي للقضايا التي تُقدَّم لي من أجل حلها. وأحاول أن أكون جديرًا بالنجاح، ولكنني لا أضمن هذا، وفي الوقت نفسه لا بُدَّ أن أعيش؛ لذا أُضطر على مضضٍ أن أجعل لوقتي مقابلًا، على الأقل. أعتقد أن الطبيب يُرسل فاتورته رغم وفاة المريض.

ضحك الشاب ضحكة مضطربة، وبدا محرجًا إلى حدٍّ أعجزه عن متابعة الحديث، ولكنه في النهاية قال:

- لقد أصاب تشبيهُك كبدَ الحقيقة بدقةٍ ربما تكون قد فاقت ما تخيلتَه أنت حين نطقتَ به. لقد دفعتُ لتوّي آخرَ بنسٍ كان معي إلى الطبيب الذي كان يُشرف على علاج عمي الراحل، اللورد تشيزلريج الذي تُوفي قبل ستة أشهر. أُدرك تمامًا أن الاقتراح الذي قدَّمتُه لك ربما يبدو إهانة لمهارتك، أو بالأحرى يُلمح إلى وجود شكٍّ بشأنها. ولكن يُحزنني يا سيدي إذا كنتَ قد وقعتَ في مثل هذا الخطأ. كان من الممكن أن آتي إلى هنا وأُكلِّفك بإيجادِ توضيحٍ لهذا الموقف الغريب الذي أجد نفسي فيه، وليس لديَّ أدنى شكٍّ في أنك كنت ستقبل المهمة إذا كانت ارتباطاتك العديدة تسمح بذلك. وإن فشلت، فلم أكن لأستطيع أن أدفع لك؛ إذ إنني مفلس بمعنى الكلمة؛ لذلك كان كل ما أتمناه أن تكون بدايتي معك صريحة، وأن أُعلِمك بموقفي بالضبط. إذا نجحتَ، فسوف أصبحُ ثريًّا؛ وإذا لم تنجح، فسوف أكون ما أنا عليه الآن؛ مفلسًا. هل صار واضحًا لك الآن لماذا بدأتُ بسؤالٍ لديك كل الحق في الاستياء منه؟

- واضح تمامًا سيدي اللورد، وصراحتك تستحق الاحترام.

بهرني أسلوب الشاب المتواضع بشدة، ورغبته الواضحة في عدم قَبول أي خدمات تحت ادعاءات زائفة. وحين أنهيت حديثي، نهض النبيل اليسير الحال وانحنى لي.

- أنا مدين لك بشدةٍ للطف استقبالك لي يا سيدي، وأرجو أن تغفر لي إهدار وقتك في طلبٍ لا طائلَ منه. طاب صباحك يا سيدي.

أجبته وأنا أشير إليه بالعودة إلى مقعده قائلًا: - لحظة واحدة سيدي اللورد. برغم عدم استعدادي لقَبول مهمة بالشروط التي تقترحها، غير أنني قد أستطيع أن أُقدِّم لك تلميحًا أو اثنين قد يصُبان في صالحك. أظن أنني أتذكر خبر وفاة اللورد تشيزلريج. لقد كان غريب الأطوار نوعًا ما، أليس كذلك؟

قال الشاب بضحكةٍ خافتة وهو يجلس مرةً أخرى: - غريب الأطوار؟ حسنًا، نوعًا ما.

- أذكر فيما أذكر أنه كان معروفًا بامتلاك نحو عشرين ألف فدان؟

أجاب ضيفي:

- سبعة وعشرين ألفًا في الحقيقة.

- وهل ورثت الأرض مثلما ورثت اللقب؟

- آه، نعم؛ فالضيعة موقوفة للورثة. لم يكن بمقدور السيد العجوز أن يحجبها عني إن فعل، ولديَّ بعضُ الشك في أن هذه الحقيقة لا بُدَّ وأنها قد سبَّبت له بعض القلق.

- ولكن، سيدي اللورد، بالتأكيد لا يمكن لرجل يملك ما هو أقرب إلى مقاطعة في مملكة إنجلترا الثرية هذه، أن يكون مفلسًا؟ ضحك الشاب مرة أخرى، أجاب مقحمًا يده في جيبه مخرجًا بعض القطع المعدنية النحاسية البنية اللون، وقطعة من الفضة البيضاء: - حسنًا، أملك ما يكفي من المال لشراء بعض الطعام لليلة، ولكنه لا يكفي لتناول العشاء في فندق فخم. هكذا الحال كما ترى. إنني أنتمي إلى عائلة عريقة نوعًا ما، تجاوز العديد من أفرادها

كلّ الحدود ورهنوا أراضيهم حتى آخرها. لا أستطيع أن أجني بنسًا واحدًا من ممتلكاتي مهما حاولت؛ لأن المال في ذلك الوقت كان مُقرَضًا، وكانت الأرض أكثر قيمةً بكثير مما هي عليه الآن. والكساد الزراعي، وما شابهَ من أمور، تركني أسوأ حالًا آلاف المرات مما لو لم يكن لديَّ أيُّ أراضٍ على الإطلاق. إلى جانب هذا، تدخَّل البرلمان، أثناء حياة عمي الراحل، نيابةً عنه، مرةً أو اثنتين؛ مما أتاح له تقطيع أشجار الضيعة الثمينة في المرة الأولى، وبيع لوحات قصر تشيزلريج في صالة كريستي للمزادات بأرقام فلكية يسيل لها اللعاب.

سألته:

- وماذا كان مصير المال؟ وهنا عاود النبيل الودود الضحك مرةً قائلًا: - هذا تحديدًا هو ما جاء بي إلى هنا وجعلني أستقل المصعد لأعرف إن كان بإمكان السيد فالمونت أن يكتشفه.

قلت:

- سيدي اللورد، لقد أثرت فضولي. وكنتُ صادقًا في ذلك للغاية، برغم ما كان يُراودني من خوفٍ مشوب بالقلق من أن أتولَّى القضية في النهاية؛ لأنني قد أُعجبت بالشاب حقًّا؛ فقد راقني افتقاده للتظاهر، وصار ذلك الشعور بالتعاطف الذي كان سائدًا إلى حدٍّ كبيرٍ بين أبناءِ بلدي يطوقه رغمًا عن إرادتي.

تابع اللورد تشيزلريج:

- كان عمي حالةً شاذةً في عائلتنا. لا بُد أنه كان انعكاسًا لنمطٍ سلوكي قديم في العائلة، نمطٍ لم نعهده ولا نعرف عنه شيئًا؛ فقد كان بخيلًا بِقدْر ما كان أجداده مُبذِّرين. وحين آل إليه اللقب والضيعة قَبْل نحو عشرين عامًا، طرد طاقمَ الخدم بأكمله، وكان الطرف المُدَّعى عليه في العديد من القضايا؛ حيث رفع خدم عائلتنا قضايا ضده لطردهم دون وجه حق، أو لطردهم دون الحصول على أيّ أموال كتعويض عن عدم الالتزام بمهلة الإخطار. ويُسعدني

أن أقول إنه قد خسر جميع القضايا، وحين برَّر ذلك بفقرِه، حصل على إذنٍ ببيع عددٍ معينٍ من الممتلكات الموروثة؛ مما مكَّنه من دفع التعويضات، ومنحه شيئًا ليعيش منه. وقد بيعت تلك الممتلكات التي طُرحت في المزاد بمقابلٍ جيد على غير المتوقع، حتى إن عمي قد راق له ما حدث بشكلٍ ما. دائمًا ما كان يستطيع إثبات إن الإيجار يذهب إلى الرهون، وأنه لا يملك ما يُعينه على المعيشة، ومِن ثَمَّ تمكَّن في مرات عديدة من الحصول على إذنٍ من المحاكم بقطع الأشجار وبيع اللوحات، حتى جرَّد الضيعة وأحال القصر القديم الملحق بها إلى حظيرة جرداء. كان يعيش كأيِّ عاملٍ كادح؛ فكان يعمل في النجارة تارة، وفي الحدادة تارة، حتى إنه حوَّل المكتبة إلى ورشة حدادة، تلك المكتبة التي كانت واحدة من أفخم المكتبات في بريطانيا تحوي آلاف الكتب القَيِّمة، حاول مراتٍ ومراتٍ أن يتقدَّم بطلبات للسماح له ببيعها، ولكنَّه لم يُمنح هذا الامتياز قط. وعند دخولي إلى المكان وجدت أن عمي كان دائمًا ما يتحايل على القانون، واستنزف هذه المجموعة الرائعة، كتابًا تلو الآخر، خُفية من خلال تُجَّار لندن. كان من شأن ذلك بالطبع أن يُعرضه لأزمة لو اكتشف الأمر قبل وفاته، ولكن الآن ذهبت الكتب الثمينة سدًى، دون مجال لاستعادتها. لا شكَّ أن الكثير منها في أمريكا، أو في متاحف ومجموعات أوروبا.

قاطعته قائلًا:

- ربما تريد مني تتبُّعها؟

- كلَّا؛ فلا أمل في عودتها. لقد جنى العجوز عشرات الآلاف من بيع خشب الأشجار، وآلافًا أخرى بالتصرف في اللوحات. وجُرِّد المنزل من أثاثه القديم الأنيق، الذي لم يكن يُقدر بثمن، ومن المؤكد، كما أخبرتك، أن الكتب قد جلبت له دخلًا يكفيه ليحيا حياة الملوك، إن كان قد باعها بقيمتها، ولعلك على يقينٍ من أنه كان ماكرًا كفاية ليعرف قيمتها. ومنذ آخر مرة رفضتْ فيها المحكمة مَنحَه هذه النجدة، كما كان يُطلق عليها، وكان هذا قبل نحو سبع

سنوات، أخذ يتخلص من الكتب والأثاث، كما هو واضح تمامًا، من خلال البيع الاتفاقي متحديًا القانون. في ذلك الوقت كنت دون السن القانونية، ولكن الأوصياء عليَّ عارضوا الالتماس الذي تقدَّم به إلى المحكمة، وطالبوا بكشفٍ بالأموال التي تحت يديه. أيَّد القضاة معارضة الأوصياء، ورفضوا السماح له بمزيد من السلب للضيعة، ولكنهم لم يُسلموا الأوصياء تقرير الحسابات الذي طلبوه؛ لأن عائدات عمليات البيع السابقة كانت تحت تصرُّف عمي بالكامل، ومُجازة قانونًا كي تُتيح له العيش بما يتناسب مع مكانته الاجتماعية. أما عن عيشه معيشةً ضنكًا بدلًا من أن يحيا حياةً رغدة، كما ادَّعى أوصيائي، فهذا شأنه الخاص، حسب قول القضاة، وانتهى الأمر عند هذا الحد، كرهني عمي كرهًا شديدًا بسبب هذه المعارضة لالتماسه الأخير، على الرغم من أنني لم يكن لي ناقةٌ ولا جملٌ في هذا الأمر بالطبع. لقد عاش كالناسك، وأمضى معظم حياته في المكتبة، وكان يقوم على خدمته رجل عجوز وزوجته، وكان هؤلاء الثلاثة هم السكان الوحيدين لقصرٍ يمكن أن يسع مائة. لم يكن يزور أحدًا، ولم يكن يسمح لأحد بالاقتراب من قصر تشيزلريج. ولكي يُواصلَ كل من أتعسه الحظ بالتعامل معه تكبُّد العناء بعد موته، ترك ما قد يُطلق عليه وصية، ولكن بالأحرى يمكن تسميتها رسالة لي. إليك نسخةً منها.

عزيزي توم
سوف تجد ثروتك بين ورقتين في المكتبة.
عمك المحب
ريجينالد موران، إيرل تشيزلريج

قلت:

- أشكُّ في كونها وصيةً قانونية.

أجاب الشاب مبتسمًا:

- لا داعيَ لأن تكون قانونية؛ فأنا أقرب الأقرباء، والوريث لكلّ شيء يملكه، وإن كان بالطبع سيمنح أمواله لأي جهة أخرى لو شاء ذلك. لا أعلم لماذا لم يهَبها لإحدى المؤسسات؛ فلم يكن يعرف أحدًا على المستوى الشخصي إلا خَدَمَه، الذين كان يُسيء معاملتهم ويُجوعهم، ولكنه، كما أخبرهم، كان يُسيء معاملة نفسه ويُجوعها؛ ومِن ثَمَّ ليس لديهم مبرر للتذمر. كان يقول إنه يعاملهم كأفراد العائلة. أظن أن الأمر سيتسبب لي في مزيدٍ من القلق والاضطراب لو أنه أخفى الأموال وضلَّلني ووضعني على الطريق الخطأ، وهو ما أنا مقتنع بأنه قد فعله، مما لو تركها مفتوحة لأي شخص أو للمؤسسات الخيرية.

- أظنني لستُ بحاجة لأن أسألك إن كنت قد بحثت في المكتبة؟

- بحثت؟ لا أظن أن أحدًا قد أجرى قدر ما أجريته من بحث منذ بدء الخليقة.

- ربما تكون قد خوَّلت المهمة لأشخاص غير أكفاء؟

- إنك تُلمح إلى أنني أشركت آخرين حتى نفدت أموالي ثم جئتك بعرض مضاربة يا سيد فالمونت. دعني أطمئنك أن الأمر ليس كذلك؛ فقد عشت على مدار الأشهر الستة الماضية مثلما عاش عمي فعليًا. لقد فتشت تلك المكتبة من الأرض إلى السقف. كانت في حالة مريعة، مُغطاة بالصحف القديمة، وكشوف الحسابات والفواتير، وأشياء أخرى. وبالطبع كانت توجد الكتب المتبقية في المكتبة، ولكنها مجموعة رائعة.

- هل كان عمك رجلًا مُتدينًا؟

- لا أستطيع الجزم بذلك. أظن لا. لم أكن أعرفه جيدًا، ولم أرَه قط حتى وفاته. أعتقد أنه لم يكن متدينًا، وإلا لما تصرَّف بهذا الشكل. بل إنه أثبت أنه رجل ذو عقلية ملتوية ترى كلَّ شيءٍ ممكنًا.

- أعرف حالةً كان فيها أحد الورثة يتوقع الحصول على مبلغٍ ضخمٍ من المال، فإذا به يَرِث الكتاب المقدس الخاص بالعائلة، فألقى به في النار، ليعرف بعد

ذلك أنه كان يحوي عدة آلاف من الجنيهات في صورة أوراق نقدية صادرة من بنك أوف إنجلاند، حيث كان هدف المُورِّث صاحب الوصية حثَّ الورثة على قراءة هذا الكتاب الكريم أو المعاناة جرَّاء إهماله.

قال الإيرل الشاب ضاحكًا:

- لقد بحثتُ جيدًا في الكتب المقدسة، ولكن المنفعة كانت معنوية أكثر منها مادية، هل ثمة أي احتمال أن يكون عمك قد أودع ثروتَه في أحد البنوك، وكتب شيكًا بالمبلغ تاركًا إياه بين صفحتين من صفحات أحد الكتب؟

- كل شيءٍ محتمل يا سيدي، ولكن أظن أن هذا الأمر مُستبعد إلى حدٍّ كبير؛ فقد تفحَّصت كل مجلد، صفحة بصفحة، وحسب ظني فإن قلة قليلة من الكتب قد فُتحت خلال العشرين سنة الماضية.

- في تقديرك كم يبلغ ما جمعه من مال؟

- لا شكَّ أنه قد حصل على أكثر من مائة ألف جنيه، أما بالنسبة لإيداع الأموال بالبنك، فأود أن أخبرك أن عمي كان يُظهر ارتيابًا عميقًا تجاه البنوك، ولم يُحرر شيكًا في حياته حسب علمي. كانت كل الحسابات تُسدَّد بالعملات الذهبية بواسطة الخادم العجوز، الذي كان يُحضر الفاتورة المستلمة إلى عمي أولًا، ثم يتسلَّم منه المبلغ دون زيادة أو نقصان، بعد أن يكون قد غادر الغرفة ويظل بالانتظار حتى يدق له جرس الاستدعاء، حتى لا يعلم بمكان المستودع الذي يسحب منه عمي المال. أعتقد أنَّ المال إنْ وجد، فسوف يكون على هيئةِ ذَهَبٍ، وأنا واثق تمامًا أن هذه الوصية، إن جاز لنا أن نُسمِّيَها وصية، قد حُررت لتُضلِّلنا وتضعنا على المسار الخاطئ.

- هل أقدَمْت على إخلاء المكتبة وترتيبها؟

- كلا، إنها على حالها مثلما تركها عمي؛ فقد فكرت أنه حال اضطراري لطلب المساعدة من أحد، سيكون من الأفضل أن يجدها الوافد الجديد كما هي.

- لقد كنت محقًّا في ذلك تمامًا يا سيدي اللورد. تقول إنك قد فحصت كل الأوراق، أليس كذلك؟

- بلى، لقد تم تفتيش الغرفة على نحوٍ وافٍ تمامًا، ولكن لا شيء مما كان موجودًا بها يوم وفاة عمي أُزيح من موضعه، حتى سَنْدَانه.

- سَنْدانه؟

- أجل؛ لقد أخبرتك أنه حوَّل المكتبة إلى ورشة حدادة، وغرفة نوم أيضًا. إنها حجرة ضخمة، بها مدفأة كبيرة في أحد أطرافها كانت تصلح كيرًا رائعًا. وقام بمعاونة الخادم ببناء الكِير في المدفأة الشرقية من الطوب والطين، بأيديهما، ونصبا هناك منفاخ حداد مستعملًا.

- ما نوع العمل الذي كان يقوم به في الكِير الخاص به؟

- أوه، أي شيءٍ كان مطلوبًا في المكان. يبدو أنه كان محنكًا للغاية؛ فلم يكن يشتري أيَّ أداة جديدة للحديقة أو المنزل ما دام بإمكانه الحصول على واحدة مستعملة، ولم يكن يشتري أيَّ شيءٍ مستعملٍ ما دام يستطيع إصلاح الأداة القديمة في ورشته. كان لديه فرسٌ قويٌّ، كان يمتطيه للتجول عبر المتنزه، وكان دائمًا ما يثبّت الحَدوة في أرجل هذا الفرس بنفسه، كما أخبرني الخادم، ومِن ثَمَّ لا بُدَّ أنه كان يجيد استخدام أدوات الحدادة. كذلك حوَّل غرفة الطعام إلى ورشة نجارة ونصب نضدًا هناك. أظن أننا قد خسرنا ميكانيكيًّا نافعًا للغاية حين أصبح عمي إيرلًا.

- هل تعيش في القصر منذ وفاة عمك؟

- إن كنت تُسميها معيشة، فنعم. لقد كان الخادم العجوز وزوجته يعتنيان بي، مثلما كانا يعتنيان بعمي، وبما أنهما يربانِني، يومًا بعد يومٍ، دون معطفي، ومغطًّى بالغبار، أعتقد أنهما يظنان أنني نسخة ثانية من العجوز الراحل.

- هل يعلم الخادم أن المال مفقود؟

- كلا؛ لا أحد يعلم بهذا الأمر سواي؛ فقد تُركَت تلك الوصية على السَّنْدان في مظروفٍ موجَّه إليَّ.

- إن روايتك واضحة تمامًا أيها اللورد تشيزلريج، ولكن أعترف أنني لا أرى فيها أيَّ بصيصِ أمل. هل توجد منطقة ريفية جذَّابة حول قصر تشيزلريج؟

- جذابة للغاية؛ لا سيما في هذا الوقت من العام. إن المنزل لا يتعرض لتيارات الهواء إلا قليلًا في الخريف والشتاء. إنه يحتاج إلى عدة آلاف من الجنيهات من أجل إصلاحه.

- تيارات الهواء لا تهم في الصيف. لقد عشت طويلًا في إنجلترا بما يجعلني لا أشارك بني جلدتي خوفهم من الرياح. هل يوجد سرير احتياطي في قصر الضيعة، أم سيكون عليَّ أن أُحضِر سريرًا نقَّالًا معي، أو لنَقُل أرجوحة شبكية؟

تلعثم الإيرل وتورَّد وجهه خجلًا مرة أخرى وقال: - لا بُدَّ أنك لا تظن أنني حدثتك عن الظروف بكل تفاصيلها من أجل التأثير عليك لتولِّي ما قد تكون قضية ميئوسًا منها. بالطبع أنا مهتم بالأمر أشد الاهتمام؛ ولذلك مُعرَّض لأن يأخذني الحماس عندما أبدأ في سرد طباع عمي الشاذة. إذا أذنت لي، فسوف أعاود زيارتك في غضون شهر أو اثنين. أصدقك القول، لقد اقترضت بعض المال من الخادم العجوز، وجئت إلى لندن لمقابلة مستشاري القانوني، على أمل أن أحصل على إذنٍ ببيع شيءٍ يقيني من الموت جوعًا في ظل هذه الظروف. حين تحدثت عن تجريد المنزل من مقتنياته، كنت أعني أنه قد جُرِّد نسبيًّا بالطبع؛ فلا يزال يوجد قدر لا بأسَ به من التُّحف، لا شكَّ أنها ستُدِرُّ عليَّ مبلغًا وفيرًا من المال. لقد كان لديَّ إيمانٌ وثقةٌ بأنني سأجد ذهب عمي حتمًا. ولكن مؤخرًا اجتاحني شكٌّ في أن السيد العجوز اعتقد أن المكتبة هي الأصل الوحيد القيِّم الذي لا يزال متبقيًا؛ ولهذا السبب كتب رسالته تلك، ظنًّا منه أنني سأخشى بيع أي شيء من تلك الغرفة. لا بُدَّ أن الوغد العجوز قد صنع

من تلك الأَرْفُف جرَّة من المال. فالكتالوج يُوضح وجود نسخة من أول كتاب طُبع في إنجلترا بواسطة كاكستون، والعديد من أعمال شكسبير التي لا تُقدَّر بثمن، إلى جانب العديد من الكتب الأخرى التي سيكون أيُّ جامعٍ للكتب النادرة على استعداد لدفع ثروة صغيرة نظير اقتنائها. كل هذه الكتب ذهبت سدًى. أعتقد أنني حين أعرض الأمر على هذا النحو، لا يمكن للسُّلطات أن تُنكر حقي في بيع شيء، وإذا حصلت على هذا الإذن، فسوف أحضر إليك في الحال.

- هذا هُراء أيها اللورد تشيزلريج. فلتُفعِّل طلبك إذا شئت. في الوقت نفسه أرجو منك أن تنظر إليَّ كمصرفيٍّ أكثر سخاءً من خادمك العجوز. دعنا نستمتع بعشاءٍ طيبٍ معًا في فندق سيسيل الليلة، إذا منحتني شرف أن تكون ضيفي. وغدًا سنُغادر إلى قصر تشيزلريج. كم يبعد؟

أجاب الشاب وقد غمرته حُمرة الخجل كقصر الملكة آن بطوبه الأحمر: - حوالي ثلاث ساعات. إنك حقًّا تغمرني بكرمك يا سيد فالمونت، ولكنني أقبل عرضك الكريم.

- إذن اتفقنا. ما اسم خادمك العجوز؟

- هيجنز.

- هل أنت على يقينٍ من أنه لا يعلم أي شيء عن مكان اختفاء هذا الكنز؟

- على يقين تام. لم يكن عمي بالرجل الذي يأتمن أيَّ أحد، خاصة إذا كان عجوزًا ثرثارًا مثل هيجنز.

- حسنًا، أود أن تُعرفني بهيجنز بصفتي غريبًا جاهلًا. فهذا سيجعله يحتقرني ويعاملني كطفل.

قال الإيرل معترضًا: - أوه، أظنك قد عشت طويلًا في إنجلترا بما يكفي لتنبذ فكرة أننا لا نقدِّر الغرباء. في الواقع نحن الدولة الوحيدة في العالم التي تُرحِّب بهم أيما ترحيب سواء أكان فقيرًا أم غنيًّا.

- بالتأكيد سيدي اللورد، سوف أُصاب بخيبة أمل عميقة إذا لم تُوفِّني قدري، ولكن ليس لديَّ أدنى شكٍّ فيما يتعلق بالازدراء الذي سيعاملني به هيجنز. سوف ينظر إليَّ كساذجٍ أبله لم يُنعم الله عليه بأن جعل إنجلترا موطنه. وهكذا سوف ينقاد هيجنز حتمًا إلى الاعتقاد بأنني من طبقته؛ أي خادم لك. سوف نُثرثر أنا وهيجنز معًا على ضوء النار، في تلك الليالي الربيعية التي سيُغلِّفها البرد، وقبل مرور أسبوعين أو ثلاثة سأكون قد عرفت منه عن عمك ما لم تكن تحلم به. سوف يتسنَّى لهيجنز التحدُّث مع خادم مثله بحُرية أكثر مما لو تحدَّث مع سيده، مهما بلغ قدر احترامه لذلك السيد، ومِن ثَمَّ، وبصفتي غريبًا، سوف يُفضي إليَّ بالمعلومات وفقًا لمستوى إدراكي، وسوف أحصل على التفاصيل التي لن يُفكر مطلقًا في منحِها لقرويٍّ مثله.

تركني تواضُع الإيرل الشاب في الوصف الذي أدلى إليَّ به لمنزله غير مهيأ تمامًا لفخامة وعظمة القصر الذي كان يسكن أحد أركانه. إنه مكان كالذي تقرأ عنه في رومانسيات العصور الوسطى؛ ليس قصرًا فرنسيًّا ذا قمة أو أبراج كقصور تلك الفترة، بل قصرٌ حجريٌّ جميلٌ وكبيرٌ في مزرعة له لونٌ ضارب إلى الحمرة، بدا تدرُّجه اللوني الدافئ يُضفي نعومة إلى حدَّة طرازه المعماري. شُيد المنزل حول باحة داخلية وخارجية ويمكنه أن يَسَع ألفَ شخص، وليس المائة الذين تحدَّث عنهم مالكه. يوجد العديد من النوافذ ذات القضبان الحجرية، وعند طرف المكتبة توجد نافذة كان من الممكن أن تُزيِّن كاتدرائية. يشغل هذا المنزل الفخم منتصف أحد المنتزهات ذات الأشجار الكثيفة، وقد قُدنا لما لا يقل عن ميل ونصف الميل من بيت الحرس الكائن عند البوابات تحت أكبر طريقٍ مُشجَّر بأشجار البلوط القديم رأيته في حياتي. بدا غير معقول أن يكون مالك كل هذا لا يملك المال السائل لدفع أجرة السفر إلى البلدة! استقبلَنا هيجنز العجوز في المحطة بعربة متداعية نوعًا ما، ربط بها ذلك الفرس العجوز الذي اعتاد الإيرل الراحل أن يُلبسه الحَدوة. دخلنا إلى بهوٍ مهيب،

ربما يكون قد بدا أكبر من حجمه بسبب الغياب التام لأيّ نوعٍ من الأثاث، عدا طاقمَين كاملَين من دروعٍ مهيبةٍ وقفا إلى اليمين واليسار يمكن اعتبارهما أثاثًا. علا صوتي بالضحك حين أُغلق الباب، مُصدِرًا صوتًا دوّى كصوت صخَب أشباحٍ قادم من السقف المُعتِم المصنوع من الخشب.

تساءل الإيرل: - علامَ تضحك؟

- أضحك لرؤيتِك تَضَعُ قبعتَك الطويلة العصرية على تلك الخوذة المنتمية إلى العصور الوسطى.

- آه، هكذا! حسنًا، فلتضع قبعتك على الأخرى. لا أقصد إبداء أي ازدراء للأسلاف الذين كانوا يرتدون هذه الدروع، ولكن لدينا نقصًا في شماعات القبعات الضرورية التي لا تحمل أيَّ ضرر؛ لذا أضع قبعتي على الخوذة القديمة، وأُدخل المظلة

- إن كان لديَّ واحدة هنا بالخلف، أسفل إحدى ساقَي الدرع. منذ أن آل إليَّ القصر، زارني تاجر من لندن يبدو عليه المكر والخداع، وحاول أن يدفعني إلى التفكير في بيع هذه الدروع. اعتقدت أنه سيمنحني مبلغًا من المال يكفي لشراء حُلَّاتٍ جديدة، صُنع لندن، لما تبقَّى من حياتي، ولكن حين راوغت من أجل معرفة إن كان له معاملات تجارية مع عمي بعيد النظر، خاف وفرَّ هاربًا. أعتقد أنني لو كنت أمتلك ما يكفي من سرعة البديهة والحضور الذهني لاستدراجه إلى أحد أقبيتنا البغيضة، لاستطعت أن أعرف أين ذهب بعض من كنوز عائلتي. لنصعد هذا السلَّم يا سيد فالمونت؛ لأريك غرفتك.

كنا قد تناولنا الغداء في القطار، وهو ما دفعني إلى البدء في معاينة المكتبة فور انتهائي من الاغتسال. كانت بالفعل غرفة في غاية الفخامة، واستُغِلَّت استغلالًا شائنًا من قِبَل ساكنِها الراحل، ذلك العجوز المقيت. كان بها مدفأتان ضخمتان، واحدة في منتصف الجدار الشمالي والأخرى في الطرف الشرقي، الذي نُصب عنده كيرٌ بسيط من الطوب، وبجوار الكِير تدلَّى منفاخ أسود

كبير، يكسوه سواد الدخان من أثر الاستخدام. وعلى لوحٍ خشبيٍّ استقرَّ السَّنْدان، يرتكز حوله مطارق عديدة صدئة، تباينت أحجامها ما بين كبير وصغير. عند الطرف الغربي كانت توجد نافذة مهيبة ذات زجاج قديم ملون مُعشَّق، كان من الممكن أن تُزيّن كاتدرائية كما ذكرت من قبلُ. كان الحجم الهائل للغرفة، التي اتسمت بالاتساع شأنها شأن مجموعة الكتب التي كانت تأويها بين جنباتها، هو ما جعل من الضروري أن يكون الجدار الخارجي فقط هو ما يجب أن يُغطَّى بخِزانات الكتب، وحتى هذه الخِزانات كان يفصلها النوافذ الطويلة. أما الجدار المقابل، فكان خاويًا من أيِّ شيء، إلا من صورة هنا وأخرى هناك، وكانت هذه الصور سُبَّة في جبين الغرفة؛ إذ كانت عبارة عن مطبوعات رخيصة، كان أغلبها مطبوعات حجرية مُلوَّنة ظهرت في عددٍ من صحف لندن الأسبوعية، تُحيطها أُطر بائسة، تتدلَّى من مسامير ثُبِّتت في الجدار أعلاها بقسوة. كانت الأرض مغطاة ببقايا الأوراق، بلغت الركبتَين في بعض الأماكن، وفي أبعد الأركان من الكِير ظل السرير، الذي شهد آخر لحظات العجوز البخيل، موجودًا في مكانه.

قال الإيرل بعد أن انتهيت من المعاينة معقِّبًا: - تبدو كإسطبل، أليس كذلك؟ أنا واثق من أن العجوز قد ملأها بهذه القمامة ليعوقني عن تفتيشها. فقد أخبرني هيجنز أن الغرفة كانت خاليةً نوعًا ما من كلِّ هذه القمامة قبل شهر من وفاته. لا بُدَّ أنها كانت كذلك بالطبع، وإلا لالتهمت النار المكان من الشرر المُتطاير من الكِير. لقد أخذ العجوز هيجنز يجمع كلَّ ما يستطيع إيجاده من أوراق في المكان، من كشوف حسابات قديمة، وصُحف، وأشياء أخرى، وحتى ورق التغليف البُني الذي كانت الطرود تأتي فيه، وأمره بأن يُغطِّي الأرض بهذه النفايات؛ لأن حذاء هيجنز الطويل على الألواح الخشبية للأرض يُصدِر أصواتًا مُزعجة للغاية، حسب شكواه، ورأى هيجنز، الذي لا يملك أدنى قدرٍ من الفضول وحب الاستطلاع، هذا التفسير كافيًا ووافيًا.

تبيَّن لي أن هيجنز عجوز ثرثار، ليس بحاجة إلى إلحاح كي يتحدَّث عن الإيرل الراحل؛ بل كان تحويل دفة الحديث إلى أيِّ اتجاهٍ آخر أمرًا شبه مستحيل. وطمست الألفةُ التي جمعت بينه وبين النبيل الغريب الأطوار على مدار عشرين عامًا ذلك الاحترام الذي عادةً ما يتعامل به خادم إنجليزي مع سيدِهِ إلى حدٍّ كبير. كانت فكرة أي تابعٍ أو مرءوسٍ إنجليزي عن النبالة هي الرجل الذي لا يمكن بأيِّ حالٍ أن يعمل بيديه. ولم يكن من شأن حقيقة أن اللورد تشيزلريج كان يكدح على نضد النجار، ويمزج الأسمنت في غرفة الرسم، ويطرق على السَّنْدان حتى منتصف الليل، أن تثير في ذهن هيجنز أيَّ إعجاب. بالإضافة إلى هذا، كان النبيل العجوز صارمًا إلى حد التقتير في فحص كشوف حساباته؛ إذ كان يُدقق إلى أقصى حدٍّ في كلِّ بنسٍ ينفقه؛ ومِن ثَمَّ كان الخادم المتواضع يُكِن ازدراءً شديدًا لذكراه. أدركت قبل انتهاء الرحلة من محطة القطار إلى قصر تشيزلريج أن تقديمي إلى هيجنز كأجنبي وخادم مثله لن يُجدي كثيرًا؛ فقد وجدت نفسي عاجزًا تمامًا عن فهم ما يقوله العجوز؛ فكانت درايتي بلكنته كدرايتي بلغة التشوكتاو، وكان الإيرل الشاب يُضطر لتقمُّص دور المترجم في أوقات دوران ماكينة الحديث الثرثارة تلك.

أعلن الإيرل الشاب، بحماس الصِبَية، نفسَه تلميذًا ومساعدًا لي، وكان يقول إنه سيفعل أيَّ شيءٍ يُؤمر به. كان بحثه الدقيق والعقيم في المكتبة قد أقنعه بأن العجوز كان يمازحه فقط، حسب تعبيره، بتركه خطابًا كذلك الذي كتبه. كان فخامته واثقًا من أن الأموال مخبَّأة في مكان ما؛ ربما كانت مدفونة تحت واحدة من أشجار المتنزه. كان هذا محتملًا بالطبع، وكان بمنزلة الطريقة المألوفة التي يتبعها الأغبياء لإخفاء كنز، ولكنني لم أكن أظن ذلك احتمالًا واردًا؛ فقد تبيَّن لي من كلِّ أحاديثي مع هيجنز أن الإيرل العجوز كان رجلًا نزَّاعًا للشك إلى أبعد الحدود؛ فكان يتشكك في البنوك، ويتشكك حتى في الأوراق النقدية الصادرة من بنك أوف إنجلاند، فكان يتشكَّك في الجميع، ولم يكن

هيجنز استثناءً؛ لذلك، كما أخبرت ابن أخيه، لم يكن العجوز البخيل سيسمح للثروة أن تبعد عن مرآه ومتناوله مباشرة، منذ الوهلة الأولى بدا لي وضع كير الحدادة والسَّنْدان في غرفة النوم أمرًا غاية في الغرابة، وقلت للشاب:

- سوف أجازف بسُمعتي وأجزم أن السر في الكِير أو السَّنْدان، أو كليهما معًا. لقد كان السيد العجوز، كما ترى، يعمل أحيانًا حتى منتصف الليل؛ بالنظر إلى أن هيجنز كان يسمع صوتَ المطرقة وهو يطرق بها. لو أنه كان يستخدم الفحم الصلب في الكِير، لظلت النيران مُشتعلة على مدار الليل، وبالنظر إلى رعبِه الدائم من اللصوص، كما يقول هيجنز، وغلقه القصر كلَّ مساء قبل حلول الظلام بالمتاريس كما لو كان حصنًا، فلا بُدَّ أنه كان يضع الكنز في أكثر مكان يستبعد أن يستطيع أيُّ لصٍّ الوصول إليه. ولما كان الدخان المتصاعد من حرق الفحم مستمرًّا طوال الليل، وإذا كان الذهب في الكِير أسفل جذوة النيران، سيكون الوصول إليه بالغ الصعوبة. وأي لص يبحث في الظلام ستحترق أصابعه لا محالة. ولمَّا كان فخامته يحتفظ بما لا يقل عن أربعة مسدسات محشوة بالطلقات أسفل وسادته، فقد كان كلُّ ما عليه، إذا دخل لصٌّ إلى غرفته، هو أن يدعه يواصل البحث حتى يبدأ في تفتيش الكِير، حينئذٍ، وبلا شك، وبما أنه كان يعرف نطاق التصويب بدقة معقولة ليلًا أو نهارًا، يمكنه أن يجلس في السرير ويمطره برصاص مسدس تلو الآخر. كان من الممكن إطلاق ثمان وعشرين رصاصة في ثوانٍ معدودة، ومِن ثَمَّ لم يكن لدى اللص فرصة كبيرة للنجاة في مواجهة مثل هذا الوابل من الطلقات النارية. أظن أن علينا تفكيك الكِير.

انهر اللورد تشيزلربج كثيرًا بتفكيري، وفي وقت مبكر من صباح أحد الأيام، قطعنا المنافيخ الكبيرة ومزقناها، فوجدناها خاوية، ثم نزعنا طوبةً تلو الأخرى من الكِير بواسطة عتلة؛ إذ كان العجوز يُحسِن البناء بالأسمنت البورتلاندي.

بل إننا حين أزلنا النفايات ما بين قوالب الطوب وقلب الأتون، عثرنا على قالب من الأسمنت في صلابة الجرانيت. وبمساعدة هيجنز، ومجموعة من البكرات والروافع، تمكنَّا من إخراج هذا القالب إلى المتنزَّه، وحاولنا تحطيمه بواسطة المطارق الثقيلة التي كانت موجودة في الكِير، وهو ما فشلنا فيه تمامًا. وكلَّما ازدادت مقاومته لمحاولاتنا لتحطيمه، ازددنا يقينًا بأن العملات الذهبية موجودة بداخله. ولأنه لن يكون كنزًا دفينًا، بما يعني أن الحكومة قد تطالب بحقها فيه، لم يكن هناك ضرورة خاصة للسرية؛ ومِن ثَمَّ استدعينا رجلًا يعمل بالمناجم القريبة بالمثاقيب والديناميت، وسرعان ما حطم القالب إلى مليون قطعة. لكن يا للأسف! لم يكن ثمة أثر في حطامه لأيِّ شيءٍ ذي قيمة. وبينما كان خبير الديناميت موجودًا في المكان، دعوناه إلى تحطيم السَّنْدان مثلما فعل مع قالب الأسمنت، وحينئذٍ حمل العامل أدواته على كتفه وعاد إلى منجمه، وهو يعتقد بلا شك أن الإيرل الجديد مختلٌّ كعمه العجوز.

عاد الإيرل إلى رأيه السابق بأن الذهب مُخبأ في المتنزَّه، بينما ازددت تشبثًا باعتقادي بأن الثروة راقدة في المكتبة.

قلت له:

- من البديهي أنه إذا كان الكنز مدفونًا بالخارج، فلا بُدَّ أن أحدًا قد حفر الحفرة التي دُفن فيها. ولم يكن لرجلٍ جبان وكتومٍ للغاية مثل عمك أن يسمح لأحد سواه أن يقوم بذلك. كما أن هيجنز أكَّد منذُ بضعة أيام أنه كان يخزِّن جميع المعاول والمجارف بأمان كل ليلة في مخزن الأدوات. والقصر نفسه كان مُحصَّنًا بعناية فائقة إلى حدٍّ جعل خروج عمك نفسه منه أمرًا صعبًا حتى لو أراد ذلك. إذن فإن رجلًا بمواصفات عمك سيرغب دائمًا في وجود دليلٍ مرئيٍّ على أن مدخراته في أمانٍ ولم تُمَس، وهو ما يستحيل عمليًّا لو كان الذهب مدفونًا في المتنزَّه. أظن أن علينا الآن التخلي عن العنف والديناميت، ونمضي في بحثٍ عقلاني في المكتبة.

رد الإيرل الشاب: - هذا جيد للغاية، ولكن بما أنني قد فتشت المكتبة بدقة شديدة، فإن استخدامك لكلمة - عقلاني يا سيد فالمونت لا يتفق مع ما عُرِف عنك من أدبٍ ودماثة. ولكنني معك. لك الأمر، وعليَّ الطاعة.

قلت: - معذرةً سيدي اللورد. لقد استخدمت كلمة - عقلاني كتمييز بالتضاد لكلمة - ديناميت ، ولا تحمل أي إشارة إلى بحثك السابق. إنني فقط أرى أن نتخلَّى الآن عن استخدام التفاعل الكيميائي ونتحوَّل إلى قوة النشاط العقلي التي تفوقه كثيرًا. هل لاحظت أي كتابة على هوامش الصحف التي تفحَّصتها؟

- كلا، لم ألاحظ.

- هل من الممكن أن تُكتَب رسالة من نوعٍ ما على الحافة البيضاء لأي صحيفة؟

- ممكن بالطبع.

- إذن هل ستتولَّى مهمة الفحص السريع لهامش كل صحيفة، على أن تكدِّسها في غرفة أخرى بعد الانتهاء من الفحص؟ لا تُتلف أي شيء، ولكن لا بُدَّ أن نُخْلي المكتبة تمامًا. أنا مهتم بكشوف الحسابات، وسوف أتولى فحصها.

كان عملًا مضجِرًا إلى حدٍّ مثير للسخط، ولكن بعد عدة أيام، أبلغني مساعدي أن فحص كل الهوامش لم يُسفِر عن أي نتيجة، بينما جمعت أنا كل فاتورة ومذكِّرة، مصنِّفًا إياها وفقًا للتاريخ. لم أستطع التخلص من هاجس أن هذا الوغد العجوز العنيد قد كتب تعليمات بشأن كيفية الوصول إلى الكنز على ظهر إحدى الفواتير، أو على الورقة البيضاء الأمامية لأحد الكتب، وبينما كنت أتفحَّص آلاف الكتب المتبقية في المكتبة، هالني التفكير في كمِّ البحث الدقيق والدءوب الذي ينتظرني. ولكنني تذكرت كلمات إديسون عن أن الشيء إذا كان موجودًا، فإن البحث الدقيق بما يكفي كفيلٌ بأن يجده. اخترت عدة أوراقٍ من كمِّ كشوف الحسابات والفواتير المكدسة أمامي، ووضعت ما تبقَّى في غرفة أخرى، مع كومة الصحف الخاصة بالإيرل.

قلت لمساعدي: - والآن، إذا سمحت لي، سوف نستدعي هيجنز؛ لأنني أريد إيضاحًا لهذه الكشوف.

قال فخامة اللورد وهو يجذب كرسيًّا مقابلًا للطاولة التي نُثرت عليها الأوراق: - ربما يمكنني مساعدتك. لقد عشت هنا ستة أشهر، وأعرف أشياء كثيرة مثل هيجنز. إن إيقافه أمرٌ غاية في الصعوبة ما إن يبدأ الحديث. ما أول كشف تودُّ إلقاء مزيد من الضوء عليه؟

- بالعودة ثلاثة عشر عامًا إلى الوراء، أجد أن عمك قد اشترى خزينةً مستعملة في شيفيلد. ها هي الفاتورة. أرى أن من الضروري العثور على تلك الخزينة.

صاح الشاب وهو يقفز ويضحك:

- أرجو أن تغفر لي يا سيد فالمونت. إن شيئًا ثقيلًا وضخمًا كالخزينة لا يُفترض أن يسقط بسهولة من ذاكرة أي إنسان، ولكنه سقط من ذاكرتي. إن الخزينة خاوية، ولم أعبأ بالتفكير فيها كثيرًا.

ثم اتجه الإيرل نحو إحدى خزانات الكتب المستندة على الحائط، وجذبها كأنما يجذب بابًا، فتحركت بكلِّ ما فيها من كتب، وكشفت عن الجانب الأمامي لخزينة حديدية، فتح بابها هي الأخرى، كاشفًا عن الجزء الداخلي الفارغ المألوف لوعاء كهذا.

قال:

- لقد عثرت على هذه حين أنزلت جميع هذه الكتب. يبدو أنه في وقتٍ ما كان ثمة بابٌ سِريٌّ يؤدي من المكتبة إلى غرفة خارجية، اختفت منذ زمن طويل؛ إن الجدران سميكة للغاية. لا شكَّ أن عمي هو من أزال مفصلات هذا الباب، ووضع الخزينة في الفتحة، ثم سدَّ ما تبقَّى منها بالطوب.

قلت محاولًا إخفاء ما بي من إحباط: - حسنًا. بما أن هذا الصندوق القوي قد اشتُريَ مستعملًا ولم يُصنع خصوصًا، أعتقد أنه لا يمكن أن يكون به أي فتحات سِرّية؟

قال مساعدي:

- تبدو أشبه بخزينة عادية، ولكننا سنُخرجها حال طلبت ذلك.

أجبت قائلًا:

- ليس الآن. لقد فجَّرنا من الديناميت ما يكفي لنشعر وكأننا لصوص منازل.

- أوافقك الرأي. ما البند التالي في البرنامج؟

- إن هوس عمك بشراء الأشياء المستعملة تعطَّل في ثلاثة مواقف مثلما تسنَّى لي أن أعرف من التدقيق في هذه الحسابات. منذ نحو أربع سنوات اشترى كتابًا جديدًا من ديني آند كو، المكتبة الشهيرة في شارع ستراند. إن ديني آند كو لا تتعامل إلَّا في الكتب الجديدة. هل يوجد أي كتابٍ جديدٍ نسبيًّا في المكتبة؟

- لا يوجد.

- أأنت واثق من ذلك؟

- واثق تمامًا؛ لقد بحثت في كل المطبوعات الأدبية في المنزل. ما اسم الكتاب الذي اشتراه؟

- هذا ما لم أستطع اكتشافه. إن الحرف الأول يبدو أشبه بشكل حرفM ، أما البقية فكانت مجرد خط متعرج. غير أنني أرى أن ثمنه اثنا عشر جنيهًا وستة بنسات، بينما بلغت تكلفة توصيله عبر بريد الطرود ستة بنسات، وهو ما يُوضح أن وزنه كان أقل من أربعة أرطال. وقد دفعني هذا، إلى جانب ثمن الكتاب، إلى التفكير في أنه كان عملًا علميًّا، طُبع على ورق سميك ومصور.

قال الإيرل:

- لا أعرف شيئًا عنه.

- الفاتورة الثالثة لورق حائط، سبع وعشرون أسطوانة من ورق حائط باهظ الثمن، وسبع وعشرون أسطوانة من ورق رخيص، والأخير نصف ثمن الأول. يبدو أن ورق الحائط هذا مُورَّد من تاجر في طريق المحطة في قرية تشيزلربج.

صاح الشاب مشيرًا بيده: - ها هو الورق؛ لقد أخبرني هيجنز أنه كان بصدد تغطية المنزل كله بورق الحائط، ولكنه أُرهِق بعد أن انتهى من تغطية المكتبة، التي استغرقت منه حوالي عام؛ إذ كان يعمل على نحوٍ متقطعٍ للغاية؛ فكان يمزج معجون اللصق في البهو الصغير، بمعدَّل دلو في المرة الواحدة حسب احتياجه. لقد كان أمرًا شائنًا؛ إذ يُخفي الورق أسفله ألواحًا من خشب البلوط قبيحة للغاية، ولكنها ذات لونٍ غني.

نهضت وأخذت أتفحَّص الورق الملصق على الحائط. كان بنيًّا داكنًا، ومطابقًا للوصف المسجَّل في الفاتورة للورق الباهظ الثمن

- وماذا حدث للورق الرخيص؟

- لا أعلم.

قلت: - أظن أننا في طريقنا لحلِّ اللغز. أعتقد أن هذا الورق يُغطي لوحًا خشبيًّا جرارًا أو يُخفي بابًا.

أجاب الإيرل: - أمر وارد تمامًا. لقد كنت أعتزم إزالة الورق، ولكن لم يكن لديَّ أموال لكي أدفع لعامل، ولست مُكدًّا مثل عمي. ما الفاتورة المتبقية لديك؟

- الفاتورة الأخيرة تتعلق أيضًا بالورق، ولكنها صادرة من شركة في بادج رو، بشرق وسط لندن. يبدو أنه كان لديه ألف لوحٍ منه، ويبدو أنه كان باهظًا إلى حدٍّ مخيف. هذه الفاتورة غير واضحة أيضًا، ولكن أحسب أن ما وُرِّدَ بالفعل كان ألف لوح، على الرغم من أنه بالطبع قد يكون ألف رزمة من ٢٥ لوحًا، وفي هذه الحالة ستكون الكمية أكثر ملاءَمةً بالنسبة للسعر المحدد، أو ألف رزمة من ٥٠٠ لوح، وهو ما يجعل السعر زهيدًا للغاية.

- لا أعلم أي شأن عن ذلك. لنستعِن بهيجنز.

لم يكن هيجنز أيضًا يعلم أيَّ شيءٍ بشأن هذه الطلبية الأخيرة من ورق الحائط. ولكنه كشف لغز ورق الحائط في الحال. يبدو أن الإيرل العجوز قد اكتشف بالتجربة أن ورق الحائط السميك الباهظ الثمن لن يلتصق بالألواح الخشبية المصقولة؛ لذا اشترى ورقًا أرخص، وألصقه أولًا. قال هيجنز إنه قد ألصق على الألواح الخشبية التي تكسو الجدران ورقًا أبيض ضاربًا إلى الصفرة، وبعد أن جفَّ، لصق فوقه الورق الأغلى.

اعترضت قائلًا:

-ولكن كلا النوعين من الورق قد تم شراؤه وتسليمه في الوقت نفسه؛ ومن ثم لا يمكن أن يكون قد اكتشف بالتجربة أن الورق السميك لن يلتصق.

قال الإيرل معقِّبًا:

- لا أظن أننا سنستفيد كثيرًا من ذلك. ربما تم شراء الورق السميك أولًا، ووجد أنه غير مناسب، ثم اشترى الورق الرخيص المتين بعد ذلك. إن الفاتورة توضح فقط أن كشف الحساب قد أُرسل في ذلك التاريخ، ولما كانت قرية تشيزلريج لا تبعد إلا بضعة أميال فقط، فقد كان من الممكن تمامًا أن يكون عمي قد اشترى الورق السميك في الصباح، وجرَّبه، وبعد الظهر أرسل في شراء النوع الأرخص؛ ولكن على أيِّ حال لم تكن الفاتورة لتأتي إلا بعد شهور من الطلب، ومِن ثَمَّ أُدمِجت الصفقتان معًا.

-اضطُررت للاعتراف بأن هذا التفسير يبدو منطقيًّا.

والآن نأتي إلى الكتاب الذي طُلب من مكتبة ديني. هل كان هيجنز يذكر أيَّ شيءٍ بشأنه؟ فقد جاء منذ أربعة أعوام.

-آه، نعم، كان هيجنز يتذكره. بل كان يتذكره تمامًا؛ ففي صباح أحد الأيام دخل ومعه الشاي الخاص بالإيرل، وكان العجوز جالسًا في فراشه يقرأ كتابه باهتمامٍ شديدٍ حتى إنه لم ينتبه لطَرْقِ هيجنز على الباب، ولما كان هيجنز نفسه يُعاني بعض الصعوبة في السمع، فقد سلَّم بأنه قد أمره بالدخول. دسَّ

الإيرل الكتاب تحت الوسادة، مع المسدسات، في عجالة، ووبَّخ هيجنز أشد توبيخٍ لدخوله الغرفة قبل الحصول على إذنٍ بالدخول. لم يكن قد رأى الإيرل غاضبًا إلى هذا الحد من قبلُ، وعزا الأمر كله إلى الكتاب. وبعد وصول الكتاب شُيد الكِير وتم شراء السَّنْدان. ولم تقع عينا هيجنز على الكتاب بعد ذلك قط، ولكن في صباح أحد الأيام، وقبل ستة أشهر من وفاة الإيرل، وبينما كان هيجنز يجمع جمر الفحم في الكِير، وجد ما اعتقد أنه جزء من غلاف الكتاب، وظنَّ أن سيده قد أحرق الكتاب.

بعد صرف هيجنز، قلت للإيرل:

- أول شيءٍ يجب أن نفعلَه هو إرسال هذه الفاتورة إلى مكتبة ديني آند كو، بشارع ستراند. أخبرهم أنك قد فقدت الكتاب، واطلب منهم إرسال آخر. من المحتمل أن يكون بالمتجر شخص يستطيع فك شفرة الكتابة غير الواضحة. أنا واثق من أن الكتاب سيمنحنا مفتاحًا لحلِّ اللغز. والآن سوف أكتب إلى براون آند سانز، بشركة بادج رو. من الواضح أنها شركة فرنسية؛ بل إن الاسم يتردَّد في عقلي كون الشركة مرتبطة بصناعة الورق، وإن كنت لا أستطيع في الوقت الحالي تمييزها. سوف أسألهم عن استخدامات هذا الورق الذي ورَّدوه إلى الإيرل الراحل.

تمَّ ذلك كما ينبغي، وبعدها جلسنا، كما توقعنا، بلا عمل في انتظار الردود. ولكن في صباح اليوم التالي، يسرني أن أقول إنني حللت اللغز قبل وصول الردود من لندن، وهو الأمر الذي طالما هنَّأت نفسي عليه وكان مبعثَ فخرٍ لي. بالطبع كان كلٌّ من الكتاب والرد الذي تلقيته من وكلاء شركة الورق سيمنحانِنا مفتاح اللغز، من خلال الربط بين الاثنين، بعد تناول الإفطار، أخذت أتجول بلا هدف نوعًا ما داخل المكتبة، التي خلت أرضيتها الآن إلا من بعض ورق التغليف البُني، وبعض الخيوط، وأشياء من هذا القبيل. وبينما كنت أُزيح هذه الأشياء جانبًا بقدمي، كمن يُزيح أوراق الخريف الميتة في طريق

بالغابة، إذا بي أنتبه فجأةً إلى وجود عدة ألواح مربعة من الورق، غير مجعدة، ولم تُستخدم قط في تغطية الجدران. بدت هذه الألواح مألوفة لي على نحوٍ غريب. التقطت أحدها، وفي الحال اتضح لي مغزى اسم براون آند صَنز. إنها شركة لتصنيع الورق في فرنسا، تُنتج ورقًا ناعمًا متينًا للغاية، وهو على غلوّ ثمنه، ثبت أنه رخيص للغاية مقارنة بالورق الرَّقِيّ الرقيق الذي كانت تعرضه في فرعٍ مُعيَّن من فروع الصناعة. في باريس، وقبل سنوات، تمكنت من خلال هذه الألواح من معرفة كيف تصرفت إحدى العصابات في الذهب الذي استولت عليه دون صَهره. كان هذا الورق يُستخدم بدلًا من الورق الرَّقِيّ في عمليات تصنيع رقاقات الذهب؛ فهو يتحمَّل الطَّرْق المستمر للمطرقة بنفس قدر الورق الرَّقِيّ تقريبًا، وهنا تبين لي في الحال سرُّ ما كان يفعله العجوز بالسَّنْدان في منتصف الليل. لقد كان يُحوِّل ذهبَه إلى رقاقات ذهب، وقد كانت بالتأكيد من نوع سميك وبسيط؛ لأن إنتاج رقاقات ذهب تجارية كان يستلزم منه استخدام الورق الرَّقِيّ، علاوة على- مقبض وآلات أخرى لم نعثر لها على أثر.

ناديت على مساعدي، الذي كان في الطرف الآخر من الغرفة:

- سيدي اللورد، أريد أن أختبر نظريةً ما على سَنْدان فطرتك السليمة النقية.

أجاب الإيرل وهو يقترب نحوي بتعبير وجهه البشوش الخفيف الظل:

- فلتطرق كما تشاء.

- لقد استبعدتُ الخزينة من تحقيقاتنا؛ لأنها اشتُريت منذ ثلاثة عشر عامًا، أما شراء الكتاب، وورق الحائط، وهذا الورق الغليظ من فرنسا، فكل هذه الأحداث وقعت متواترة في الشهر نفسه الذي تمَّ فيه شراء السَّنْدان وبناء الكِير؛ لذا أعتقد أنها جميعًا مترابطة. هذه بعضٌ من ألواح الورق الذي اشتراه من بادج رو. هل سبق أن رأيت شيئًا يُشبهه من قبلُ؟ حاولْ أن تُمزِّق هذه العينة.

أقرَّ فخامتُه وهو يحاول عبثًا تمزيقه:

- إنه متين للغاية.

- نعم. لقد صُنِع في فرنسا، ويُستخدم في طَرْق الذهب. إن عمك حوَّل ذهبه إلى رقاقات ذهب. سوف تجد أن الكتاب الوارد من مكتبة ديني هو كتاب عن كيفية طَرق الذهب، وحين أتذكر تلك الكلمة غير الواضحة التي لم أستطع فهمها، أعتقد أن عنوان الكتاب هو Metallurgy - علم الفلزات . لا شكَّ أنه يحوي فصلًا عن تصنيع رقاقات الذهب.

قال الإيرل: - إنني أصدِّقك، ولكن لا أرى أن هذا الاكتشاف يُقربنا من الثروة بأي حال. نحن الآن نبحث عن رقاقات ذهب بدلًا من الذهب.

قلت:

- لنفحص ورق الحائط هذا.

وضعت سكِّيني تحت أحد أركانه قرب الأرض، وتمكَّنت بسهولة من قطع جزءٍ كبيرٍ منه. لقد كان الورق البني، كما قال هيجنز، على السطح بينما كان الورق الغليظ ذو اللون الفاتح أسفله. ولكن حتى هذا الورق انفصل بسهولة عن ألواح خشب البلوط التي تكسو الجدران، وكأنه ملتصقٌ بها بحكم العادة، وليس بفعل معجون اللصق، صحت مناولًا إيَّاه لوح الورق الذي أزلته عن الجدار: - استشعر وزن ذلك.

قال الإيرل بصوتٍ طغت عليه نبرة هلع:

- يا إلهي!

أخذته منه، وبسطته على الطاولة الخشبية واضعًا وجهه لأسفل. ونثرت قليلًا من الماء على الظهر، وبواسطة سكين أخذت أكشط طبقة الورق الأبيض المسامية. وفي الحال لاح أمامنا بريقُ صُفرة الذهب. هززت كتفيَّ وبسطت يديَّ. وضحك إيرل تشيزلريج بصوتٍ عالٍ وحماسٍ شديد، صحتُ قائلًا:

- أرأيت كيف سار الأمر. لقد غطَّى العجوز الجدار بأكمله بهذا الورق الضارب إلى البياض أولًا، ثم سخَّن ذهبه في الكِير وطرَقه على السَّنْدان، ثم أكمل العملية على نحوٍ بسيطٍ بين ألواح هذا الورق القادم من فرنسا. ربما كان يُلصِق الذهب على الجدار بمجرد أن يغلق على نفسه غرفته عند حلول الليل، ويُغطيه بالورق الأغلى ثمنًا قبل دخول هيجنز في الصباح.

غير أننا وجدنا بعد ذلك أنه قد ثبَّت ألواح الذهب السميكة على الجدار بواسطة مسامير تثبيت السجاد، كان صافي ما ربِحه فخامة اللورد من وراء اكتشافي هذا يزيد على مائة وثلاثة وعشرين ألف جنيه، ويُسعدني أن أُعبِّر عن تقديري وامتناني لسخاء اللورد الشاب بالقول إن تسويته التطوعية قد جعلت حسابي البنكي يتضخم ليُعادل حساب عضو بالمجلس التشريعي للمدينة.

لغز
الماسات الخمسمائة

عندما أقول إن اسمي فالمونت، فإن هذا الاسم لن يُعطي أيَّ انطباعٍ للقارئ، بشكلٍ أو بآخر. أعمل محقِّقًا خاصًّا في لندن، لكنك إن سألت أيَّ ضابط شرطة في باريس عن فالمونت، فعلى الأرجح سيستطيع إخبارك عني، إلا إنْ كان قد عُين حديثًا. وإن سألته عن مكان فالمونت في الوقت الحالي، فربما لن يعرف، ومع ذلك فلي باع طويل مع الشرطة الباريسية.

عملتُ طوال سبع سنوات كبيرًا للمحققين في حكومة فرنسا، وإن كنتُ لا أستطيع إثبات أنني صائد جرائم عظيم؛ وهذا لأن سِجلي المهني محفوظ في الأرشيف السري في باريس، ربما عليَّ الاعتراف في البداية أنني لا أحمل ضغينةً على الإطلاق؛ فقد رأت حكومة فرنسا أن لديها ما يبرر صرفها لي، ففعلتْ هذا، وكان معها كامل الحق في فعله. ويجب أن أكون أنا آخر المعترضين على هذا الحق؛ لكنني، من ناحيةٍ أخرى، أجد أن لديَّ الحق في نشر القصة التالية عما حدث بالفعل، لا سيما أن كثيرًا من الشائعات الخاطئة انتشر في الخارج بشأن هذه القضية. ومع ذلك، كما قلتُ في البداية، لا أحمل ضغينة على الإطلاق؛ لأن أموري الدنيوية أصبحت الآن أكثر ازدهارًا مما كانت عليه في باريس؛ فمعرفتي الوثيقة بهذه المدينة والبلد الذي هي عاصمته جعلتْني أتولى كثيرًا من القضايا التي تعاملتُ معها بنجاح إلى حدٍّ ما منذ تأسيسي لعملي في لندن، دون مقدماتٍ أخرى سأدخل على الفور في سرد القضية التي جذبت انتباه العالم أجمع منذ أكثر من عَقدٍ مضى بقليل.

كان عام ١٨٩٣ اثني عشر شهرًا من الازدهار في فرنسا؛ فكان الطقس جيدًا، والمحصول ممتازًا، وما زالت الخمر التي نتجت عن محصول العنب في هذه السنة يُحتفى بها إلى يومنا هذا. كان الجميع ميسوري الحال، ويعيشون في سعادةٍ مُبرَّرة، وهي حالةٌ تتناقض بوضوحٍ مع حال الأمور بعد بضع سنوات، حين ترك الصراع حول قضية دريفوس البلدَ في حالةٍ من الانقسام.

ربما يتذكر قُراء الصحف أنه في عام ١٨٩٣ وقع في حوزة حكومة فرنسا كَنز غير متوقع جعل العالم المتحضر في حالة من الترقب، خاصةً سكانه المهتمين بالآثار التاريخية. تمثَّل هذا الحدث في العثور على عِقد من الماس في قلعة شاتو دي شومو، بعد أن ظل في كومة من النفايات في عِلِّيَّةٍ دون أن يكتشفه أحدٌ طوال قرن من الزمن. أعتقد أن أحدًا لم يشكَّ في أنه العِقد الحقيقي الذي أراد بومر الصائغ بيعه لماري أنطوانيت، على الرغم من أن أحدًا لا يمكنه أن يُخمِّن طريقة وصوله إلى قلعة شاتو دي شومو؛ فطوال مائة عام كان من المفترض أن هذا العِقد قد فُكِّك في لندن وبيعت أحجاره الخمسمائة، كبيرها وصغيرها، كلٌّ على حدة. وطالما بدا لي غريبًا أن الكونتيسة لامو فالوا، التي ساد الاعتقاد بأنها استفادت من بيع هذه الجواهر، لم تترك فرنسا إن كانت تمتلك هذا القدر من المال الذي يمكِّنها من ترك البلد؛ إذ كان من الحتميّ أن تتعرض لفضيحة إن بقيت. في الواقع، وُصمت هذه السيدة التعيسة الحظ بالعار وسُجنت، ثم سقطت إلى حتفها من الطابق الثالث في منزل بلندن، حينما حاولت، وهي في فقر مُدقع، الهروب من تبِعات الديون الهائلة التي تراكمت عليها.

لا أومن بالخرافات على الإطلاق، لكن يبدو أن هذه القطعة الشهيرة من الكنز الدفين كان لها بالفعل تأثير خبيث على كل من تعامل معها لسوء حظه. وفي الحقيقة تعرضتُ، أنا الذي أكتب هذه الكلمات، للطرد وأُصبت بالعار على الرغم من أني لم أُلقِ إلا نظرة واحدة على هذه الجواهر المتلألئة المتألقة. أما الصائغ الذي صنع هذا العِقد فقد تعرَّض لدمار مالي؛ والملكة التي صُنع من أجلها قُطع رأسها؛ والأمير الرفيع الشأن لويس رينيه إدوارد، كاردينال روهان، الذي اشتراه زُج به في السجن؛ أما الكونتيسة التعيسة الحظ، التي أدت دور الوسيط حتى إتمام عملية نقل هذه الجواهر، فتعلقت لخمس دقائق مُربعة بحافَّة نافذة في لندن قبل أن تسقط لتلقى حتفها عند الرايات في الأسفل،

والآن بعد ١٠٨ أعوام تظهر للنور مرةً أخرى هذه العروض الشيطانية للألعاب النارية! يبدو أن دروليارد، العامل الذي عثر على الصندوق القديم، بادر بفتحه، وعلى الرغم من جهله — فهو على الأرجح لم يرَ ماسًا في حياته من قبلُ — فإنه أدرك أن ثمَّة ثروةً في متناول يده. ولا بد أن البريق المشئوم من مجموعة الجواهر هذه أصاب عقله بالجنون؛ إذ إنه أحدث دمارًا بالمكان كما لو كانت أشعة البريق هذه هي الأشعة الغامضة التي اكتشفها العلماء مؤخرًا. كان بإمكانه المرور بسهولةٍ بالغةٍ عبر البوابة الرئيسية لقلعة شاتو ومعه الماسات يُخفيها في ملابسه دونَ أن يشُك فيه أحدٌ ودون أن يسأله أحد، ولكنه بدلًا من ذلك زحف خارجًا من نافذة العِلِّية إلى السطح الشديد الانحدار، وانزلق إلى حافته، وسقط على الأرض حيث استلقى ميتًا برقبة مكسورة، بينما سقط العِقد سليمًا يلمع في ضوء الشمس بجوار جثته. وبصرف النظر عن مكان العثور على هذه المجوهرات كانت الحكومة تصرُّ على انتمائها لخزانة الجمهورية، لكن بما أن قلعة شاتو دي شومو كانت مَعلمًا تاريخيًّا، ومن ممتلكات فرنسا؛ لم يكن يوجد أدنى شك بشأن مِلكية الدولة للعِقد، فاستعادته الحكومة على الفور، وأمرت بإرساله على يد رجل عسكري مؤتمن إلى باريس. حمله ألفريد دريفوس، ضابط المدفعية الشاب، بأمانٍ وسلَّمه سريعًا إلى السُّلطات.

وعلى الرغم من سقوط العقد من البرج المرتفع لم تتعرض العُلبة ولا الجواهر لدمار واضح. كان من الواضح أن قُفل الصندوق فُتح عَنوة بفعل فأس دروليارد الصغيرة، أو ربما بفعل المِطواة التي عُثر عليها في ملابسه. وعند وصول الصندوق إلى الأرض انفتح الغطاء، ووقع العقد خارجَه.

أعتقد أن بعض النقاشات دارت في مجلس الوزراء بشأن مصير هذا الأثر التذكاري المشئوم؛ فأراد قسمٌ منهم وضعه في مُتحف بسبب أهميته التاريخية، بينما أيَّد قسم آخر تفكيك العِقد وبيع ماساته نظير أيِّ مبلغ من

المال. إلا أن قسمًا ثالثًا أشار إلى أن الطريقة التي ستُدخل أكبر قدرٍ من المال إلى خزانة البلد هي بيع العقد كما هو؛ إذ إن العالم أصبح يزخر الآن بكثير من الهُواة الأغنياء الذين يجمعون القطع النادرة غير المشكوك فيها، بصرف النظر عن ثمنها، وستعزز الارتباطات التاريخية لهذا الطوق المرصَّع بالماس من القيمة الحقيقية للأحجار. ومع سيادة وجهة النظر هذه، أعلنوا أن العِقد سيُباع في مزاد بعد شهر في قاعة عرض ماير ورينو وشركائهما، في فندق بوليفار دي إيطاليان، بالقرب من بنك كريدي ليونيه.

أثار هذا الإعلان كثيرًا من التعليقات في الصحف في كافة البلدان، وبدا، من وجهة نظرٍ مادية على الأقل، أن قرار الحكومة كان حكيمًا؛ إذ اتضح سريعًا أن زمرةً بارزةً من المشترين الأثرياء سيحتشدون في باريس في يوم الثالثَ عشَر - وهو يومٌ أعتبره مشئومًا! حين يُقام المزاد. أما نحن في الدائرة الداخلية فقد نما إلى علمنا نتيجة أخرى ربما تكون أكثر إزعاجًا، وهي أن أكثر المجرمين حنكةً في العالم سيتجمعون أيضًا مثل الطيور الجارحة في هذه المدينة الجميلة. لقد كان شرف فرنسا على المِحك. فأيًّا كان مَن يشتري العِقد فلا بد له أن يطمئن إلى خروجه الآمن من البلد. يمكننا الجلوس ومشاهدة ما يحدث بعد ذلك بهدوء، لكن ما دام مقيمًا في فرنسا، يجبُ ألا تتعرض حياته وممتلكاته للخطر.

وعليه، حدث أن أُوكِل إليَّ كامل مسئولية ضمان عدم ارتكاب جريمة قتل أو سرقة، أو كلتيهما معًا، ما دام مشتري العِقد داخل حدود دولتنا؛ ولهذا الغرض وُضعتْ موارد شرطة فرنسا دون تحفُّظ تحت تصرُّفي. إذا فشلتُ فلن يُلام أحد غيري؛ ومن ثَمَّ، كما أشرتُ سابقًا، أنا لا أشكو بشأن طردي من الحكومة، أُصلِحَ قُفل صندوق المجوهرات المكسور ببراعة شديدة على يد خبير في صنع الأقفال، وقَد تعرَّض لسوء الحظ في أثناء تأدية مهمته إلى خدْش إحدى أصابعه في المعدن المكسور، حدث له على أثَره تسمم في الدم،

وعلى الرغم من إنقاذ حياته، فقد خرج من المستشفى دون ذراعه اليمنى وأصبح عديم الجدوى.

عندما صنع الصائغ بومر العِقد طلب نظيرَه ١٦٠ ألف جنيهٍ، لكن بعد مرور سنوات من الإحباط رضيَ ببيعه لكارديناال روهان نظير ٦٤ ألف جنيهٍ فقط، تُدفع على ثلاثة أقساط، لم يُدفع أيٌّ منها قط. وعلى الأرجح كان هذا المبلغ الثاني أقرب لقيمة الأحجار المنفصلة التي يصل عددها إلى ٥٦٠، كان حجم واحد منها هائلًا، مثل ملكة الماسات، تحيط به ١٧ ماسة برَّاقة كلٌّ منها في حجم البُندقة. وُضعتْ هذه الثروة المضيئة بألوان قوس قُزح، إن جاز لنا القول، في عنايتي، وكان لزامًا عليَّ الحرص على عدم وقوع ضرر للعِقد أو لمالكه المرتقب حتى عبوره حدود فرنسا بأمان.

كانت الأسابيع الأربعة السابقة على يوم الثالثَ عشَر مليئة بالأعمال والتوتر بالنسبة لي. أراد الآلاف رؤية الماسات، معظمهم يدفعه الفضول فحسب. فأُجبرنا على التمييز، وأحيانًا كنا نميز ضد الشخص الخطأ، وتسبب هذا في الاستياء. بُذلت ثلاث محاولات منفردة لسرقة الخزينة، لكن لحسن الحظ أُحبطت هذه المحاولات الإجرامية، ووصلنا سالمين إلى يوم الثالثَ عشَر من الشهر، كان من المقرَّر بدء المزاد في الساعة الثانية، وفي صباح هذا اليوم اتخذتُ الإجراء الاحترازي المستبد بصورةٍ ما، والمتمثل في سجن أخطر المخرِّبين في بلدنا، وأكبر عدد ممكن من اللصوص الأجانب استطعتُ تلفيق اتهامات ضده، ومع ذلك كنت أعلم جيدًا أنني لم يكن يُفترض بي أن أخشى هؤلاء الحُثالة، بل السادة المحترمين المنمَّقين، المزوَّدين بما يكفي من المؤهِّلات غير القابلة للشك، والذين يدخلون إلى أفخم فنادقنا ويعيشون كالأمراء. كان كثير من هؤلاء أجانب لا يمكننا إثبات أي شيء ضدهم، وربما يضعُنا قبضُنا عليهم في مشكلات دولية لبعض الوقت. ومع ذلك، أخضعتُ كلًّا مِن هؤلاء للمراقبة، وفي صباح يوم الثالثَ عشَر كنت مستعدًّا، لو دخل أحدهم في

جدال حتى حول تعريفة السيارة الأجرة، للزجّ به في السجن بعد نصف ساعة فقط وتحمُّل العواقب، لكنَّ هؤلاء الرجال شديدو الدهاء ولا يرتكبون أخطاءً.

أعددتُ قائمةً بجميع الرجال في العالم الذين بإمكانهم شراء العِقد أو يُحتمل منهم ذلك. كثير منهم لن يكون موجودًا بنفسه في قاعة المزاد، بل سيُقدِّمون مزايداتهم عبر وكلائهم. عمِل هذا على تبسيط الأمور كثيرًا؛ إذ عمِل الوكلاء على إطلاعي على غاياتهم في حينها، كما أن الوكيل الذي يتعامل مع كنزٍ كل أسبوع بارع في عمله، ولا يحتاج إلى الحماية التي لا بد أن يُحاط بها الهاوي، الذي لا تكون لديه إلا فكرة طفيفة في تسع حالات من أصل عشْرٍ عن الأخطار التي تهدده، بخلاف أنه إذا سار في شارع مظلم في حيٍّ خطرٍ فربما يتعرض إلى إساءة المعاملة أو السرقة، أُعلنَ عن حضور عدد لا يقل عن ١٦ عميلًا، علمنا بحضورهم شخصيًّا في يوم المزاد، يمكن لأيّ أحد منهم شراء العِقد. كان ماركيز وارلينجهام ولورد أوكستد من إنجلترا من أشهر هواة المجوهرات، بينما كان من المتوقع حضور نصف دستة من المليونيرات على الأقل من الولايات المتحدة، وعدد قليل من ألمانيا وأستراليا وروسيا، وواحد فقط من كلٍّ من إيطاليا وبلجيكا وهولندا.

لم يكن مسموحًا بدخول قاعة المزاد إلا بتذكرة، يكون التقديم عليها قبل أسبوع على الأقل، ويُرفَق باستمارات التقديم الشهادات المطلوبة. ربما كان كثير من الرجال الأغنياء المجتمعين هناك سيشعرون بالاندهاش إن علموا أنهم يجلسون إلى جوار أشهَر اللصوص في إنجلترا وأمريكا، لكني سمحتُ بحدوث هذا لسببين؛ الأول أني أردتُ وضع هؤلاء المحتالين تحت عيني حتى أعرف مَن سيشتري العِقد، والثاني أنني أردتُ بشدةٍ إخبارَهم أنهم ليسوا موضع شك.

وضعتُ رجالًا محلَّ ثقة خارج فندق بوليفارد دي إيطاليان، كلٌّ منهم كان يعرف شكل أكثر المشترين المحتمَلين للعِقد. وكان من المقرر عند انتهاء المزاد أن أخرج من الفندق بجوار المالك الجديد للماسات، ومنذ هذه اللحظة وحتى خروجه من فرنسا، كان من المفترض ألا يغفُل رجالي عنه في حال احتفاظه بالأحجار في حيازته، بدلًا من فعل التصرف المنطقي والمناسب في هذه الحالة، بأن يَعهد بها إلى شركةِ نقلٍ مسئولة تنقلها إلى محل إقامته، أو يودِعها أحدَ البنوك. في الحقيقة، اتخذتُ كل إجراء احترازي تراءى لي؛ فكل شرطة باريس كانت في حالة استنفار، وشعرت كأنها تواجه الاحتيال في العالم أجمع.، لسببٍ أو لآخر قاربَت الساعة على الثانية والنصف ولم يبدأ المزاد؛ فقد حدث تأخُّر ملحوظ بسبب تذاكر مزوَّرة، وفي الواقع خضع كل إذن بالدخول لفحصٍ دقيق لدرجة أن هذا استغرق وقتًا أطول بكثير مما كنا نتوقع. أصبحت كافة المقاعد مشغولة، ومع ذلك أُجبر عدد من الزائرين على الوقوف. اتخذتُ موقعي بجوار الأبواب المتأرجحة عند مدخل القاعة؛ حيث يمكنني رؤية الجمع بأكمله. وقف بعض رجالي وظهورهم للحائط بينما توزَّع الآخرون بين المقاعد، وكلهم يرتدون ملابس عادية. في أثناء المزاد لم تكن الماسات نفسها معروضة، بل وُضع الصندوق الذي يحتوي عليها أمام المسئول عن إدارة المزاد، ووقف ثلاثة رجال شرطة يرتدون الزي الرسمي على كلا جانبَيه لحراسته، بدأ المسئول عن المزاد بهدوء بالغ، وقال إنه لا يحتاج إلى الإسهاب في الطبيعة البارزة لهذا الكَنز الذي حظي بشرف عرضه للبيع، وبهذا التمهيد طلب من الحاضرين تقديم عطاءاتهم. قدَّم أحدهم ٢٠ ألف فرانك، تعالت الضحكات على أثَره، ثم استمرت المزايدة باطراد حتى وصلت إلى ٩٠٠ ألف فرانك، وهو مبلغ أعرف أنه أقل من نصف المبلغ الذي أنفقَتْه الحكومة على العِقد. استمرت المنافسة ببطءٍ أكثر حتى وصلت إلى مليونٍ ونصف، وظل الحال كذلك لبعض الوقت، بينما أشار المسئول عن إدارة المزاد إلى أن هذا

المبلغ لا يضاهي المبلغ الذي اضطُر صانع العِقد إلى قبوله في النهاية نظيرًا له. وبعد الصمت مرةً أخرى أضاف قائلًا إنه نظرًا لعدم زيادة النظير المادي، فإن العِقد سيُسحَب من المزايدة، وعلى الأرجح لن يُعرض للبيع مرةً أخرى أبدًا، وبهذا حثَّ الممتنعين عن المشاركة على تقديم عطاءاتهم الآن. عندئذٍ اشتعلت المنافسة حتى عُرض مبلغ مليونين و ٣٠٠ ألف فرانك، والآن علمتُ أن العِقد سيُباع. ومع الاقتراب من مبلغ ثلاثة ملايين انحصرت المنافسة بين بضعة تجار من هامبورج، وماركيز وارلينجهام من إنجلترا، ثم ارتفع صوت لم ينطلق إلَّا الآن في قاعة المزاد بنبرةٍ تنمُّ عن قدر من نفاد الصبر، قائلًا:

- مليون دولار!

ساد الصمت على الفور، وأعقبه صوت كتابة بالأقلام الرصاص، إذ كان كلُّ فرد من الموجودين يحسِب مقابل هذا المبلغ بعُملته؛ الجنيه الإسترليني للإنجليز، والفرانك للفرنسيين، والمارك للألمان، وهكذا. دلَّت نبرة الصوت العَدائية والملامح الحادة للمُزايد على أنه أمريكي، تمامًا مثل الفئة المالية التي استخدمها. وفي لحظة أدرك الجميع أن مزايدته كانت طفرة واضحة بأكثر من مليونَي فرانك، فصدر تنهيد من الحضور كما لو أن هذا حسم الأمر، وتمَّت صفقة البيع الضخمة. ومع ذلك، تأرجحت مِطرقة المسئول عن المزاد فوق غطاء مكتبه، ونظر متفحصًا الوجوه المتجهة كلها إليه. فبدا مترددًا في النقر على الطاولة، لكن لم يحاول أحد أن ينافس هذا المبلغ الضخم، فضرب بالمِطرقة الخشبية مُصدرًا نقرةً حادة، سأل وهو ينحني تجاه العميل:

- ما اسمك؟

telegram @soramnqraa

رد الأمريكي:

- كاش، وهذا شيك بالمبلغ المطلوب، وسآخذ الماسات معي.

اعترض المسئول عن المزاد بلطف قائلًا:

- طلبك غير معتاد إلى حدٍّ ما.

قاطعه الأمريكي قائلًا:

- أُدرك ما تعنيه، فأنت تعتقد أن الشيك قد لا يُصرَف. ستلاحظ أنه مسحوب على بنك كريدي ليونيه الموجود فعليًّا بجوارنا. لا بد لي من الاحتفاظ بالماسات معي. أرسِل مبعوثك بالشيك، ولن يستغرق الأمر إلا بضع دقائق لمعرفة ما إذا كانت ثمَّة أموال تغطيه أم لا. إن هذا العِقد ملكي، وأنا أُصر على الحصول عليه.

سلَّم المسئول عن المزاد الشيك بتردد إلى ممثل الحكومة الفرنسية الذي كان حاضرًا، وذهب هذا المسئول بنفسه إلى البنك. كانت ثمة أشياء أخرى معروضة للبيع، وحاول المسئول عن المزاد المُضي قُدمًا في القائمة، لكن لم يُعِره أحدٌ أدنى انتباه، في هذه الأثناء كنت أدرس ملامح الرجل الذي قدَّم هذا العطاء المُذهل، في حين كان ينبغي عليَّ بدلًا من ذلك تنظيم استعداداتي لمواجهة الظروف الجديدة التي تواجهني الآن. لدينا رجلٌ لا نعرف عنه أي شيء على الإطلاق، فاستنتجت على الفور أنه أمير المجرمين، وأن ثمة تدبيرًا مشئومًا، لا أعرف عنه شيئًا في الوقت الحالي، يُنفَّذ من أجل الحصول على المجوهرات. من الواضح أن تسليم الشيك كان خُدعة من نوعٍ ما، وتوقعتُ تمامًا عودة المسئول وقوله إن الشيك سليم، فعزمتُ على منع هذا الرجل من الحصول على صندوق المجوهرات حتى أعرف المزيد عن هذه اللعبة. تحركتُ سريعًا من مكاني بالقرب من الباب إلى مكتب المسئول عن المزاد، وأنا أضع هدفَين نُصب عيني؛ الأول أن أُحذِّر المسئول عن المزاد من عدم ترك هذا الكَنز بسهولة، والثاني أن أدرس الرجل المشتبه فيه عن كثب. فالأمريكيُّ هو أكثر من تخاف منه من بين المجرمين؛ فهو يبدع في التخطيط لمشروعاته، ويخاطر في سبيل تنفيذها أكثر من أي محتال آخر على وجه الأرض.

من موقعي رأيتُ أن ثمَّة رجلين يجب التعامل معهما. فكان وجه المُزايد ينمُّ عن الفطنة والعقلانية، وكانت يداه رقيقتين كأيدي النساء، فكانتا نظيفتين وبيضاوين؛ مما يُظهر ابتعادهما منذ وقت طويل عن العمل اليدوي، إن كانتا قد قامتا بأي عمل مفيد على الإطلاق. كان يتسم بالهدوء والسلام دون أدنى شك، أما رفيقه الذي جلس على يمينه فكان مختلفًا عنه تمامًا؛ فكانت يداه مشعرتين ومسفوعتين من الشمس، وحمل وجهه طابع تصميم حازم وشجاعة صارمة. كنت أعلم أن هذين النوعين عادةً ما يعملان معًا — أحدهما يخطِّط والآخر ينفِّذ — ودائمًا ما يشكلان مزيجًا من الخطر مجابهته ومن الصعب التغلب عليه، كانت القاعة تضِج بالنقاشات الدائرة، بينما كان هذان الرجلان يتحدثان معًا بصوت منخفض. علمتُ حينها أنني أواجه أخطر مشكلة في حياتي، همستُ إلى المسئول عن المزاد، الذي حنى رأسه ليسمعني، فقد كان يعلم بالطبع مَن أكون، بدأت حديثي:

- عليك ألا تتخلى عن العِقد.

فهز كتفيه قائلًا:

- أنا أنفِّذ أوامر مسئول وزارة الداخلية، عليك أن تتحدث إليه.

فرددتُ عليه:

- لن أتوانى عن فعل هذا، ومع ذلك، لا تتخلَّ عن الصندوق بسهولة.

اعترض على كلامي بهز كتفيه مرةً أخرى وقال: - لا حيلة لي؛ فأنا أنفِّذ أوامر الحكومة.

عندما وجدتُ أنه لا جدوى من التفاوض أكثر من هذا مع المسئول عن المزاد، أعملتُ عقلي لمواجهة الوضع الطارئ الجديد. كانت لديَّ قناعة بأن الشيك ستثبُت صحته، وأن الخدعة، أيًّا كان موضعها، لن تتضح في الوقت المناسب لمساعدة السلطات؛ ومن ثَمَّ، كان من واجبي ألا نغفُل عن المشتري ولا البضاعة المشتراة. بالطبع لم يكن باستطاعتي إلقاء القبض على المشتري

لمجرد شكي؛ كما أن هذا كان سيجعل من الحكومة موضع سخرية العالم إذا باعت صندوقًا من المجوهرات وعلى الفور زجَّت المشتري في السجن في حين أنها هي نفسها التي سلمته بضاعته. وفي فرنسا السخرية قاتلة؛ فيمكن لمَسحةٍ من سُخريةٍ الإطاحة بالحكومة من الوجود في باريس، ويكون تأثيرها أكبر من نفحة من دخان المدافع. إذن، كان من واجبي إعطاء الحكومة تحذيرًا كاملًا، وألا يغيب الرجل عن نظري حتى خروجه من فرنسا، ثم تنتهي مسئوليتي.

انتحيتُ بأحد رجالي ممن يرتدون ملابس عادية جانبًا وقلتُ له:

- أرأيت الأمريكي الذي اشترى العِقد؟

فردَّ:

- أجل يا سيدي.

- حسنًا، اذهب إلى الخارج بهدوء، وقِفْ هناك؛ فهو على الأرجح سيخرج ومعه المجوهرات في حوزته، عليك ألا تغفُل لا عن الرجل ولا عن الصندوق. سأتبعه وأكون في أعقابه عند خروجه، أما أنت فعليك أن تراقبنا. وإن انفصل عن الصندوق فعليك أن تكون مستعدًّا بإشارة مني لتتبُّع إما الرجل أو المجوهرات. هل فهمت؟ فأجاب: - أجل يا سيدي. وترك القاعة.

عادةً لا تُربكنا إلا الأمور التي تحدث دون توقُّع؛ فمن السهل أن يفكر المرء بحكمة بعد وقوع الحدث. كان يُفترض بي إرسال رجلين، وطالما فكرتُ منذ ذلك الوقت في مدى روعة تنظيم الحكومة الإيطالية التي تنشر رجال شرطتها أزواجًا، أو ربما كان يُفترض بي إعطاء الرجل سُلطة طلب المساعدة، لكن ما حدث أنه لم يُجِد التصرُّف إلا بنصف قدر ما توقعت منه، والخطأ الذي ارتكبه بتردده الأحمق للحظة ... آه، حسنًا! لا فائدة من التوبيخ؛ ففي النهاية ربما لم تكن النتيجة لتختلف، وبمجرد اختفاء رَجُلي هذا خلف الأبواب المطويَّة دخل المسئول التابع لوزارة الداخلية. قابلته في منتصف الطريق بين الباب ومسئول المزاد.

وهمستُ له قائلًا:

- على الأرجح يبدو الشيك حقيقيًا.

رد بتفاخر :

- بكل تأكيد. فكان شخصًا معتزًّا كثيرًا بأهميته؛ من نوع الشخصيات التي يصعب دومًا التعامل معها. أصرَّت الحكومة، فيما بعدُ، على أن هذا المسئول حذَّرني. وكلام شخص أحمق يتَّشح بثوب السلطة لفترة وجيزة، على حد قول الشاعر الإنجليزي، يُنظر إليه على أنه مثال على الحكمة.

أردفتُ قائلًا:

- أنصحك بشدة ألا تُسلِّم العِقد كما طُلب منك.

فسألني: - لماذا؟

فرددتُ عليه: - لأني مقتنع بأن هذا المُزايد مجرمٌ.

قال:

- إن كان لديك إثبات على هذا، فاقبض عليه.

- ليس لديَّ إثبات في الوقت الحالي، لكني أطلب منك تأجيل تسليم البضاعة.

صاح بنفاد صبر:

- هذا كلام سخيف؛ فالعِقد ملك له، وليس ملكنا، وقد حُوِّلَت الأموال بالفعل إلى حساب الحكومة، ونحن لا يمكننا الاحتفاظ بخمسة ملايين فرانك ونرفض تسليمه ما اشتراه بها. وعليه تركني الرجل واقفًا هناك، مشوَّشًا وقلقًا. كانت أعين كل الموجودين في القاعة قد تحولت إلينا في أثناء حديثنا القصير، والآن أكمل المسئول طريقه متباهيًا عبر القاعة يتملكه شعور بالغ بالأهمية، ثم انحنى ومدَّ يده إلى الأمام وقال، بأسلوب درامي: - هذه المجوهرات ملك للسيد.

نهض الرجلان الأمريكيان في وقت واحد، ومد الأطول منهما يده في حين سلَّمه المسئول عن المزاد الصندوق الذي من الواضح أنه دفع كثيرًا نظيره. فتح الأمريكي الصندوق بلا مبالاة، ولأول مرة رأى الحاضرون الوهج الأخَّاذ للمجوهرات، حتى إن كل فرد منهم مد رقبته إلى الأمام ليراها. بدا لي هذا العمل شديد التهور. تفحَّص المجوهرات بدقة للحظات، ثم أغلق الغطاء مرةً أخرى، ووضع الصندوق بهدوء في جيبه الخارجي، ولم يسعني إلا ملاحظة أن المعطف الخفيف الذي ارتداه كانت جيوبه هائلة الحجم، كما لو كانت مصنوعة من أجل هذا الصندوق تحديدًا. بعد ذلك سار هذا الرجل المُذهل بهدوء عبر القاعة مارًّا بالأشرار، الذين ما كانوا ليمانعوا في ذبحه مقابل أصغر ماسة في هذه المجموعة؛ ورغم ذلك، لم يتكبَّد عناءً حتى وضع يده على جيبه الذي احتوى على الصندوق، أو يحاول حمايته بأي طريقة. وبدا الحاضرون جميعهم مذهولين من جرأته. تبعه صديقه في أعقابه، واختفى الرجل الطويل عبر الأبواب المطوية. لكن الآخر لم يمر، بل استدار بسرعة وأخرج مسدسين من جيوبه ووجههما نحو الحشد المذهول. كان الجميع يهمون بمغادرة القاعة، غير أن رؤية هذه الأسلحة المميتة الموجَّهة نحوهم جعلتهم ينكمشون في أماكنهم مرةً أخرى، تحدث الرجل وظهرُه للباب بصوت مرتفع آمِر، وطلب من المسئول عن المزاد ترجمة ما يقوله إلى الفرنسية والألمانية؛ فقد كان يتحدث بالإنجليزية.

- هذه الأشياء البراقة قيمتها كبيرة، وهي ملك لصديقي الذي ذهب للتَّوِ. ومع ذلك، وبالنظر إلى عموم الناس في هذه القاعة، يوجد على الأقل ستة - محتالين بيننا يريد صديقي تجنبهم. والآن، لن يعترض أيُّ رجل شريف هنا على إعطاء مشتري هذه الحُلي خمس دقائق صافية يمكنه الهرب خلالها. لن يعترض على هذا إلا - المحتالون ، وأنا أطلب منكم هذه الدقائق الخمس على

سبيل الخدمة، لكن إن لم أحصل عليها فإني سآخذها عنوة. فإذا تحرَّك أيُّ شخص فسأُطلق النار.

صرختُ:

- أنا رجل شريف، وأنا أعترض، فأنا كبير المحققين في الحكومة الفرنسية. تنحَّ جانبًا؛ فالشرطة ستحمي صديقك.

حذَّرني الأمريكي قائلًا:

- انتظر يا بُنَيَّ. ووجَّه أحد السلاحين نحوي مباشرةً، بينما أدار الآخر في جميع أرجاء القاعة وأشار به في جميع الاتجاهات. - إن صديقي من نيويورك، وهو لا يثق بالشرطة تمامًا مثل عدم ثقته بالمحتالين. حتى إن كنت عشرين محققًا، إن تحركت قبل أن تدق الساعة الثالثة، فإني سأُرْديك قتيلًا، ولا تنسَ هذا أبدًا.

أنْ تواجِهَ الموت في قتالٍ محتدم شيء، لكن شيء آخر أن تسير ببرود نحو فوَّهة مسدس موجَّه نحوك بثبات بحيث لا سبيل للهرب. أقنعَتْني لمحة التصميم في عينَي الرجل بأنه يعني ما يقوله. لم أفكر حينها، كما لم أفكر منذ ذلك الحين، أن هذه الدقائق الخمس التالية، على الرغم من أهميتها، تساوي أن أُضحِّيَ بحياتي. ومن الواضح أن الجميع شاركوني هذا الرأي؛ إذ لم يحرك أحد ساكنًا حتى دقت الساعة الثالثة ببطء، قال الأمريكي وهو يختفي بين الأبواب

- شكرًا لكم أيها السادة. وعندما أقول اختفى، فإنني أعني هذه الكلمة تحديدًا ولا كلمة غيرها، لأن رجالي بالخارج لم يروا هذا الشخص لا في وقتها ولا فيما بعدُ؛ فقد اختفى كما لو أنه لم يكن موجودًا من الأساس، ولم نكتشف طريقة حدوث هذا إلا بعد مرور عدة ساعات.

أسرعتُ خارجًا في أعقابه، كما نقول، وسارعتُ بسؤال رجالي المنتظِرين بالخارج. لقد رأوا جميعهم الرجل الأمريكي الطويل وهو يخرج بكل سكينة

ويتجه نحو الغرب. وبما أنه لم يكن الرجل الذي ينشده أيٌّ منهم لم يُعِيروه انتباهًا أكثر من هذا، وهذه في الواقع عادة القوات الباريسية؛ فهم لا ينظرون إلا للأشياء التي أُرسلوا للبحث عنها، وهذه الصفة تعود بالضرر على رؤسائهم، ركضتُ في الشارع العريض وكل تفكيري موجَّه نحو الماسات وصاحبها؛ فأنا أعلم أن تابعي المسئول عن الرجال الموجودين داخل القاعة سيبحث عن المحتال ذي المسدسين. وبعد أن ركضتُ لمسافة قصيرة وجدتُ الرجل الأحمق الذي أرسلته يقف مذهولًا في ركن شارع ميكودييه، وهو ينظر بالتبادل نحو نهاية هذا الشارع القصير وميدان الأوبرا، وكانت حقيقة وجوده في هذا المكان دليلًا كافيًا على فشله.

سألته: - أين الأمريكي؟

- ذهب في هذا الشارع يا سيدي.

- إذن لمَ تقف أنت هنا مثل الأحمق؟!

- لقد تبعته كل هذه المسافة، ثم جاء رجل من شارع ميكودييه ودون أيّ كلمة سلَّمه الأمريكي صندوق المجوهرات، واستدار على الفور وسار في الشارع الذي جاء منه الرجل الآخر. أما الرجل الآخر فقد استقل سيارة أجرة، واتجه بها إلى ميدان الأوبرا.

- وماذا فعلت أنت؟ أظنك وقفت هنا كالعمود؟

- لم أدرِ ماذا أفعل يا سيدي، لقد حدث كل هذا في لحظة.

- لماذا لم تتبع سيارة الأجرة؟

- لم أكن أعلم أيهما أتبع يا سيدي، وسيارة الأجرة اختفت على الفور بينما كنت أراقب الأمريكي.

- ما رقم لوحتها؟

- لا أعرف يا سيدي.

- أيها الأبله! لماذا لم تستدعِ أحد رجالنا، أيًا كان الأقرب إليك، وتدعه يتبع الأمريكي بينما تتبع أنت سيارة الأجرة؟

- لقد صحتُ لأقرب رجل بالفعل يا سيدي، لكنه قال إنك أخبرته بالبقاء هناك ومراقبة اللورد الإنجليزي، وحتى قبل أن يتحدث كان كلٌ من الأمريكي ومستقل سيارة الأجرة قد غابا عن الأنظار.

- هل كان الرجل الذي أعطاه الصندوق أمريكيًا أيضًا؟

- لا يا سيدي، كان فرنسيًا.

- كيف عرفت؟

- من مظهره والكلمات التي قالها.

- أعتقد أنك قلت إنه لم يتحدث.

- لم يتحدث إلى الأمريكي يا سيدي، لكنه قال لسائق سيارة الأجرة: - خذني إلى كنيسة مادلين بأسرع ما يمكن .

- صف لي الرجل.

- كان أقصر من الأمريكي قليلًا، ولديه لحية وشارب أسود مهذبان بدقة، وبدا من نوعيةٍ راقية من الحِرفيين.

- أنت لم تأخذ رقم لوحة سيارة الأجرة، لكن أيمكنك التعرف على سائق السيارة إن رأيته مرةً أخرى؟

- أجل يا سيدي، أعتقد ذلك.

أخذتُ هذا الرجل معي وعدتُ إلى قاعة المزاد التي صارت فارغة تقريبًا الآن وهناك جمعتُ كل رجالي حولي. دوَّن كلٌ منهم في دفتر ملاحظاته أوصاف سائق سيارة الأجرة والراكب معه على حد قول جاسوسي المُفتقِر للكفاءة، بعدها أمليتُ عليهم وصفًا وافيًا للرجلين الأمريكيين، ثم وزعتُ رجالي على محطات القطار المختلفة الخاصة بالخطوط المؤدية إلى خارج باريس، وأعطيتهم تعليمات بالاستعلام من رجال الشرطة الذين يعملون هناك، وإلقاء القبض

على واحد أو أكثر من الرجال الأربعة الذين ذُكرت أوصافهم إن حالفهم الحظ في العثور على أيٍّ منهم، الآن عرفت كيف اختفى المحتال الذي كان يحمل المسدس تمامًا. فقد حل تابعي الموجود في قاعة المزاد هذا السرَّ بسرعة. يوجد على يسار المدخل الرئيسي لقاعة المزاد باب يوصل إلى مدخل خاص للجزء الخلفي للمبنى. وحين سُئل الخادم اعترف بأن الأمريكي رشاه في اليوم السابق حتى يدع هذا الباب الجانبي مفتوحًا ويسمح للرجل بالهروب عبر مدخل البضائع؛ ولذلك لم يظهر هذا الرجل الهمجي في الشارع العريض على الإطلاق، ولم يلحظه أيٌّ من رجالي.

أخذتُ جاسوسي عديم النفع وعدتُ إلى مكتبي، وأرسلتُ أمرًا في جميع أنحاء المدينة أنه على كل سائق سيارة أجرة كان موجودًا في فندق بوليفار دي إيطاليان في الفترة بين الثانية والنصف والثالثة والنصف بعد ظهر هذا اليوم، أن يأتي إليَّ على الفور. اتضح أن استجواب هؤلاء الرجال عملٌ مملٌّ للغاية، لكن أيًّا كان رأي البلدان الأخرى فينا، فنحن الفرنسيين شعب صبور، وإن بحثنا بما يكفي في كَومة القَش، فإن الإبرة حتمًا ستظهر. لم أعثر على الإبرة التي كنت أبحث عنها، لكني توصلتُ إلى واحدة تضاهيها في الأهمية، إن لم تكن أهم منها، كانت الساعة قد قاربت على العاشرة ليلًا حين أجاب أحد سائقي سيارات الأجرة على أسئلتي التي كررتها كثيرًا بالإيجاب.

- هل أخذتَ راكبًا بعد بضع دقائق من الساعة الثالثة من البوليفار دي إيطاليان، بالقرب من كربدي ليونيه؟ هل كانت لديه لحية سوداء قصيرة؟ وهل كان يحمل صندوقًا صغيرًا في يده وطلب منك الذهاب إلى كنيسة مادلين؟

بدا سائق سيارة الأجرة مرتبكًا، وردَّ قائلًا: لقد ارتدى لحية سوداء قصيرة عندما خرج من السيارة.

- ماذا تعني بهذا؟

- أنا أقود سيارة أجرة مغلقة يا سيدي. عندما ركب معي كان سيدًا حليق الوجه، أما عندما خرج من السيارة كان يضع لحية سوداء قصيرة.

- هل كان فرنسيًّا؟

- لا يا سيدي، كان أجنبيًّا، إما إنجليزيًّا أو أمريكيًّا.

- هل كان يحمل صندوقًا؟

- لا يا سيدي، لقد كان يحمل في يده حقيبةً جلدية صغيرة.

- إلى أين طلب منك الذهاب؟

- أخبرني أن أتبع سيارة الأجرة التي تسير أمامي، التي انطلقت للتَّوِ مسرعةً للغاية نحو كنيسة مادلين. في الحقيقة، لقد سمعتُ الرجل، الذي ينطبق عليه وصفك، وهو يطلب من سائق سيارة الأجرة الأخرى الذهاب إلى كنيسة مادلين. كنتُ أسير بجوار الحافة الصخرية للطريق عندما رفع هذا الرجل يده للحصول على سيارة أجرة، لكن سيارة الأجرة المكشوفة قطعت الطريق وتخطتني. عندها فقط تنبَّه الراكب معي وقال بالفرنسية، لكن بلكنة أجنبية:

- الحَقْ بسيارة الأجرة هذه أينما ذهبت .

التفتُّ بقدر من السخط إلى جاسوسي غير الكفء، وقلتُ له: - أخبرتني أن الأمريكي ذهب في شارع جانبي، لكن من الواضح أنه التقى برجل آخر، وحصل منه على حقيبة اليد، واستدار راجعًا، ثم ركب سيارة الأجرة المغلقة التي كانت خلفك مباشرةً.

تلعثم الجاسوس، وقال: - حسنًا يا سيدي، لم يكن في استطاعتي النظر في اتجاهين في نفس الوقت. فمن المؤكد أن الأمريكي ذهب في الشارع الجانبي، لكني راقبتُ سيارة الأجرة التي كانت تحتوي على المجوهرات.

- ولم ترَ شيئًا من سيارة الأجرة المغلقة التي كانت خلفك مباشرةً؟

- لقد كان الشارع مليئًا بسيارات الأجرة، وكان الرصيف مزدحمًا بالمارَّة، كما هو الحال دومًا في هذه الساعة من اليوم، وأنا ليس لديَّ إلا عينان اثنتان في رأسي.

- يسعدني أن لديك هذا العدد؛ لأني بدأت أظن أنك ضرير.

على الرغم من قولي هذا، فقد كنت أعلم في داخلي أنه لا فائدة من لوم هذا البائس المسكين؛ إذ إن هذا كان خطئي بالكامل لأني لم أُرسل رجلَين، ولعدم قدرتي على تخمين احتمالية انفصال المجوهرات عن مالكها. بالإضافة إلى هذا، أصبح لديَّ أخيرًا دليل في يدي، ويجب ألا أُضيع أيَّ وقت وأبدأ في تتبُّعه؛ لذا واصلتُ تحقيقي مع سائق سيارة الأجرة.

- أنت تقول إن سيارة الأجرة الأخرى كانت سيارة مفتوحة، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- وهل نجحت في تعقُّبها؟

- آه، أجل يا سيدي، فعند كنيسة مادلين أعاد الرجل في السيارة أمامنا توجيه السائق، فاستدار يسارًا وذهب إلى ميدان الكونكورد، ثم سار في الشانزليزيه وصولًا إلى قوس النصر، ثم شارع الجيش الكبير، وشارع نويي، حتى وصل إلى جسر نويي، حيث وقف ثابتًا. خرج راكبي من السيارة ورأيته الآن واضعًا لحية سوداء قصيرة، وهي التي من الواضح أنه وضعها داخل السيارة. أعطاني ورقة بعشرة فرانكات، كانت أكثر مما يكفي.

- وماذا عن الراكب الذي كنتما تتبعانه؟ ماذا فعل؟

- خرج هو الآخر من السيارة، ودفع للسائق، ثم نزل على ضفَّة النهر وصعِد على ظهر زورق بخاري بدا أنه كان في انتظاره.

- هل نظر إلى الخلف، أو بدا عليه أنه يعلم أنه كان مراقبًا؟

- لا يا سيدي.

- وماذا عن راكبك؟

- ركض وراء الرجل الأول، وصعد هو الآخر على متن الزورق البخاري، الذي تحرَّك على الفور في النهر.

- وهل هذه آخر مرة رأيتهما فيها؟

- أجل، يا سيدي.

- ومتى وصلت تحديدًا إلى جسر نويي؟

- لا أعلم يا سيدي؛ فقد كنت مجبرًا على القيادة بسرعة كبيرة، لكن المسافة كانت ما بين سبعة وثمانية كيلومترات.

- يمكنك اجتيازها في أقل من ساعة؟

- بالتأكيد، في أقل من ساعة.

- إذن لا بد أنك وصلت إلى الجسر في نحو الرابعة، أليس كذلك؟

- على الأرجح يا سيدي.

اتضحت خطة الأمريكي الآن لي بالكامل، ولم تنطوِ على شيء مخالف للقانون. فمن الواضح أنه وضع أمتعته على متن الزورق البخاري في الصباح. أما حقيبة اليد فكانت تحتوي على كثير من المواد التي تمكِّنه من التخفي، وقد ترك هذه الحقيبة على الأرجح في مَتجرٍ ما في الشارع الجانبي، أو ربما كان ينتظره شخص آخر بها. أما إعطاء الكنز لشخص آخر فليس أمرًا خطيرًا للغاية كما بدا للوهلة الأولى؛ لأنه تبع الرجل في الحال، الذي كان في الأغلب خادمه المخلص. وعلى الرغم من اضطراب النهر كان الوقت متسعًا لوصول الزورق إلى مدينة لو هافر قبل إبحار الباخرة الأمريكية في صباح يوم السبت. توقعت أن هدفه هو الوقوف بجوار الباخرة قبل رحيلها عن مرساها في ميناء لو هافر؛ ومن ثَمَّ ينقل إليها نفسه وممتلكاته دون أن يراه أحد المراقبين على البر المجاور للباخرة، كان كل هذا، بالطبع، مبرَّرًا تمامًا، وبدا في الواقع مجرد مخطط موضوع بعناية للهروب من المراقبة. كانت الخطورة الوحيدة لتعرضه

للمراقبة عندما استقل سيارة الأجرة. وبمجرد بُعده عن منطقة فندق بوليفار دي إيطاليان، تأكد إلى حدٍّ ما من تخلُّصه من الملاحقة، وقدَّمت الدقائق الخمس، التي حصل عليها صديقه الحامل للمسدسين من أجله، الوقت الذي احتاجه من أجل الابتعاد والوصول إلى كنيسة مادلين، وبعدها صار كل شيء سهلًا. ومع ذلك، لولا هذه الدقائق الخمس التي تحصَّل عليها بالإكراه، لما كنت وجدت أدنى مسوغ لإلقاء القبض عليه. لكنه اشترك في الجريمة عقب هذه التمثيلية المنافية للقانون، بل في الواقع، من المؤكد أنه كان مشاركًا قبل هذه التمثيلية، ومذنبًا بالتآمر مع الرجل الذي وجَّه الأسلحة نحو جمهور قاعة المزاد، والذي تعرَّض لمسئول في أثناء تأدية عمله عن طريق تهديدي أنا ورجالي؛ لذلك حينها كنت لا أخالف القانون إن ألقيت القبض على كل شخص على متن هذا الزورق البخاري.

في وجود خريطةٍ للنهر أمامي بدأت في إجراء بعض الحسابات. كانت الساعة قد قاربت في هذا الوقت على العاشرة مساءً. لا بد للزورق أن يقطع المسافة في ست ساعات إن سار بسرعته القصوى؛ فمن المشكوك فيه أن تستطيع مركبة صغيرة الحجم هكذا قطع عشرة أميال في ساعة، حتى إن كان التيار في صالحها، وهو راكد إلى حدٍّ ما بسبب بوابات القنوات ومستوى السطح. فبعد ٦٠ ميلًا سيتجاوز مولون، التي تبعد ٥٨ ميلًا من بونت رويال، وبالطبع على بُعد مسافة أقل من جسر نويي، إلا أن الملاحة في النهر صعبة للغاية في جميع الأوقات، وتكون مستحيلة تقريبًا بعد حلول الظلام؛ فثمَّة احتمالات لجنوح الزورق، ثم بالطبع هناك التأخير الحتمي عند بوابات القنوات؛ لذلك قدرتُ أن الزورق لا يمكن أن يكون قد وصل إلى مولون، التي تبعد أقل من ٢٥ ميلًا عن باريس بالقطار. وعندما نظرتُ في جدول مواعيد القطارات وجدتُ أنه ما زال يوجد قطاران إلى مولون، التالي في العاشرة و٢٥ دقيقة ويصل إلى مولون في الثانية عشرة إلا الثلث؛ ومن ثَمَّ كان لديَّ وقت للوصول إلى محطة سان

لازار، وإرسال بعض البرقيات قبل تحرُّك القطار، ركبت سيارة أجرة مع ثلاثة من مساعديَّ، وانطلقنا إلى المحطة. وعند وصولنا أرسلتُ أحد رجالي ليوقف القطار بينما ذهبتُ أنا إلى مكتب البرقيات، وأرسلتُ برقيات وتواصلتُ مع المسئول عن البوابة في مولون. رد عليَّ أنه لم يمر أي زورق بخاري عبر البوابة من قبل غروب الشمس بساعة. عندها أعطيته تعليمات بعدم السماح للزورق بالمرور عبر البوابة، وبأن يغلق البوابة العلوية، ويدع نصف الماء فقط يخرج، ويحتجز المركبة هناك حتى آتيَ إليه، كذلك وجهتُ أمرًا لشركة مولون المحلية بإرسال عددٍ كافٍ من الرجال إلى البوابة لتطبيق أوامره، وأخيرًا أرسلت رسائل على طول النهر أطلب فيها من الشرطة إبلاغي وأنا على متن القطار بمسار الزورق البخاري.

إن قطار العاشرة و٢٥ دقيقة قطار بطيء؛ يقف في كل محطة، ومع ذلك، لكل عيب ما يعوضه؛ فقد مكَّنتني هذه التوقفات من استقبال رسائل التلغراف وإرسالها. كنتُ مدركًا تمام الإدراك أن ذهابي إلى مولون ربما يكون بلا جدوى. ربما يكون الزورق غيَّر اتجاهه قبل أن يسير مِيلًا، ومن ثَمَّ عاد مرةً أخرى إلى باريس. لم يكن يوجد سبيل لمعرفة إن كان هذا صحيحًا أم لا إن كنت أريد اللحاق بقطار العاشرة و٢٥ دقيقة. كذلك، ربما يكون أنزل ركابه في مكان ما على طول النهر. عليَّ أن أقول على الفور إن أيًّا من هذين الاحتمالين لم يحدث، وإن حساباتي بشأن تحركات الزورق كانت دقيقة تمامًا. إلا أن المصيدة التي توضع بمثل هذه العناية الفائقة قد تنطلق قبل أوانها بسبب إهمال شخص أحمق أو بفعل حماسته المفرطة، أو لفشله في فهم التعليمات الموجهة إليه، أو مخالفتها إن كانت مفهومة؛ فقد تلقيتُ برقيةً مزعجة لأقصى درجة من دنوفال، وهي بوابة تبعد نحو ١٣ ميلًا بعد مولون؛ فقد وجد رجل الشرطة المحلي، الذي وصل توًّا إلى البوابة، أن الزورق غادر للتَّوِ. صرخ هذا الأحمق في القبطان حتى يعود، وهدده بكافة العقوبات والغرامات

التي يفرضها القانون إن رفض ذلك. رفض القبطان، وانطلق بأقصى سرعة إلى الأمام، واختفى في الظلام، وعبر هذا الخطأ الذي حدث بحسن نية من شخص بسيط تلقَّى الموجودون على متن الزورق تحذيرًا بأننا في أعقابهم. أرسلتُ برقية إلى حارس البوابة في دنوفال حتى لا يسمح بمرور أيّ مركبة متجهة إلى باريس حتى تلقِّي أوامر أخرى. هكذا حددنا مكان الزورق في مساحة من الماء تبلغ ١٣ ميلًا، لكن الليل كان حالك السواد، وبإمكان الركاب النزول على أيٍّ من ضفتَي النهر، فتكون أمامهم فرنسا بأكملها ليهربوا في أي اتجاه، وصلتُ إلى مولون في منتصف الليل، وكما كان متوقَّعًا، لم يُرَ الزورق أو يُسمع شيء عنه. شعرتُ بالرضا حين أرسلتُ برقيةً إلى هذا المغفل في دنوفال أطلب منه السير على طول ضفة النهر حتى مولون، ويخبرني إن علم بمكان الزورق. جعلنا مَقرَّنا في منزل حارس البوابة وانتظرنا. لم يكن من المنطق إرسال رجال يطوفون في المدينة في هذه الساعة من الليل؛ إذ كان الهاربون مُتنبِّهين، ومن غير المحتمل أن يُعرِّضوا أنفسهم لإلقاء القبض عليهم إن كانوا قد نزلوا على الشاطئ. ومن ناحية أخرى، يوجد احتمال كبير بألا يدعهم القبطان ينزلون إلى الشاطئ، لعلمه يقينًا بأن مركبته جزء من شرَك لا يمكنها الهرب منه، وعلى الرغم من أن طلب الشرطي في دنوفال لم يكن رسميًّا، فإن القبطان لا يمكنه معرفة هذا، في حين أنه يعرف جيدًا خطورة رفضه تنفيذ أمر من السلطات. فحتى إن كان هرب في هذه اللحظة، فلا بد من معرفته بأن إلقاء القبض عليه أمر مؤكَّد، وأن عقوبته ستكون شديدة، وأن حُجته الوحيدة التي يمكنه تقديمها أنه لم يسمع الأمر بالعودة ويفهمه. إلا أن هذه الحجة ستبطل إن ساعد الرجلين، اللذَين من المؤكد أنه يعرف أنهما مطلوبان من الشرطة، على الهرب؛ ومن ثَمَّ كنتُ واثقًا بأن الركاب حتى إن طلبوا النزول على الشاطئ، فإن القبطان سيرفض إن سنح له الوقت للتفكير في الخطر المحدق به. ثبتت صحة تخميني؛ فعند الواحدة تقريبًا دخل حارس البوابة

وقال إن الأضواء الخضراء والحمراء لمركبةٍ تقترب أصبحت مرئية، وبينما هو يتحدث دوَّت صافرة الزورق من أجل فتح البوابة. وقفتُ بجوار حارس البوابة وهو يفتح البوابات، أما رجالي ورجال الشرطة المحلية فقد اختبئوا على جانبَي البوابة، دخل الزورق ببطء، وعلى الفور طلبتُ من القبطان النزول على الشاطئ، ففعل هذا.

قلت له: - أريد التحدث إليك، اتبعني.

أخذته إلى منزل حارس البوابة وأغلقت الباب.

قلتُ: - إلى أين تذهب؟

- إلى لو هافر.

- ومن أين أتيت؟

- من باريس.

- من أي مرسًى؟

- من جسر نويي.

- متى تحركت من هناك؟

- في الرابعة إلا خمس دقائق عصرًا.

- تقصد عصر أمسِ، أليس كذلك؟

- بلى، عصر الأمس.

- مَن استأجرك للذهاب في هذه الرحلة؟

- رجل أمريكي، لا أعرف اسمه.

- أعتقد أنه دفع لك بسخاء، أليس كذلك؟

- لقد دفع لي ما طلبته.

- هل حصلت على المال؟

- أجل يا سيدي.

- دعني أخبرك أيها القبطان أنني يوجين فالمونت، كبير المحققين في الحكومة الفرنسية، وأن كل شرطة فرنسا الآن تحت تصرُّفي؛ وعليه، أطلب منك توخِّي الحذر في إجاباتك. لقد طلب منك رجل شرطة في دنوفال العودة، لماذا لم تفعل ذلك؟

- طلب مني حارس البوابة العودة، لكن بما أنه لا يحق له ذلك، واصلتُ طريقي.

- أنت تعلم جيدًا أن الشرطي هو مَن أمرك بذلك، وأنت تجاهلت أمره. مرةً أخرى أسألك، لماذا لم تفعل ما قاله؟

- لم أكن أعلم أنه شرطي.

- اعتقدتُ أنك ستقول هذا، لقد علمتَ جيدًا أنه شرطي، لكن دفع شخصٌ ما لك لتتحمل المخاطرة، وهذا سيُكلفك كثيرًا يا عزيزي. كان لديك راكبان على متن القارب، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- هل أنزلتهما على الشاطئ في الطريق من هنا إلى دنوفال؟

- لا يا سيدي، لكن سقط أحدهما في الماء، ولم نستطع العثور عليه مرةً أخرى.

- أيهما؟

- الرجل القصير.

- إذن فإن الأمريكي لا يزال على متن الزورق؟

- أي أمريكي يا سيدي؟

- أيها القبطان، عليك ألا تتلاعب معي، ألا يزال الرجل الذي استأجرك على متن المركب؟

- آه، لا يا سيدي، هو لم يصعد على المركب قط.

- أتريد أن تقول إن الرجل الثاني الذي جاء إلى زورقك في جسر نويي ليس الأمريكي الذي استأجرك؟

- نعم يا سيدي؛ فالأمريكي كان حليق الوجه، أما هذا الرجل فكانت له لحية سوداء.

- نعم، لحية زائفة!

- أنا لم أكن أعلم هذا يا سيدي. لقد فهمتُ من الرجل الأمريكي أنني لن آخذ إلا راكبًا واحدًا. صعد واحد معي وهو يحمل صندوقًا صغيرًا في يده؛ أما الآخر فكانت معه حقيبة صغيرة. وقال كلٌّ منهما إنه الراكب المقصود. لم أدرِ ماذا أفعل، لذلك تحركتُ من باريس وكلاهما على متن الزورق.

- إذن فإن الرجل الطويل ذا اللحية السوداء ما زال معك؟

- أجل يا سيدي.

- حسنًا أيها القبطان، أثمَّة شيء آخر تريد إخباري به؟ أعتقد أنك ستجد في النهاية أن من الأفضل أن تبوح لي بالحقيقة.

تردَّد القبطان، وجعل يقلِّب قبَّعته في يديه لبضع دقائق، ثم قال: - أنا لستُ متأكدًا من أن الراكب الأول سقط من على سطح الزورق بمحض إرادته، عندما صاح رجل الشرطة علينا في دنوفال...

- آه، علمتَ إذن أنه كان رجل شرطة؟

- بعد أن تحركتُ خشيتُ أنه ربما كان كذلك. ما حدث أنني حين عقدتُ الصفقة مع الأمريكي قال لي إنني إن وصلتُ إلى هافر في موعد محدد فسأحصل على ألف فرانك إضافية؛ لذلك كنتُ متلهفًا للوصول بأسرع ما يُمكن. أخبرته أنه من الخطير الإبحار في نهر السين ليلًا، لكنه دفع لي بسخاء حتى أفعل هذا. بعدما صاح رجل الشرطة علينا في دنوفال، زاد قلق الرجل صاحب الصندوق الصغير، وطلب مني إنزاله على الشاطئ، فرفضتُ هذا. اتضح أن الرجل الطويل كان يراقبه، ولم يكن يسمح له بالابتعاد كثيرًا عنه،

وعندما سمعتُ صوت سقوط شيء في الماء ركضتُ نحو مؤخرة الزورق، ورأيت الرجل الطويل يضع الصندوق الذي كان الرجل الآخر يحمله في حقيبة يده، إلا أنني لم أقل شيئًا وقتها. تحركنا ذهابًا وإيابًا في البقعة التي سقط فيها الرجل الآخر، لكننا لم نرَه على الإطلاق، ثم جئتُ إلى مولون، واعتزمتُ الإبلاغ عن كل ما رأيته. هذا كل ما أعرفه عن هذا الأمر يا سيدي.

- هل كان الرجل الذي يحمل المجوهرات فرنسيًّا؟

- أي مجوهرات يا سيدي؟

- الرجل صاحب الصندوق الصغير.

- آه، أجل يا سيدي، كان فرنسيًّا.

- لقد ألمحتَ إلى أن الرجل الأجنبي رماه من فوق الزورق، على أي أساس راودك هذا الاعتقاد في حين أنك لم ترَ صراعًا؟

- هذه الليلة حالكة السواد يا سيدي، وأنا لم أرَ ما حدث. لقد كنتُ أتولى عجلة القيادة في الجزء الأمامي من الزورق، وكان ظهري لهذَين الاثنين. سمعتُ صرخة، ثم صوت سقوط شيء في الماء. إن كان هذا الرجل قفز في الماء على حد قول الرجل الآخر، فما كان ليصرخ. كذلك، كما قلت لك، حين ركضتُ إلى الجزء الخلفي من الزورق رأيتُ الرجل الأجنبي يضع الصندوق الصغير في حقيبة يده، التي أغلقها سريعًا كما لو أنه لا يريدني أن أراه.

- جيد جدًّا، أيها القبطان، إن كانت هذه هي الحقيقة، فسيتساهلون معك كثيرًا في التحقيق الذي سيعقب هذا.

سلَّمتُ حينها القبطان لأحد رجالي، وأمرتُ بإدخال الرجل الأجنبي ومعه حقيبته ولحيته المزيفة السوداء. قبل أن أبدأ في استجوابه أمرته بفتح حقيبة يده، وفعل هذا بتردد واضح. كانت مليئة باللحى المزيفة، والشوارب المزيفة، والعديد من الزجاجات، لكنْ فوق كل هذا يوجد صندوق المجوهرات. فتحتُ

الغطاء ورأيتُ هذا العِقد الملعون. رفعتُ بصري ونظرت إلى الرجل، الذي وقف أمامي في سكون تام، ولم يقل شيئًا على الرغم من هذا الدليل الدامغ ضده.

- أيمكنك التفضل بخلع هذه اللحية المزيفة؟

فعل هذا على الفور، وألقاها داخل الحقيبة المفتوحة. عرفتُ بمجرد النظر إليه أنه لم يكن الأمريكي، وعليه ذهبت نظريتي أدراج الرياح، أو على الأقل جزء مُهم للغاية منها. أخبرتُه بمن أكون وحذرته بضرورة التزام الصدق فيما يقوله، وسألته كيف أصبحت المجوهرات في حيازته.

سألني: - هل أنا رهن الاعتقال؟

فرددتُ عليه: - بالتأكيد.

- ما التهمة الموجهة إليَّ؟

- أنت متهم، أولًا، بحيازة ممتلكات لا تنتمي إليك.

- أقر بأني مذنب في هذا، وماذا عن ثانيًا؟

- ثانيًا، ربما تُوجه إليك تهمة القتل.

- أنا بريء من هذه التهمة الثانية؛ فقد قفز الرجل من على سطح الزورق.

- إن كان هذا صحيحًا، فلمَ صاح وهو يقفز؟

- لأنني حين وجدتُ الأوان قد فات لاستعادة توازنه، أمسكتُ هذا الصندوق وتشبثتُ به.

- كان الصندوق في حيازته بصورة مشروعة؛ فقد أعطاه المالك له.

- أعترف بهذا؛ فقد رأيت المالك وهو يعطيه إياه.

- إذن لماذا قفز من على سطح الزورق؟

- لا أعرف؛ فقد بدا عليه الذعر حين أمرَنا الشرطيُّ عند البوابة الأخيرة بالعودة. التمس من القبطان إنزاله على الشاطئ، ومنذ هذه اللحظة وأنا أراقبه باهتمام؛ إذ توقعتُ أننا إن اقتربنا من الأرض فإنه سيحاول الهرب، بما أن القبطان رفض إرساء الزورق. ظل هادئًا طوال نحو نصف ساعة، جالسًا

على مقعد قابل للطي بجوار سور الزورق، وعيناه تنظران نحو الشاطئ، في محاولة منه، على ما أظن، لاختراق الظلام وتقدير المسافة، ثم فجأة انتفض من على مقعده واندفع نحو الماء. كنت مستعدًّا لهذا، وأمسكتُ الصندوق على الفور من يده. استدار نصف دورة محاولًا إنقاذ نفسه أو الاحتفاظ بالصندوق، ثم صرخ صرخة وسقط في الماء رأسًا على عقب. حدث كل هذا في غضون ثوانٍ عقب قفزته من على المقعد.

- أنت تعترف، إذن، بأنك مسئول مسئولية غير مباشرة على الأقل عن غرقه؟

- أنا لا أرى سببًا لاعتقاد أن الرجل قد غرق. فإن كان يستطيع السباحة يمكنه بسهولة الوصول إلى ضفة النهر. أما إن لم يكن يستطيع، فلمَ يحاول القفز وهو مثقل بالصندوق؟

- تعتقد إذن أنه هرب؟

- أعتقد هذا.

- سيكون من حسن حظك إن اتضح أن الأمر كذلك.

- بالتأكيد.

- ما الذي جاء بك على متن هذا الزورق من الأساس؟

- سأحكي لك القصة بأكملها، ولن أُخفي عنك شيئًا. أنا محقق خاص ولديَّ مكتب في لندن. كنت على يقين من تنفيذ محاولة، على الأرجح من أكثر المجرمين خبرة على الإطلاق، لسرقة مالك هذا العِقد؛ لهذا جئت إلى باريس، وأنا أتوقع حدوث مشكلة، وعاقد العزم على عدم إبعاد نظري عن صندوق المجوهرات، إن أمكن هذا، فإن تعرضت المجوهرات للسرقة، فمن المؤكد أن هذه القضية ستصبح الأشهر في السِّجلات القانونية. فكنتُ حاضرًا طوال المزاد، ورأيتُ مشتري العِقد. وتبعتُ المسئول الذي ذهب إلى البنك؛ ومن ثَمَّ علمت بوجود مال يكفي لتغطية الشيك. بعد ذلك وقفتُ بالخارج وانتظرتُ ظهور المشتري، فجاء ممسكًا الصندوق في يده.

قاطعته قائلًا: - تعني في جيبه، أليس كذلك؟

- كان ممسكًا به في يده حين رأيته، ثم اقترب منه الرجل الذي قفز فيما بعدُ من على سطح الزورق، وأخذ منه الصندوق دون أن ينطق بكلمة، ورفع يده ليوقف سيارة أجرة، وحين اقتربت سيارة مفتوحة من حافة الرصيف ركب فيها، وقال: - كنيسة مادلين. أوقفتُ أنا سيارة أجرة مغلقة، وأخبرت السائق أن يتبع السيارة الأولى، وتخفَّيتُ بلحية مقاربة لشكل لحية الرجل المنطلق أمامي، كانت معي في مجموعتي.

- لماذا فعلت هذا؟

- يُفترض بك، كمحقق، أن تعرف سبب فعلي لهذا؛ فقد رغبتُ في الاقتراب من شَبه الرجل الذي يسير أمامي قدر المستطاع، حتى إن اقتضت الحاجة تظاهرتُ بأني الشخص المُكلَّف بحمل صندوق المجوهرات، وفي الواقع، ظهرت الأزمة حين وصلنا إلى نهاية رحلتنا في سيارات الأجرة، فلم يكن القبطان يعلم أيٌّ منا الراكب الحقيقي، ولذلك تركَنا نبقى نحن الاثنين على متن الزورق البخاري. هكذا أصبح لديك الآن القصة بأكملها.

- وهي قصة بعيدة الاحتمال جدًّا يا سيدي. فحتى وفقًا لروايتك لا يحق لك التدخل في هذا الأمر على الإطلاق.

ردَّ بعدم اكتراث بالغ، وهو يُخرج بطاقة من كتاب للجيب، وأعطاها لي:

- أنا أتفق معك كثيرًا في هذا. هذا عنواني في لندن، يمكنك السؤال عني، وستجد أني تمامًا كما قلتُ لك، يغادر أول قطار متجه إلى باريس محطة مولون في الرابعة و١١ دقيقة صباحًا، وكانت الساعة آنذاك الثانية والربع، فتركت القبطان وطاقم الزورق والزورق تحت مسئولية رجلين من رجالي، وأعطيتهم أوامر بالتحرك إلى باريس بمجرد بزوغ ضوء النهار، أما أنا فقد انتظرت مع رجلي الثالث في المحطة مع سجيننا الإنجليزي، ووصلنا إلى باريس في الخامسة والنصف صباحًا.

التزم السجين الإنجليزي بقصته، على الرغم من تعرُّضه لاستجواب عنيف من جانب القاضي، وأثبتت تحريات الشرطة في لندن صحة ما قاله عن نفسه، إلا أن قضيته بدأت تبدو في غاية الخطورة حين أكد رجلان كانا على الزورق البخاري رؤيتهما له وهو يدفع الرجل الفرنسي من على سطح الزورق، ولم تتزعزع إفادتهما. وجَّهنا كافة طاقاتنا في الأسبوعين التاليين في محاولة العثور على شيء عن هوية الرجل المفقود، أو على أي أثر للرجلين الأمريكيين. إن كان الأمريكي الطويل ما زال على قيد الحياة، فقد بدا من غير المعقول ألا يحاول استرجاع ممتلكاته القيِّمة التي فقدها. ثبت عدم جدوى جميع محاولات تعقُّبه عبر الشيك الذي صُرف في بنك كريدي ليونيه. فقد تظاهر البنك بتقديم كافة المساعدات لي، لكني أحيانًا أشك في أن هذا كان الحال بالفعل؛ فمن الواضح أنه حصل على مال وفير نظير خدماته، ولم يُظهر أيَّ رغبة مندفعة لخيانة مثل هذا العميل الجيد.

أجرينا تحريات عن كل رجلٍ مختفٍ في باريس، لكن دون نتيجة أيضًا، أثارت القضية كثيرًا من الاهتمام في جميع أنحاء العالم، وبلا شك نُشرت كاملةً في الصحف الأمريكية. ظل الرجل الإنجليزي محتجَزًا ثلاثة أسابيع، ثم تلقَّى رئيس الشرطة في باريس الخطاب التالي:

سيدي العزيز،

عند وصولي إلى نيويورك بالباخرة الإنجليزية - لوكانيا ، اندهشتْ كثيراً عندما قرأتْ في الصحف مآثر المحققَين، الفرنسي والإنجليزي. أعبر عن أسفي لوجود أحدهما في السجن، وأعتقد أن زميله الفرنسي لا بد له من مرافقته، ومع ذلك، أنا أعبر عن بالغ أسفي لوجود شائعات عن وفاة صديقي مارتن دوبيز غرقاً، وهو القاطن في ٣٧٥ شارع اليهود، في روان. فإن حدث هذا بالفعل فإن سبب ذلك هو أخطاء الشرطة، ومع ذلك، أرغب منك التواصل مع أسرته في العنوان الذي أخبرتك به، والتأكيد لهم بأني سأفعل الترتيبات اللازمة لدعمهم في المستقبل.

أريد إخبارك أنني صانع ماسات مزيَّفة، ونجحت عبر الدعاية الواسعة في تجميع ثروة بالملايين. كنت في أوروبا حين عثر على العقد، وكان في حوزتي نحو ألف من الماسات الزائفة التي صنعتها، فخطر لي أنها فرصة لئروع إعلان في العالم، فرأيت العقد، وحصلتْ على مقاساته، وحصلت كذلك على صور له التقطتها الحكومة الفرنسية، ثم بدأ صديقي الخبير مارتن دوبيز في العمل، ومعه الأحجار الصناعية التي أعطيتُها له، فصنع عقداً مزيفاً قريب الشبه للغاية بالأصلي لدرجة أنكم لا تعلمون، كما هو واضح، أن الذي بحوزتكم هو العقد المزيف. لم أكن أخشى من خبث المحتالين بقدر خوفي من أخطاء الشرطة، التي كانت ستحميني بجوقة من رجالها إن لم أتملص منهم. كنتُ أعلم أن المحققين سيُغفلون الأمر الواضح، ولكنهم سيتبعون على الفور أي دليل إن قدمتْ لهم واحداً؛ وعليه، وضعتْ خطتي، كما انكشفت لكم تماماً، وأحضرتْ مارتن دوبيز من روان وجعلتْه يحمل الصندوق الذي أعطيته له إلى هافر. أما أنا فكان لديَّ صندوق آخر جهزته ولففته في ورق بُني، وكتبتْ عليه عنواني في نيويورك، ولحظة خروجي من قاعة المزاد، وبينما كان صديقي راعي البقر يحتجز الحاضرين، التفتُّ بوجهي إلى الباب، وأخرجتْ الماسات الحقيقية من العلبة، ووضعتها في الصندوق الذي جهزته ليُرسل في البريد، وفي العلبة الحقيقية وضعتْ الماسات المزيفة، وبعدما سلمتْ الصندوق لدوبيز، توجهتْ إلى شارع جانبي، ثم إلى شارع آخر لا أعرف اسمه، وفيه دخلتْ إلى أحد المتاجر، وجهزتْ صندوق الألماس ليُرسل عبر البريد؛ إذ أغلقته بشمع الختم وشريط من الخيط. كتبتْ على الطرد - كتب ، وذهبتْ إلى أقرب مكتب بريد ودفعتْ ثمن طابع بريدي، وسلمته غير مسجل بعلم الوصول، كما لو أنه غير ذي قيمة. بعدها ذهبتْ إلى غرفتي في فندق جراند أوتيل حيث كنتْ نزيلاً باسمي لأكثر من شهر، وفي صباح اليوم التالي استقللتْ القطار المتجه إلى لندن، وفي اليوم التالي أبحرتْ من ليفربول على متن الباخرة - لوكانيا . وصلتْ قبل الباخرة - جاسكوين ، التي أبحرت من لو هافر يوم السبت، وحصلتْ على صندوقي من مكتب الجمارك، ودفعتْ رسومه الجمركية، وهو

الآن مستقر بأمان داخل خزانتي. أعتزم صنع عِقد آخر يشبه الأصلي تماماً بحيث لا يمكن لأحد التمييز بينهما، ثم سآتي إلى أوروبا وأعرض الاثنين من أجل إذاعة حقيقة هذه المسألة، وستكون هذه أكبر دعاية لي على الإطلاق.

المخلص
جون هازارد

اتصلتُ على الفور بروان، ووجدتُ مارتن دوبيز على قيد الحياة وبصحة جيدة، وكانت أول كلمات له: - أقسم أني لم أسرق المجوهرات، كان قد سبح إلى الشاطئ، وسافر إلى روان، وظل صامتًا في خوف بالغ، بينما كنتُ أبحث عنه دون جدوى في باريس. استغرق السيد هازارد وقتًا أطول من المتوقَّع في صنع العِقد المزيف، وبعد مرور عدة أعوام ذهب في رحلته مع العِقدين على الباخرة المنكوبة - بورجوين ، ويرقد حاليًّا بجوارهما في قاع الأطلنطي، جواهر كثيرة لبريقها جمال وصفاء، مخبأة في كهوف مظلمة تحت مياه المحيط الزرقاء.

لغز
الملاعق الفضية

حين أُحضِرتْ إليَّ البطاقة، نظرتُ فيها بقدرٍ من الريبة؛ إذ استشعرتُ وجود صفقةٍ تجارية، وعلى الرغم من أن مثل هذه القضايا تكون مُربِحة بالقدر الكافي، فإني، يوجين فالمونت، صاحب المنصب المرموق في الحكومة الفرنسية فيما سبق، لا أهتمُّ بأن تكون لي علاقة بها؛ فمثل هذه القضايا تتعلق عادةً بشئونٍ تجاريةٍ دنيئة، ولا تجذب كثيرًا اهتمام رجلٍ تعامل، في وقتٍ ما، مع قضايا دبلوماسيةٍ غامضة اعتمد عليها رخاء بعض الدول.

إن اسم بنثام جيبز مألوف لدى الجميع؛ لارتباطه بالمخللات التي يُعلَن عنها كثيرًا، ونشاهد إعلاناتها باللونَين القرمزي والأخضر الزاهيَين في جميع أنحاء بريطانيا العظمى، وتصدم الحسَّ الفني كلما رأيناها. أما أنا فلم أذقها قط، ولن أفعل أبدًا ما دام ثمة مطعمٌ فرنسيٌّ مفتوحٌ في لندن؛ لكني لا أشك في أنها صادمة لحاسة التذوُّق بقدر إزعاج إعلانها للعين. وإن حدث وتوقَّع مُصَنِّع هذا المخلل الرديء مني اقتفاء أثر الذين يحاولون الاعتداء على وصفاته لصنع ما يُطلَق عليه التتبيلات والصلصات وما شابه؛ فإنه يكون مخطئًا؛ إذ إنني أصبحت الآن في موقعٍ يُتيح لي اختيارَ ما أعمل عليه من قضايا وانتقاءها، ولم يكن من شأن قضية عن المخللات أن تستهويني. كان نص الإعلان: - احذروا التقليد؛ فليس حقيقيًّا دون التوقيع الأصلي لبنثام جيبز. حسنًا، ليست المخللات من شأني، ولا اقتفاء أثر المقلِّدين. تزوير شيك! أجل، إن أردتَ، لكن لم يكن تزوير توقيع السيد جيبز على زجاجة المخلل ضمن اختصاصاتي. ومع ذلك قلتُ لأرماند: - أدخِل السيد. ففعل هذا.

ولِدهشتي دخل شابٌّ أنيقٌ يرتدي معطفًا داكنًا مشقوق الذيل، وصدريةً لا عيب فيها، وسروالًا يَظهر عليه أنه من تفصيل أحد الخياطين في شارع بوند. وحين تحدَّث كان صوته ولُغته ينمَّان عن رجلٍ مهذب.

تساءل قائلًا: - السيد فالمونت؟

رددتُ عليه وأنا أنحني وألوّح بيدي، بينما وضع له أرماند مقعدًا وانصرف:

- في خدمتك.

بدأ السيد جيبز حديثه قائلًا: - أنا محامٍ، لديَّ مكتب في مبنى تِمبل، وتزعجني منذ بضعة أيام مسألة؛ جئتُ إليك الآن طالبًا نصحك فيها؛ إذ اقترح صديقٌ أثق به اسمَك عليَّ.

سألته: - هل أعرفه؟

ردَّ السيد جيبز:

- لا أعتقد هذا؛ فهو أيضًا محامٍ له مكتب في المبنى ذاته الذي يوجد فيه مكتبي، اسمه ليونيل داكر.

- لم أسمع به قط.

- على الأرجح لا، ومع ذلك، فقد أوصى لي بك بوصفك رجلًا يمكن الاستعانة بمشورته، وإن قبلت هذه القضية فأنا أرغب في التزام أقصى قدرٍ من السرّية، أيًّا كانت النتيجة.

انحنيتُ، لكني لم أُبدِ أي اعتراض؛ فالسرية أمرٌ مفروغ منه بالنسبة لي، سكت الرجل الإنجليزي لبضع لحظات، كما لو أنه توقَّع الحصول على تعهُّدات حماسية، ثم واصل حديثه دون أن يبدو على وجهه أي أثر للإحباط عندما لم يحصل عليها.

في ليلة الثالث والعشرين، أقمتُ عشاءً صغيرًا لستة من أصدقائي في مكتبي. أستطيع القول إنهم جميعًا على حد علمي رجالٌ محترَمون، شخصياتهم ليست موضع شك. في ليلة هذا العشاء تأخرتُ عما كان متوقعًا في حفل استقبال، وعند عودتي بسيارتي إلى مبنى تمبل تأخرتُ أكثر بسبب تَعثُّر في حركة السير في شارع بيكاديلي؛ لذا حين عودتي إلى مكتبي كان لدي وقت بالكاد لارتداء ملابسي واستقبال ضيوفي. كان مساعدي جونسون قد أعدَّ كل شيء من أجلي في غرفة الملابس، وبينما هُرعتُ إليها خلعتُ المعطف الذي كنتُ أرتديه وتركته معلَّقًا على ظهر أحد المقاعد في غرفة الطعام؛ حيث لم

ألاحظه لا أنا ولا جونسون حتى انتبهتُ إليه بعد انتهاء العشاء، بينما كان الجميع يشربون النبيذ في سعادة، يحتوي هذا المعطف على جيب داخلي، وفي العادة أي معطف مشقوق الذيل أرتديه في حفلات الاستقبال المسائية لا يحتوي على جيبٍ داخلي، لكني كنتُ في عجلةٍ من أمري طوال اليوم.

إن والدي صاحب مصنعٍ ربما يكون اسمه مألوفًا لديك، وأنا أحد أعضاء مجلس إدارة شركته. وفي هذه المناسبة أخذتُ سيارة أجرة من المدينة إلى حفل الاستقبال الذي تحدثتُ عنه، ولم يتسنَّ لي الوقت لأغيّر ملابسي في مكتبي. كان حفل الاستقبال بوهيميًّا بعض الشيء؛ لذا كان ممتعًا للغاية بالطبع، ولكنه لم يكن يتطلب ارتداء ملابس محددة؛ لذا ذهبتُ بما أرتديه. داخل هذا الجيب الداخلي توجد حزمة رفيعة، تتكون من قطعتين من الورق المقوَّى بينهما خمسة صكوك ورقية كلٌّ منها بقيمة عشرين جنيهًا صادرة عن بنك إنجلترا، مطويات طوليًّا، ومثبتة في مكانها برباط مطاطي مرن. وقد ألقيتُ المعطف على ظهر المقعد بحيث أصبح جيبه الداخلي واضحًا، وأطراف الصكوك ظاهرة بوضوح، وعند تناولنا القهوة والسجائر أشار أحد ضيوفي وهو يضحك إلى ما أَطلق عليه استعراضًا مُبتذَلًا للثراء؛ فالتقطه جونسون ببعض الاضطراب لإهماله وضْع المعطف في مكانه، وأخذه إلى غرفة الاستقبال حيث وُضِعَت معاطف ضيوفي دون ترتيب. بالطبع كان يُفترض، أن يعلِّقه في خزانة ملابسي، لكنه قال فيما بعدُ إنه ظن أنه يخصُّ الضيف الذي تحدَّث؛ فقد كان جونسون في غرفة ملابسي حين ألقيتُ المعطف على المقعد في الزاوية وأنا في طريقي إلى الغرفة، وأفترض أنه لم يلاحظه في خضم توافد الضيوف، وإلا لكان وضعه حيث ينتمي. بعد انصراف الجميع جاء إليَّ جونسون وقال إن المعطف هناك، لكن الحزمة فُقدَت، ولم يُعثَر على أيِّ أثر لها منذ هذه الليلة.

- على ما أظن أحضرتَ العشاء من مكانٍ خارجي، أليس كذلك.

- بلى.

- كم نادلًا قدَّم الطعام؟

- اثنان، وهذان الرجلان يعملان دومًا عندي في المناسبات المشابهة، لكن بعيدًا عن هذا، فقد تركا المكان قبل وقوع حادثة المعطف.

- أعتقد أن أحدًا منهما لم يذهب إلى غرفة الاستقبال، أليس كذلك؟

- بلى، فأنا متأكد من عدم وجود أي شكوك بشأن أيٍّ من النادلَين.

- وماذا عن مساعدك جونسون؟

- إنه يعمل معي منذ سنوات، وكان بإمكانه أن يسرق بسهولةٍ أكثر بكثير من مجرد مائة جنيه إن أراد فعل هذا، لكني لم أعرف عنه قط أنه أخذ بنسًا واحدًا ليس من حقه.

- أيمكنك أن تخبرني بأسماء ضيوفك يا سيد جيبز؟

- جلس على يميني فيكونت ستيرن، وعلى يساري اللورد تمبلمير، وبجواره السير جون سانكلير، وبجوار سانكلير أنجوس ماكيلر، وبجوار فيكونت ستيرن جلس ليونيل داكر، وعلى يمينه فنسنت إينيس.

كتبتُ أسماء الضيوف على ورقة وأشرتُ إلى أماكنهم على الطاولة.

- أيُّ ضيف لفتَ انتباهك للمال؟

- ليونيل داكر.

- هل ثمة نافذةٌ تطلُّ على الخارج في غرفة الاستقبال؟

- يوجد اثنتان.

- هل كانتا مغلقتين في ليلة حفل العشاء؟

- لستُ متأكدًا، على الأرجح سيكون جونسون على علمٍ بهذا. هل تُلمِح إلى احتمال دخول لصٍّ عبر نافذة غرفة الاستقبال بينما كنا في حالة من الصخب إلى حدٍّ ما في أثناء الشراب؟ أعتقد أن هذا حلٌّ بعيد الاحتمال للغاية؛ فمنزلي

في الطابق الثالث، ومن الصعب للغاية أن يجرؤ لص على اقتحام المنزل وهو يعلم بوجود مجموعة من الناس تحتفل، بالإضافة إلى أن المعطف ظل في الغرفة لمدة أقل من ساعة، وعلى ما يبدو لي أن مَن سرق هذه الصكوك كان يعلم بمكانها.

اضطررتُ إلى الاعتراف: - يبدو هذا منطقيًّا، هل تحدثتَ مع أي أحدٍ عما فقدته؟

- لا أحد إلا داكر، الذي أوصى بأن آتي لرؤيتك. آه، أجل. لجونسون بالطبع.

لم يسعني إلا ملاحظة أن اسم داكر ذُكر للمرة الرابعة أو الخامسة في حوارنا.

فسألتُ: - ماذا عن داكر؟

- حسنًا، فهو كما ترى، له مكتب في المبنى نفسه في الطابق الأرضي. إنه رجل صالح، وأصبحنا صديقَين مقربَين. وقد كان هو مَن لفت انتباهي إلى المال؛ لذا ظننتُ أنه يجب أن يعرف ما حدث.

- وكيف تلقَّى الخبر؟

- الآن وقد لفتَّ انتباهي للأمر، فقد بدا عليه بعض الاضطراب. إلا أنه يتحتَّم عليَّ القول إن هذا يجب ألا يضلِّلك؛ فلا يستطيع ليونيل داكر السرقة ولا الكذب.

- هل بدا عليه أيُّ دهشة حين ذكرتَ السرقة؟

صمت بنثام جيبز لبرهة قبل الرد، وقطَّب حاجبيه مفكِّرًا، قال أخيرًا: - لا، وحين أفكر في الأمر، لقد بدا كما لو أنه يتوقَّع هذا الخبر.

- ألا تجد هذا غريبًا يا سيد جيبز؟

- في الواقع أنا في حيرةٍ بالغة؛ فلا أعرف في أي شيء أفكر، لكن من العبث للغاية أن أشكَّ في داكر. ستفهم ما أعنيه إن كنتَ تعرف الرجل؛ فهو ينحدر من أسرةٍ عريقة، وهو ... حسنًا! إنه ليونيل داكر، وحين تذكر اسمه يكون أيُّ شكٍّ عبثًا.

- أفترض أنك أخضعتَ الغرف لتفتيشٍ دقيق. فلم تسقط الحزمة من الجيب في أحد الأركان وظلت هناك دون أن يلاحظها أحد. صحيح؟

- بالفعل؛ فقد فحصنا أنا وجونسون كل شبر في المكان.

- هل لديك أرقام الصكوك النقدية؟

- أجل، فقد حصلتُ عليها من البنك في صباح اليوم التالي؛ أوقف البنك التعامل على هذه الصكوك، وحتى الآن لم يُقدَّم أيٌّ من الصكوك الخمسة إلى البنك! بالطبع، قد يكون واحد منها أو أكثر صُرف في أحد المتاجر، لكن لم يُقدَّم أيٌّ منها إلى البنك.

- لا يُقبَل صكٌّ بقيمة عشرين جنيهًا دون فحصٍ دقيق؛ لذا على الأرجح قد يجد السارق قدرًا من الصعوبة في التخلُّص منها.

- كما أخبرتك، أنا لا أمانع في فقدان المال على الإطلاق، إن ما يزعجني هو الشعور بالشكِّ والقلق الذي نتج عن الحادث. وستُدرِك كم أنني لا أكترث بالمال حين أخبرك أنك إن أوليتَ اهتمامًا كافيًا بهذه القضية، فإني لن أرضى أن يقلَّ أجرك عن المبلغ الذي فقدتُه!

وقف السيد جيبز وهو يقول هذا، ورافقتُه حتى الباب وأكدتُ له أني سأبذل قصارى جهدي في حل هذا اللغز. وسواء أكان ينحدر من أسرة من صانعي المخللات أم لا، فقد أدركتُ أنه رجلٌ مهذَّب وسخي، يقدِّر خدمات الخبراء المحترفين مثلي بقيمتها الحقيقية، لن أخوض في تفاصيل أبحاثي التي أجريتُها على مدار الأيام القليلة التالية؛ لأني سأذكرها عند ذكر الحوار الشيق الذي كنتُ طرفًا فيه فيما بعدُ. يكفيني أن أقول إن فحص الغُرف واستجوابي المغلق لجونسون طمأناني إلى أنه هو والنادلَين أبرياء، وتأكدتُ أيضًا من عدم دخول أي لصٍّ عبر النافذة، وأخيرًا توصلتُ إلى استنتاج أن الصكوك سرقها واحدٌ من الضيوف، وأقنعتني التحريات الإضافية أن السارق ليس أحدًا غير ليونيل داكر؛ الوحيد من بين الضيوف الستة الذي كان في حاجة ماسَّة إلى

المال في هذا الوقت. أمرتُ بتعقُّب داكر، وخلال واحدة من جولاته تعرفتُ إلى خادمه هوبر، وهو رجلٌ فظٌّ وغير مهذب، قبِل عملتي النقدية الذهبية بسرعةٍ كبيرة، لكنه لم يعطني الكثير من المعلومات في مقابلها. وبينما كنتُ أتحدَّث معه، وصل إلى الممر الذي كنا نتحدث فيه معًا صندوقٌ ضخم من الشمبانيا، يحمل اسم أحد أشهر العلامات التجارية في المجال، ومكتوبٌ عليه أنه مُعتَّق منذ عام ٧٨. علمتُ الآن أن منتج كاميلوت فريرز لا يُباع بسعرٍ زهيد مثل الجعة البريطانية، وعلمتُ أيضًا أن السيد ليونيل داكر سينفد ما لديه من مالٍ في غضون أسبوعين لا أكثر. ومع ذلك فقد ظلَّ داكر المحاميَ نفسَه الذي لا يأتيه أي عملاء، كحاله دومًا.

في صباح اليوم التالي لحديثي غير المثمر مع خادمه هوبر، اندهشتُ حين تسلَّمتُ الرسالة التالية، مكتوبة على بطاقة مراسلات أنيقة:

مبنيا فيلوم الثالث والرابع، إنير تمبل، إي سي
يقدم السيد ليونيل داكر تحياته إلى السيد يوجين فالمونت، وسيسعد كثيراً إذا وافق السيد فالمونت على زيارته له في مكتبه غداً في الحادية عشرة صباحاً.

هل أدرك هذا الشاب أنه مُلاحَق، أم أن خادمه أخبره بالتحريات الجارية؟ سأعلم قريبًا. وصلتُ في تمام الحادية عشرة في صباح اليوم التالي، واستقبلني بلباقةٍ مبهرةٍ السيد داكر بنفسه. وكان من الواضح أن هوبر القليل الكلام أُرسِلَ بعيدًا من أجل هذه المقابلة، بدأ الشاب حديثه قائلًا:

- عزيزي السيد فالمونت، تسعدني مقابلتك كثيرًا ، باحترامٍ بالغ لم ألحظْه على رجلٍ إنجليزي من قبلُ، إلا أن كلماته التالية قدَّمت تفسيرًا لم يخطر على بالي إلا في وقتٍ لاحق لكونه بعيد الاحتمال؛ إذ قال: - أعتقد أننا من بلدٍ واحد؛ لذلك، ومع أن الوقت مُبكِر، آمل أن تسمح لي بأن أقدِّم لك بعضًا من هذه البهجة المعبَّأة في زجاجة منذ عام ٧٨، من فرنسا الجميلة، التي سنشرب معًا نَخْب رخائها وشرفها. فأي ساعة من اليوم تكون مناسبة لمثل هذا النخْب؟

وما أدهشني أنه أحضر من الصندوق الذي رأيتُه يصل منذ يومين زجاجةً من نبيذ كاميلوت فريرز هذا من عام ٧٨.

قلتُ لنفسي:

- والآن، سيكون من الصعب الاحتفاظ بصفاء الذهن إن وصلت رائحة هذا المشروب إلى المخ. لكن بما أن هذه الكأس مغرية للغاية، فسأشرب القليل منها، وآمل ألا يُدرِك هذا.

كان شخصًا حساسًا، وقد رأيت بالفعل سِحر شخصيته، وأدركتُ جيدًا شعور الصداقة الذي يُكِنُّه السيد بنثام جيبز له. لكني رأيت المكيدة تُحاك أمامي؛ فقد توقَّع أنه تحت تأثير الشمبانيا والدمائة سيحصل على وعدٍ مني؛ لا بد أن أحرص على عدم إعطائه إياه.

- سيدي، أنت تثير اهتمامي بادعائك الانتساب إلى فرنسا؛ فكان اعتقادي أنك تنتمي إلى واحدة من أعرق الأُسَر في إنجلترا.

صاح قائلًا:

- آه، إنجلترا! وبسط ذراعيه في حركةٍ موحية ذات طابعٍ فرنسي في معناها. - إن الجسم ينتمي لإنجلترا بالطبع، لكن الأصل ... آه! الأصل ... يا سيد فالمونت شقَّ التربة التي جاء منها نبيذ الآلهة هذا.

ثم صاح وهو يملأ كأسي وكأسه:

- نَخْب فرنسا، التي تركتْها عائلتي في عام ١٠٦٦!

لم يسعني إلا أن ضحكتُ على هتافه الحماسي.

- ١٠٦٦ !مع ويليام الفاتح! هذا منذ زمنٍ بعيد للغاية يا سيد داكر.

- ربما هذا بعدد السنين، لكن في المشاعر كأنها يوم. لقد جاء أجدادي ليسرقوا، ويا إلهي! كم نجحوا في تحقيق ذلك! لقد سرقوا البلد كلها ... كأنها عملية سرقة، كما أُطلِقُ عليها أنا، تحت قيادة أمير اللصوص الذي تُطلِق عليه اسم الفاتح. فنحن جميعًا نعجب، في مكنونات صدورنا، باللصوص

الذين يرتكبون سرقاتٍ ضخمة، وحتى إن لم تكن السرقات ضخمة، فنحن نعجب باللصوص الخبراء، الذين يُخفون آثارهم ببراعة بحيث يتحيَّر طلاب العدالة في محاولة اقتفائها. والآن، حتى أنت يا سيد فالمونت — فأنا يمكنني رؤية أنك من أكثر الرجال سخاءً، ولديك تعاطف متَّقد لا نجده إلا في فرنسا، حتى أنت لا بد أنك تعاني غُصَّة ندمٍ حين تُلقي القبض على لصٍّ أدَّى مهمته ببراعة.

- أخشى يا سيد داكر أنك تنسب إليَّ سخاءً لا أجرؤ على ادعاء وجوده لديَّ؛ فالمجرم خطر على المجتمع.

- صحيح، صحيح، أنت على صواب يا سيد فالمونت، ومع ذلك عليك الاعتراف بأن ثمة قضايا تمسُّ مشاعرك. على سبيل المثال: رجلٌ شريف بطبيعته، وفي حاجةٍ ماسَّة، وأمام فرصةٍ مفاجئة؛ إنه يأخذ مما يوجد بوفرة لدى شخصٍ آخر، بينما هو لا يملك منه شيئًا. ماذا عن هذا يا سيد فالمونت؟ هل يذهب هذا الرجل إلى الجحيم بسبب ضعفٍ انتابه في لحظة؟

أذهلتني كلماته؛ هل كنتُ على وشك سماع اعتراف منه؟ لقد وصل الأمر إلى هذا الحدِّ بالفعل.

قلتُ له: - يا سيد داكر، أنا لا يمكنُني الخوض في التفاصيل الدقيقة التي تتحدَّث عنها؛ فواجبي هو العثور على المجرم!

- مرةً أخرى أعترف بأنك على حقٍّ يا سيد فالمونت، وأنا منبهر بوجود مثل هذا العقل الراجح على أكتافٍ فرنسية. وعلى الرغم من أنك وافدٌ أحدث مني، إن جاز لي القول، فإنك تفوهت بالفعل بأفكارٍ عاطفية تعظِّم من شأن إنجلترا. إن واجبك ملاحقة المجرم؛ حسنًا إذن، يمكنني مساعدتك في هذا؛ ولهذا طلبتُ حضورك هنا هذا الصباح. دعني أملأ كأسك مرةً أخرى يا سيد فالمونت.

- لا يا سيد داكر، لا مزيد من فضلك.

- ماذا! أتعتقد أن مشتري السلع المسروقة مذنبٌ شأنه شأن السارق؟

اندهشتُ من تعليقه وأعتقد أن وجهي بدا عليه ما شعرتُ به من ذهول. لكن لم يكن من هذا الشاب إلا أن ضحك بمتعةٍ بالغةٍ واضحة، وسكب قليلًا من الخمر في كأسه، وشربه بسرعة. ولأني لم أكن أعرف ماذا أقول، غيرتُ مجرى الحوار الحالي.

- قال السيد جيبز إنك تفضلتَ وأوصيتَه أن يستعين بي. هل لي أن أسأل كيف سمعت عني؟

- آه! مَن الذي لم يسمع عن السيد فالمونت الشهير؟ وحين قال هذا تبادر إلى ذهني لأول مرة شكٌّ بأنه يسخر مني، وهو أمر لا يمكنني احتماله. في الواقع، لو أن هذا السيد قد مارس هذا التصرف الهمجي في بلدي، لوجد نفسه في مبارزة قبل أن يبتعد خطوةً واحدة. إلا أن صوته استعاد على الفور سحره الأصلي، فاستمعتُ إليه كما لو أني أستمع إلى لحنٍ ممتع.

- إن مجرد ذِكري لابنة عمي، السيدة جلاديس داكر، سيجعلك على الفور تدرك لِمَ أوصيتُ بك لصديقي؛ فقضية السيدة جلاديس، كما تذكر، كانت تحتاج إلى لمسةٍ رقيقة لا تتوافر عادةً على أرضٍ مثل إنجلترا، إلا حين يشرِّفنا الذين يمتلكون هذه الموهبة ويأتون ليعيشوا معنا.

لاحظتُ أن كأسي مُلئت مرةً أخرى، فانحنيتُ تقديرًا مني لمجاملته اللطيفة، وأمتعتُ نفسي برشفة أخرى من هذا النبيذ اللذيذ، ثم تنهدتُ؛ إذ بدأتُ أُدرك أنه سيكون من الصعب عليَّ، على الرغم من تنصُّلي، أن أُخبِر صديق هذا الرجل أنه هو مَن سرق المال. طوال هذا الوقت كان يجلس على طرف الطاولة، بينما كنت أجلس أنا على مقعد في نهايتها، كان يجلس هناك بعدم اكتراث، ويؤرجح إحدى قَدمَيه ذهابًا وإيابًا، والآن قفز واقفًا على الأرض، وجذب إليه مقعدًا، ووضع على الطاولة قطعة ورق فارغة، ثم أخذ من رفِّ الموقد رزمةً من الخطابات، واندهشتُ لرؤية أنها مربوطة معًا بقطعتين من

الورق المقوَّى ورباطٍ مطاطيٍّ مَرِنٍ، يشبه تمامًا الحزمة التي احتوت على الصكوك البنكية المطوية. أزاح الرباط المطاطي بفتورٍ بالغ، وألقاه بعيدًا هو وقطعتَي الورق المقوَّى على الطاولة أمامي، واحتفظ بالوثائق مفكوكةً في يده.

صاح بسعادة:

- والآن يا سيد فالمونت، لقد انشغلتَ لأيامٍ كثيرة بهذه القضية؛ قضية صديقي العزيز بنثام جيبز، وهو واحد من أفضل الأصدقاء في العالم.

- لقد قال الشيء نفسه عنك يا سيد داكر.

- يسعدني سماع هذا، أتمانع أن تخبرني بالنقطة التي قادك بحثك إليها؟

- لقد قادني في اتجاهٍ معيَّن، وليس إلى نقطةٍ معينة.

- آه! في اتجاه رجلٍ معين بالطبع؟

- بالتأكيد.

- مَن هو؟

- هلَّا عذرتني إن رفضتُ الإجابة عن هذا السؤال في الوقت الحالي؟

- هذا يعني أنك لستَ متأكدًا.

- هذا يعني يا سيد داكر، أن السيد جيبز هو الذي عيَّنني، وليست لدي حرية الإفصاح عما توصلتُ إليه من نتائج دون إذن منه.

- لكني أنا والسيد بنثام جيبز في الجانب نفسه في هذه المسألة. فعلى الأرجح أنت تعلم أني كنتُ الوحيد، بخلافك، الذي ناقش معه القضية.

- لا شك أن هذا صحيح، مع ذلك يا سيد داكر، عليك أن تقدِّر صعوبة موقفي.

- أجل، أنا أقدِّر ذلك، ولن أضغط عليك أكثر من هذا. لكنني أنا أيضًا درستُ المشكلة بطريقةٍ هاويةٍ محضة، بالطبع. وربما لن تمانع في معرفة ما إذا كانت استنتاجاتي تتوافق مع استنتاجاتك أم لا.

- على الإطلاق. فستُسعدني للغاية معرفة النتيجة التي توصلتَ إليها. أيمكنني سؤالك عما إذا كنت تشكُّ في شخصٍ ما على وجه الخصوص؟

- أجل، أشكُّ.

- أيمكنك إخباري باسمِه؟

- لا، فسأُقلِّدك فيما أظهرتَه من تحفُّظٍ محمودٍ، والآن دعنا نسْبُر غَوْر هذا اللغز بأسلوبٍ عقلاني وعملي. لقد فحصتَ الغرفة بنفسك بالفعل؛ حسنًا، هذا رسمٌ تخطيطيٌّ تقريبي لها. هذه هي الطاولة، وفي هذه الزاوية كان المقعد الذي أُلقي عليه المعطف، وهنا جلس جيبز على رأس الطاولة. الذين جلسوا في جهة اليسار كانت ظهورهم مواجهة للمقعد. وأنا، نظرًا لجلوسي في المنتصف على الجهة اليمنى، رأيتُ المقعد والمعطف والصكوك، ولفتُّ الانتباه إليها. والآن مهمتنا الأولى هي العثور على دافع. لو كانت جريمة قتل، ربما كان الدافع الكره أو الانتقام أو السرقة، كما تشاء، لكن بما أنها ببساطة جريمة سرقة أموال، فلا بد أن الرجل إما أن يكون لصًّا بالفطرة أو أنه شخصٌ بريء طوال عمره دفَعَتْه حاجته الماسة إلى ارتكاب الجريمة. هل تتفق معي يا سيد فالمونت؟

- تمامًا، أنت تتبع أسلوب تفكيري بالضبط.

- حسنًا إذن، من غير المحتَمل أن يوجد لصٌّ بالفطرة ضمن ضيوف السيد جيبز؛ ومن ثم نختزل جهودنا في البحث عن رجلٍ تحت وطأة حاجةٍ شديدة؛ رجل لا يملك مالًا خاصًّا به ولكنه مُجبَر على تدبير مبلغٍ معيَّنٍ من المال، لنقُلْ، بحلول تاريخٍ معيَّن. إن استطعنا العثور على هذا الرجل ضمن هذه المجموعة من الأشخاص، ألا تتفق معي أنه سيكون السارق على الأرجح؟

- أجل، بالطبع.

- إذن دعنا نبدأ عملية الاستبعاد؛ أولًا نستبعد فيكونت ستيرن؛ فهو شخصٌ محظوظ يمتلك ٢٠ ألف فدان من الأراضي، والرب وحده يعلم ما تدرُّه هذه

الأراضي من دخل. وأستبعد أيضًا اسم اللورد تمبلمير؛ فهو أحد قضاة جلالة الملك، وهو فوق مستوى الشبهات بالكامل. بعد ذلك، يأتي السير جون سانكلير، وهو غنيٌّ أيضًا، لكن يظل فنسنت إينيس أغنى منه؛ لذا نشطب بالقلم اسمهما. والآن نصل إلى أنجوس ماكيلر وهو مؤلِّف على قدر من الشهرة، كما تعرف، ويحصل على دخلٍ جيدٍ من كتبه، ودخلٍ أفضل من مسرحياته، فهو إسكتلندي بارع؛ لذا علينا محو اسمه من ورقتنا وذاكرتنا. إلى أي مدًى تتفق قائمة استبعادي مع تلك التي صنعتَها بنفسك يا سيد فالمونت؟

- تتفق معها تمامًا يا سيد داكر.

- أشعر بالإطراء لسماع هذا. يظلُّ لدينا اسمٌ واحد لم نتطرق إليه، وهو السيد ليونيل داكر، المنحدر، كما قلتُ، من سلالة لصوص.

- أنا لم أقل هذا يا سيد داكر.

- آه! يا عزيزي فالمونت، تَظهر الدمائةُ التي تُميِّز دولتك جلية في أسلوب تعاملك. علينا ألا نخدع أنفسنا، بل نتبع تحقيقنا أينما قادنا. أنا أشك في ليونيل داكر. ماذا تعرف عن ظروفه قبل عشاء يوم الثالث والعشرين؟

حين لم أردَّ على كلامه نظر إليَّ بوجهه الصبياني الصريح الذي تعلوه وتُضيئه ابتسامةٌ أخَّاذة.

سألني: - ألا تعرف شيئًا عن ظروفه؟

- يُحزنني القول إنني أعرف؛ فالسيد ليونيل داكر كان مُفلِسًا في ليلة العشاء.

صاح داكر بإيماءة اعتراض مثيرة للشفقة:

- لا، لا تبالغ يا سيد فالمونت؛ فقد كان يحمل في جيبه نصف شلن، وبنسين، ونصف بنس. فكيف تقول عنه إنه كان مفلسًا؟

- أنا أعرف أنه طلب صندوق شمبانيا من الممثل الإنجليزي لشركة كاميلوت فريرز، ورُفض طلبه إلا إذا سدَّد المال.

- صحيح بالفعل، ثم حين كنتَ تتحدث مع هوبر رأيتَ تسليم صندوق الشمبانيا. ممتاز! ممتاز! يا سيد فالمونت. لكن فكِّر في الأمر، هل يسرق الرجل حتى وإن كان من أجل الحصول على مثل هذا النبيذ ذي الطعم الطيب الذي تذوَّقناه للتوّ؟ وبالمناسبة، اغفر لي إهمالي، واسمح لي بملء كأسك مرةً أخرى يا سيد فالمونت.

- ولا قطرةً واحدةً أخرى، من فضلك يا سيد داكر.

- آه، أجل، يجب عدم الخلط بين الشمبانيا والأدلَّة، ربما حين ننتهي. ما الدليل الآخر الذي اكتشفتَه يا سيدي؟

- لديَّ دليل على أن السيد داكر كان مهدَّدًا بالإفلاس، إن لم يدفع، في يوم الرابع والعشرين، فاتورة بقيمة ٧٨ جنيهًا كانت مستحَقَّة عليه منذ فترةٍ طويلة؛ وعندي دليل على سدادها، ليس في يوم الرابع والعشرين، بل في يوم السادس والعشرين؛ فقد ذهب السيد داكر إلى الممثل القضائي وطمأنه بأنه سيُسدِّد المال في هذا الموعد، وعليه مُنح مهلة لمدة يومَين.

- آه، حسنًا، لقد كان من حقه ثلاثة أيام، كما ينصُّ القانون، كما تعرف. أجل يا سيد فالمونت، هذه بالضبط النقطة الحاسمة؛ فالتهديد بالإفلاس سيدفع رجلًا في وضع داكر إلى ارتكاب أي جريمة على الإطلاق؛ فإفلاس المحامي يعني دماره؛ إذ يعني ذهاب حياته المهنية أدراج الرياح، ويعني انتهاء حياته، مع وجود فرصةٍ ضئيلة لبعثه من جديد. أرى أنك تدرك الأهمية البالغة لهذا الدليل؛ فصندوق الشمبانيا لا يمثل شيئًا مقارنةً بهذا الدليل، وهذا يُذكِّرني في ظل هذه الأزمة التي نحن بصددها أن آخذ رشفةً أخرى، بعد إذنك. أمُتأكِّد من أنك لا تريد مشاركتي الشراب؟

- ليس في هذه اللحظة الحاسمة يا سيد داكر.

- أنا أحسدك على هدوء أعصابك. هذا نخب نجاح بحثنا يا سيد فالمونت.

شعرتُ بالسوء حيال هذا الشاب المرح؛ إذ كان يشرب الشمبانيا بوجه مبتسم، واصل حديثه قائلًا:

- والآن يا سيدي، يُذهِلني مدى ما اكتشفته؛ ففي الواقع أنا أعتقد أن التجار والمحامين وأمثالهم علمهم الانتباه جيدًا لما يقولون أكثر مما يحدث الآن. ومع ذلك، فإن هذه المستندات الموجودة في حوزتي، التي توقَّعتُ أن تفاجئك، هي مجرد خطابات وإيصالات. هذه هي المراسلات الآتية من الممثل القضائي التي يهددني فيها بالإفلاس، وهذا هو إيصاله بتاريخ السادس والعشرين، وهذا إخطار الرفض من بائع النبيذ، وهذا إيصال تَسلُّمِه المال. وهذه فواتير بمبالغ أصغر سُدِّدَت. سأجمعها جميعًا وأكتب قيمتها بقلمي الرصاص. ٧٨ جنيهًا، الدَّين الرئيسي، المبلغ الضخم. والآن نضيف المبالغ الصغرى، فيَصلُ الإجمالي إلى ٩٣ جنيهًا، و٧ شلنات وأربعة بنسات. والآن لنفحص حافظة نقودي. هذا صكٌّ بخمسة جنيهات، وهذه عُملةٌ ذهبية. والآن سأعدُّ الأشياء وأضع على الطاولة ١٢ بنسًا ونصف شلن فضي وبنسَين نحاسيَّين؛ ومن ثم تصبح المحفظة فارغة. دعنا نُضِف العملات الفضية والنحاسية إلى المبلغ الورقي، هل تخدعني عيناي أم أن المجموع مائة جنيه بالفعل؟ هكذا حسبنا المبلغ بالكامل.

قلتُ له:

- اعذرني يا سيد داكر، لكني لاحظتُ عملةً ذهبية على رفِّ الموقد.

أرجع داكر رأسه إلى الخلف وانفجر في ضحكٍ شديد أكثر مما عهدته عليه في خلال فترة تعرُّفنا الوجيزة.

صاح:

- يا إلهي! لقد نلتَ مني؛ فقد نسيتُ تمامًا بشأن هذا الجنيه على رفِّ الموقد، الجنيه الذي يعود إليك.

- إليَّ؟ مستحيل!

- إنه بالفعل، ولا يتعارض أبدًا مع حساباتنا التي وصلتْ إلى مائة جنيه؛ فهو الجنيه الذي أعطيتَه لمساعدي هوبر، الذي بسبب علْمه بما أمرُّ به من ضائقةٍ مالية، أخذه وقدَّمه إليَّ على استحياء حتى أستمتع بإنفاقه. ينتمي هوبر إلى عائلتنا، أو تنتمي عائلتنا إليه، أنا لم أعرف قط أيهما الصحيح. من المؤكد أنك لم تجد فيه سلوك اللامبالاة الذي يتسم به الخدم في باريس، ومع ذلك فهو من الذهب الخالص، تمامًا مثل العملة الذهبية التي أعطيتَها له، والتي أعطاها لي بدوره. والآن يا سيدي، إليك الدليل على السرقة، مع الرباط المطاطي وقطعتَي الورق المقوى. اطلب من صديقي جيبز أن يفحصها بدقَّة؛ فهي كلها تحت تصرُّفك. وهكذا يا سيدي تعرف أن التعامل مع السيد أسهل بكثير من التعامل مع الخادم. فكل ما تملكه من ذهبٍ لم يكن لينتزع من العجوز هوبر هذه الوثائق التي تُثبت التهمة. لقد اضطُررتُ إلى إرساله بعيدًا إلى منطقة ويست إند منذ ساعة خوفًا من احتمال تعرُّضك للإهانة على يديه بسبب أسلوبه البريطاني الوحشي، إن تنامت إلى علمه فكرةٌ عن مهمتك.

قلتُ ببطء:

- يا سيد داكر، لقد أقنعتني بالكامل...

قاطعَني قائلًا وهو يضحك:

- هذا ما ظننتُه.

- بأنك بالفعل ... لم تأخذ المال.

- ماذا! هذا بالفعل تغيير غير مُتوقَّع؛ فقد تعرَّض كثير من الرجال للإعدام شنقًا بسبب سلسلة من القرائن أضعف بكثير من التي قدمتُها لك. ألا ترى مدى وضوح جريمتي؟ فتسعة وتسعون رجلًا من أصل مائة سيقولون: - لا يوجد رجلٌ أحمق يجعل فالمونت يلاحقه، ثم يضع في يديه مثل هذه الأدلة

الدامغة. لكن هنا تبرُز براعتي؛ فبالطبع، العقبة التي عليك مواجهتها ستكون عدم تصديق جيبز؛ فأول سؤال سيطرحه عليك:

- لماذا لم يأتِ داكر إليَّ ويقترض مني المال؟ وهنا ستجد نقطة ضعف في سلسلة أدلتك؛ فقد علمتُ جيدًا بأن جيبز لن يمانع في إقراضي المال، وهو يعلم جيدًا أنني إن وقعتُ في ضائقة سألجأ إليه.

قلتُ:

- يا سيد داكر، لقد كنتَ تتلاعب معي، وأنا أكره هذا في معظم الرجال، لكن سواءٌ أكان هذا بسبب أسلوبك الودود أم تحت تأثير هذه الشمبانيا الممتازة، أو كلهما، فأنا أسامحك. لكنني مقتنع بشيءٍ آخر، وهو أنك تعرف مَن أخذ المال.

- أنا لا أعرف، ولكنني أشكُّ.

- أيمكنك إخباري بمن تشكُّ؟

- هذا لن يكون عدلًا، لكني سأنتهز الفرصة الآن وأملأ كأسك بالشمبانيا.

- أنا ضيفك يا سيد داكر.

ردَّ قائلًا، وهو يسكب النبيذ:

- إجابةٌ رائعة يا سيدي، وأنا الآن سأقدِّم لك مفتاحًا لحلِّ اللغز. حاول معرفة كل شيء عن قصة الملاعق الفضية.

- قصة الملاعق الفضية؟ أي ملاعق فضية؟

- آه! هذه هي الفكرة. اخرج من مبنى تمبل إلى شارع فليت وأمسِك أول رجل تقابله من كتفيه، واطلب منه أن يخبرك عن الملاعق الفضية؛ فالقصة لا تدور إلا حول رجلَين وملعقتَين فقط. عندما تعرف مَن هذَين الرجلَين، ستعرف أيهما لم يأخذ المال، وأنا أؤكد لك أن الآخر هو الذي أخذه.

- أنت تتحدث بالألغاز يا سيد داكر.

- بالتأكيد؛ فأنا أتحدَّث إلى السيد يوجين فالمونت.

- سأردّد مقولتك يا سيدي: إجابةٌ رائعة. لقد وضعتني في موضع أُثبِت فيه مهارتي، وأنا أفخر بنفسي لقدرتي على رؤية لفتتك الطيبة. فأنت تريدني أن أحلَّ لغز هذا المال المسروق. أنت تمنحني الشرف يا سيدي، وأنا أشرب نخب صحتك.

قال ليونيل داكر:

-في صحتك يا سيدي ، وشربْنا ثم افترقنا.

بعد أن تركتُ السيد داكر ركبتُ عربةً تجرها الخيول إلى مقهًى في شارع ريجنيت، يمثل محاكاةً مقبولة للأماكن المشابهة لبيع المشروبات في باريس. وهناك طلبتُ كوبًا من القهوة السادة، وجلستُ أفكِّر. دليل الملاعق الفضية! لقد اقترح عليَّ ضاحكًا أن أمسك بكتفَي أول رجل أقابله، وأسأله عن قصة الملاعق الفضية. بطبيعة الحال وجدتُ هذه التصرفات سخيفة، ولا شك أنه قصد منها أن تبدو سخيفة. ومع ذلك، كانت تحمل معلومة؛ فلا بد لي أن أطلب من شخصٍ ما؛ الشخص المناسب، أن يخبرني بقصة الملاعق الفضية، وتحت تأثير القهوة السادة فكرتُ في الأمر على هذا النحو. في ليلة الثالث والعشرين واحد من الضيوف الستة الذين كانوا موجودين سرق مائة جنيه، لكن داكر قال إن أحد المشاركين في قصة الملاعق الفضية هو اللص الحقيقي. إذن، لا بد أن هذا الشخص كان أحد ضيوف السيد جيبز في عشاء ليلة الثالث والعشرين. وعلى الأرجح كان ضيفًا من الضيوف المشاركين الرئيسيين في كوميديا الملاعق الفضية، لكن مهما يكن، فإن من المنطقي أن يكون واحد على الأقل من الرجال الجالسين إلى طاولة السيد جيبز على علم بقصة الملاعق الفضية. وربما كان بنثام جيبز نفسه على علم بها. ومن ثم، تمثلت الخطة الأسهل في سؤال كل واحد من الرجال الذين شاركوا في حفل العشاء هذا. ومع ذلك، فإن كان شخصٌ واحد فقط على علم بقضية

الملاعق، فلا بد أن تكون لديه فكرة عن أن هذه الملاعق تمثِّل دليلًا يربطه بجريمة يوم الثالث والعشرين، وفي هذه الحالة يقلُّ احتمال إفصاحه عما يعرفه لشخصٍ غريب تمامًا، بالطبع يمكنني الذهاب إلى داكر نفسه وسؤاله عن قصة الملاعق الفضية، لكن سيكون هذا بمنزلة اعتراف مني بإخفاقي في تأدية واجبي، ولقد رهبتُ ضحكة ليونيل داكر الحماسية كثيرًا حين اعترفت بأن هذا اللغز يفوق قدراتي. بالإضافة إلى هذا، أنا أدرك جيدًا نوايا هذا الشاب الطيبة تجاهي؛ فهو يريدني أن أحلَّ لغز هذه القضية بنفسي؛ ولذلك عزمتُ على عدم الذهاب إليه إلا كحلٍّ أخير، قررتُ أن أبدأ بالسيد جيبز، فأنهيتُ قهوتي، ثم ركبتُ عربةً أخرى تجرُّها الخيول، وعدتُ بها إلى مبنى تمبل. وجدتُ السيد جيبز في مكتبه، وبعدما ألقى عليَّ التحية، كان أول ما سألني عنه هو القضية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فسألني:

- إلى أين وصلت؟

رددتُ قائلًا:

- أعتقد أن الأمور تسير على ما يرام، وأتوقَّع الانتهاء من حلِّها في غضون يوم أو يومَين، هذا إن تفضلتَ وأخبرتني بقصة الملاعق الفضية.

كرر كلامي قائلًا:

- الملاعق الفضية؟ وبدا عليه جليًّا أنه لم يفهمني.

- لقد وقعت حادثة اشترك فيها رجلان، وارتبطت هذه الحادثة بملعقتين فضيتين. أريد معرفة تفاصيل هذه الواقعة. رد السيد جيبز قائلًا: - ليس لديَّ أدنى فكرة عما تتحدث ، وبدت عليه الحيرة البالغة. - أخشى أنه عليك أن تكون أكثر تحديدًا إن أردتَ الحصول على مساعدتي.

- لا أستطيع أن أكون أكثر تحديدًا، لأني بالفعل أخبرتك بكل ما أعرف.

- ما علاقة كل هذا بقضيتنا؟

- لقد أخبرني أحدهم أنني إن عرفت دليل الملاعق الفضية فلديَّ فرصة طيبة لحل قضيتنا.

- مَن أخبرك؟

- السيد ليونيل داكر.

- آه، هل أشار داكر إلى لعبة الخفة التي يمارسها؟

- لا أدري حقيقةً، ماذا كانت لعبة الخفة هذه؟

- إنها حيلة ذكية للغاية مارسها في إحدى الليالي على العشاء هنا منذ نحو شهرين.

- هل كان لها أية علاقة بملاعق فضية؟

- حسنًا، لقد كانت ملاعقَ فضيةً أو شوكاتٍ فضية، أو شيئًا من هذا القبيل. لقد نسيتُ الواقعة بالكامل، لكن بحسب ما أذكر في هذا الوقت كان ثمة رجلٌ ذو خبرةٍ كبيرة في ألعاب خفة اليد موجودًا في واحدة من قاعات الموسيقى، ودار حوارنا حوله. عندها قال داكر إن الحيل التي يمارسها الرجل سهلة للغاية، وأمسك بملعقة أو شوكة، لا أذكر أيهما، واستعرض قدرته على جعلها تختفي أمام أعيننا، لنعثر عليها فيما بعدُ في ملابس شخصٍ ما كان موجودًا. بادر كثيرون بالمراهنة على أنه لن يستطيع فعل شيء من هذا القبيل، لكنه قال إنه لن يراهن مع أي شخص إلا إينيس، الذي كان يجلس أمامه. قَبِل إينيس الرهان ببعض التردد، وعندها فتح داكر يديه الفارغتين، في استعراضٍ كبير باستخدام حركات المشعوذ المعتادة، وقال إننا سنعثر على الملعقة في جيب إينيس، ووجدناها هناك بالفعل. بدت حيلةً مناسبةً من خفة اليد، لكننا لم نتمكن من جعله يكررها قط.

- شكرًا جزيلًا يا سيد جيبز، أعتقد أني أرى بصيص أمل الآن.

صاح السيد بنثام جيبز بينما كنت أهمُّ بالرحيل:

- إذا نجحتَ في ذلك فأنت أذكى مني بكثير.

ذهبتُ مباشرة إلى الأسفل وقرعتُ باب السيد داكر مرةً أخرى. فتح الباب بنفسه؛ فلم يكن مساعده قد عاد بعدُ.

صاح قائلًا: - آه يا سيدي هل عدتَ بالفعل؟ لا تقل لي إنك وصلتَ بهذه السرعة إلى حل لغز الملعقة الفضية.

- أعتقد أني فعلتُ يا سيد داكر. لقد كنتَ تجلس في العشاء أمام السيد فنسنت إينيس، ورأيتَه يخفي ملعقة فضية في جيبه، فعلى الأرجح انتظرت بعض الوقت لتفهم ماذا كان يقصد من فعلته هذه، وبما أنه لم يُعِدِ الملعقة إلى مكانها، اقترحتَ إجراء حيلةٍ سحرية، وراهنتَ معه، ومن ثم أعدتَ الملعقة إلى الطاولة.

- ممتاز! ممتاز يا سيدي! هذا أقرب ما يكون إلى ما حدث، باستثناء أني تصرفتُ على الفور؛ فإن لي تجاربَ سابقةً مع السيد فنسنت إينيس؛ فلم يكن يدخل مكتبي هذا دون أن أجد شيئًا بسيطًا مفقودًا بعد ذهابه. فخلافًا للسيد إينيس شديد الثراء، فأنا لا أمتلك كثيرًا من المقتنيات؛ لذلك حين يُؤخَذ مني أي شيء، لا أجد صعوبةً بالغة في معرفة ما فقدتُه. بالطبع لم أذكر أيًّا من هذه السرقات له؛ فقد كانت كلها أشياء لا قيمة لها، كما قلتُ، وبالنسبة للملعقة الفضية فلم تكن ذات قيمة كبيرة أيضًا. لكني فكرتُ في أن الرهان واستعادة الملعقة سيُعلِّمه درسًا، لكن يبدو أن هذا لم يحدث؛ ففي ليلة الثالث والعشرين جلس عن يميني، كما سترى إن عُدتَ إلى رسمك التخطيطي للطاولة والضيوف. طرحتُ عليه سؤالًا مرتَين، لكنه لم يُجِبني، وحين نظرتُ إليه ذُهلت من التعبير الذي وجدته في عينَيه. كانتا تحدِّقان في زاويةٍ بعيدة في الغرفة، وحين تتبعتُ نظراته رأيت ما كان ينظر إليه بهذا التركيز الشارد. فكان مستغرقًا للغاية في تأمُّله للجيب المفتوح، والذي توجَّه إليه اهتمامي الآن، بحيث لم يكن مدركًا على الإطلاق لما يحدث حوله. انتزعته من غفلته عن طريق لَفْت انتباه جيبز بأسلوبٍ مرح إلى ظهور أمواله. افترضتُ أني بهذه

الطريقة أُنقذ إينيس من ارتكاب الفعل الذي من الواضح أنه ارتكبه. لك أن تتخيل عندها المأزق الذي وقعتُ فيه حين أخبرني جيبز في صباح اليوم التالي بما حدث في الليلة الماضية؛ فقد كنتُ متأكدًا من أن إينيس أخذ المال، ومع ذلك لم أكن أملك أي دليل على هذا. لم أستطعْ إخبار جيبز، ولم أجرؤ على التحدث مع إينيس. وبالطبع يا سيدي لا حاجة لي بإخبارك أن إينيس ليس لصًّا بالمفهوم الشائع للكلمة؛ فهو لا يحتاج إلى أن يسرق، ومع ذلك يبدو أنه لا يسعه مقاومة فعل هذا. أنا متأكد من عدم بذل أي محاولة لصرف الصكوك، ومتأكد من أنها توجد في مكانٍ آمِنٍ في منزله بكينجستون؛ فهو في الواقع مصابٌ بهوَس السرقة، أو هوسٍ من نوعٍ ما. والآن يا سيدي، هل كان لإشارتي إلى الملاعق الفضية أي قيمة في حلِّك للقضية؟

- كانت لها أكبر قيمة يا سيد داكر.

- إذن دعني أقترح عليك اقتراحًا آخر. أنا أترك الأمر بالكامل لشجاعتك، تلك الشجاعة التي أعترف بافتقاري إليها. هل يمكنك أن تأخذ عربةً أخرى وتذهب إلى منزل السيد إينيس في طريق كروموبل، وتُواجهه بالأمر بهدوء وتطلب منه إعادة رزمة الصكوك؟ أنا متشوّق لمعرفة ماذا سيحدث. فإن أعاد إليك الصكوك، كما أتوقَّع أن يفعل، فعليك إذن إخبار السيد جيبز بالقصة كاملة.

سأنفِّذ اقتراحك على الفور يا سيد داكر، وأشكرك على ثنائك على شجاعتي.

وجدتُ السيد إينيس يعيش في منزلٍ فخم للغاية، وبعد بعض الوقت دخل إلى غرفة المكتب في الطابق الأرضي، التي كنتُ قد جلستُ فيها. أمسكَ بطاقتي في يده، ونظر إليها في دهشة.

قال بأدبٍ بالغ: - أعتقد أني لم أحظَ بشرف التعرُّف إليك يا سيد فالمونت.

- لا، فقد جئتُ لزيارتك اليوم في عملٍ ما. لقد عملتُ لفترة محققًا في الحكومة الفرنسية، والآن أنا أعمل محققًا خاصًّا هنا في لندن.

- آه! وكيف لهذا أن يكون له علاقة بي؟ أنا لا أريد التحقيق في أي شيء، وأنا لم أُرسل في طلبك، أليس كذلك؟

- نعم يا سيد إينيس. لقد جرؤت على زيارتك حتى أطلب منك أن تَدَعَني أحصل على الرزمة التي أخذتها من جيب معطف السيد بنثام جيبز في ليلة الثالث والعشرين.

- هو يريد استعادتها، أليس كذلك؟

- أجل.

سار السيد إينيس بهدوءٍ نحو مكتب، ثم فتحه كاشفًا عن متحف بمعنى الكلمة من التحف المختلفة الأشكال. فتح درجًا صغيرًا وأخذ منه رزمة تحتوي على خمسة صكوك قيمة الواحد منها عشرون جنيهًا. ومن الواضح أنها لم تُفتَح من قبلُ، وأعطاها لي وهو يبتسم.

- أبلغ اعتذاري للسيد جيبز لعدم إعادتها في وقتٍ سابق. أخبره أني انشغلتُ على غير العادة في الفترة الأخيرة.

قلتُ له، وأنا أنحني لتحيته:

- لن يفوتني فعل هذا.

- شكرًا جزيلًا، طاب صباحك يا سيد فالمونت.

- طاب صباحك يا سيد إينيس.

وهكذا أعدتُ الرزمة للسيد بنثام جيبز، الذي أخرج الصكوك من بين غلافها من الورق المقوى، وتوسَّل إليَّ لأقبلها منه.

لغز
رامي القنابل

أدَّت الأحداثُ التي سردْتُها من قبلُ في قصة - لُغز الماسات الخمسمائة إلى استغناء الحكومة الفرنسيَّة عن خدماتي. لا يَرجع هذا إلى أنَّني قبضتُ على رجُلٍ بريء؛ فقد فعلتُ هذا عشرات المرَّات من قبلُ، دون أن يُتَّخَذ أيُّ إجراءٍ حِيالَ ذلك، وليس أيضًا لأنني اتَّبعتُ خيطًا خاطئًا في البحث أو لأنَّني فشلتُ في حلِّ لُغز الماسات الخمسمائة؛ فجميع المُحقِّقين يَتَّبِعون خَيطًا خاطئًا في بحثهم بين الحين والآخر، وجميعهم يفشل أكثرَ ممَّا يجرؤ على الاعتراف. لا، كلُّ هذه الأشياء ما كانت لتهُزَّ مكانتي، لكن كان من حظِّ الصحف أن وجدَتْ شيئًا مُضحِكًا في القضية، وضجَّت أنحاء باريس لعِدَّة أسابيع بالضحِك والسخرية من أعمالي وهزيمتي. فحقيقةُ أنَّ أكبرَ مُحقِّقٍ فرنسيٍّ قد وَضَع أشهرَ مُحقِّقٍ إنجليزيٍّ في السجن، وأنَّ كِلَيهما كان يتتبَّع بقوَّةٍ خَيطًا بحثيًّا وهميًّا، دسَّه في طريقِهما عن قَصْدٍ أحدُ الهواة، أدَّت إلى صخَبٍ وجدَلٍ عظيمين في جميع أنحاء فرنسا، وهذا جعل الحكومة الفرنسية تَستشيط غضبًا، فأَطْلَقَت سراح المُحقِّق الإنجليزي واستغنَتْ عن خدماتي. ومنذ عام ١٨٩٣ انتقلتُ للإقامة في لندن.

يُمكِن القول إن الرجُل عندما يحلُّ ضيفًا على بلد، فمن الصعب أن يُتعرَّض له بالنقد. لقد درستُ هذا الشعب الغريب باهتمام، وكثيرًا باندِهاش، وإذا كان لِيَ الآن أن أُحدِّد بعضًا من الاختلافات بين الإنجليز والفرنسيين، فأنا مُتأكِّد من أنه لن تظهَر أيُّ لَمحةِ نقدٍ للإنجليز، حتى لو كان تَعاطُفي الكامل مع الفرنسيين. لقد ترسَّخَت تلك الاختلافات بِشدَّةٍ في ذهني؛ لأن عدَم إدراكي لها أثناء الأعوام الأولى من إقامتي في لندن كان — عادةً — السببَ في فشلي عندما كنتُ أعتقد أن النجاح في مُتناوَل يدي. فكثيرًا ما كنتُ على شفا الموت جُوعًا في حيِّ سوهو؛ بسبب عدَم فَهم العقلية العجيبة التي تجعل الرجُل الإنجليزيَّ يفعلُ أمورًا غير قابِلةٍ للتفسير. هذا بالطبع من وِجهة نظري كأحد أبناء الغال.

على سبيل المِثال، المُتَّهم بريء حتى تَثبُت إدانته. في إنجلترا، إذا قُبِضَ على قاتلٍ مُتلبِّسًا بجريمته، فإنه لا يُعدُّ مُدانًا حتى يُصدِر القاضي حُكمًا بذلك. في فرنسا، نحن لا نَفترِض هذا الافتراض الأحمق. وعلى الرغم من اعترافي بأن أُناسًا أبرياء يُعاقَبون أحيانًا دون جَريرةٍ ارتكبوها، فإن خِبراتي تَسمح لي بأن أقول بِكلِّ ثِقةٍ إن هذا لا يحدُث كثيرًا كما يتخيَّل الناس؛ ففي ٩٩ قضيَّةً من كل ١٠٠ قضيَّةٍ يستطيع الشخص البريء على الفَور إثبات براءته دون أدنى صعوبة. أعتقد أن من واجبه تِجاه البلد أن يُواجِهَ الاحتمال الضئيل الخاصَّ بالسجن غير العادل؛ حتى لا تكون هناك عَقَبات في طريقةِ إدانة المُجرمين الحقيقيِّين، لكن من المُستحيل إقناع الإنجليز بهذا. يا إلهي! لقد جرَّبتُ ذلك كثيرًا، لن أنسى أبدًا مَرارة شعوري بالإحباط عندما قَبضتُ على فيليني، اللاسُلطَوي - الأناركي الإيطالي، في حادِثة القتل التي جرَتْ في مُتنزَّه جرينيتش بارك. في ذلك الوقت — وأنا لا أشعر بالخَجل من الاعتراف بذلك — كنتُ أعيش في حيِّ سوهو في حالةٍ مِن الفقر التام. ونظرًا لعملي لفترةٍ طويلةٍ مع الحكومة الفرنسية، تكوَّنت لديَّ فكرةٌ غريبة تقول بأن المستقبل كان يَعتمِد على عملي، ليس في منصبٍ مُماثِلٍ معَ سكوتلاند يارد، ولكن على الأقلِّ في مَنصبٍ أقلَّ منه مع الشرطة؛ مما يُتيح لي إثبات قُدراتي ويُوفِّر فُرصًا للترقية. لم أكن على علم في ذلك الوقت، بالدخل الهائل الذي كان ينتظرُني من العمل خارج الدوائر الحكومية. إن المسئول البريطاني على أي مستوًى، نادرًا ما يَعتقِد أنه من المُفيد اكتشاف السبب الحقيقي لسير الأمور في فرنسا أو ألمانيا أو روسيا، لكنه يعمل ببطءٍ شديد واقعًا في خطأ تِلوَ الآخر، سواء كان ذلك بسبب بُغضه للأجانب، كما يُشاع كثيرًا، أو البلادة الفِطرية التي تُفسِّر سبب رضائهم بالوضع القائم. خذ، على سبيل المثال، مَوجات الكراهية الدَّورية ضِدَّ إنجلترا التي تَظهر في الصحافة الأوروبية. إنها تخلق وضعًا دوليًّا خطيرًا. تدفع بريطانيا ملايين الجُنيهات من أجل الدِّفاع والاستعداد، في حين أنها لو وَضَعتْ

في يدي مليون جنيه منها فقط، لكنتُ سأضمَن لها أن تظهر في صورة مَلاكٍ يطير بجناحَين أبيَضين أمام كل الدول الأوروبية، عندما حاولتُ العمل مع سكوتلاند يارد، طلبوا منّي بالطَّبع وثائقَ تُثبت مؤهلاتي. وعندما أوضحت أنني كنتُ المُحقِّق الأوَّل للجمهورية الفرنسية، لاحظتُ أنَّ هذا الإعلان قد ترك انطباعًا مُهمًّا لديهم، لكن عندما أضفتُ أن الحكومة الفرنسية قد استغنتْ عن خدماتي دون أيّ وثائقَ تُثبت عملي لديها أو تَوصِية أو معاش، تسبَّب على الفور تَعاطُفهم الرسميُّ مع الروتين المُؤسَّسي في قَلْب الأمور رأسًا على عقِب. اعذروني هنا للإشارة إلى وجه اختلافٍ مُهمّ آخر بين البلدين، وهو الذي أرى أنه ليس على الإطلاق في صالح أبناء جلدتي.

لقد طُردتُ من عملي دون سابق إنذار. قد تقول إن هذا كان بسببِ فَشَلي، ومن الصحيح أنني بلا شكٍّ قد فشلتُ في قضية قِلادة المَلِكة، لكنني، على الجانب الآخر، تتبَّعتُ على نحوٍ صحيحٍ الخيطَ البحريَّ الذي كان أمامي. وعلى الرغم من أن النتيجة لم تكن مُتوافقةً مع الحقائق، فقد كانت مُتوافقةً مع المنطق. لا، لم أُطرَد لأنني فشلت؛ فلقد فشلتُ في حالاتٍ كثيرة من قبل، كما قد يحدُث لأيّ شخصٍ في أيّ مِهنة. بل طُردتُ لأنني جعلتُ من فرنسا في ذلك الوقت أُضحوكة أوروبا وأمريكا. لقد استغنَتْ فرنسا عن خدماتي لأنها أصبحَتْ محطَّ سخرية الجميع. لا يستطيع أيُّ فرنسيٍّ تحمُّلَ انقلاب المُزحة عليه، ولكن لا يبدو أن الإنجليزي يهتمُّ بذلك على الإطلاق. وفيما يتعلَّق بالفشل، لم يفشَل أحدٌ على نحوٍ فظيع كما فعلتُ مع فيليني المُجرم المُراوغ الذي امتلك كلَّ شجاعة الفرنسيين وكلَّ دَهاء الإيطاليين. لقد وقع في قبضة يدي ثلاثَ مرّات — مرَّتَين في باريس ومرَّةً في مارسيليا — وفي كلّ مرةٍ كان يهرُب منّي، ومع ذلك لم أُطرَد من عملي، عندما أقول إن السنيور فيليني كان لديه شجاعة الفرنسيين، أكون قد بالغتُ بعض الشيء في مدحه؛ فقد كان يخاف بشدَّةٍ من شخصٍ واحد، وهذا الشخص هو أنا. أعتقد أنه لن ينسى

لقاءنا الأخير في فرنسا، وعلى الرغم من أنه قد أَفلَت منّي فيه، فقد سعى بكلّ قوَّةٍ وبأقصى سرعةٍ مُمكنةٍ للهروب إلى إنجلترا، ولم تطأ قدَماه ثانيةً الأراضي الفرنسية بينما كنتُ على رأس فريق المُحقِّقين الفرنسيين. لقد كان وغدًا مُثقَّفًا؛ إذ تخرَّج في جامعة تورينو، وكان يَتحدَّث الإسبانية والفرنسية والإنجليزية إلى جانب لُغته الأم. وقد جعلَه تعليمُه وثقافته شخصًا خطيرًا جدًّا عندما استغلَّ مهاراته في ارتكاب الجرائم.

لقد أصبحتُ أعرف الآن طريقة فيليني في ارتكاب الجرائم، سواء جرائم القتل أم سرِقة المنازل، تمامًا كما أعرِف توقيعي على قِطعةٍ من الورق الأبيض، وبِمجرَّد أن رأيتُ جُثمان الرجُل المقتول في مُتنزَّه جرينيتش بارك، كنتُ متأكدًا من أن فيليني هو القاتل. كانت السُّلطات الإنجليزية آنذاك تنظُر إليَّ نظرة ازدراءٍ يُغلِّفها شيء من الودِّ والتسامح، تعامل معي المُفتِّش ستانديش تعامُلَ شخصٍ تُرك في مُتناول يَدِه حبلٌ طويل حتى يَشنقَ به نفسه. بدا أنه كان يظنُّ أنني سريعُ الانفعال؛ لذا كان يَستخدِم معي عباراتٍ للتهدئة كما لو أنني كنتُ طفلًا نَزِقًا يَجِب تهدئته، وليس شخصًا عاقلًا مُكافئًا له، يحتاج لمناقشته وإقناعه. وفي مواقف عديدة، كنتُ أتوصَّل بسهولةٍ إلى الحقائق، في حين كان يبقى هو قابِعًا في غَياهِب الجَهل، وعلى الرغم من أن هذا التوجُّه القائم على التقليل من قَدْرِه للتعامُل بلُطفٍ مع شخصٍ من الواضح أنه يراه مجنونًا أرعنَ كان مُثيرًا بشدَّةٍ لسُخطي، فأنا مع ذلك سعيد للغاية؛ لأنني استطعتُ تمالُك أعصابي معه. لكن اتَّضح لي أنَّ مِن المُستحيل أن أتجاوَزَ تَحيُّزَه الشديد؛ فلَطالَما افترض أنني شخصٌ مُتقلِّب وأهوج؛ لذا لم أستطع إثبات أنني مُفيد له — على أيِّ نحوٍ — في مهامِّه الشاقَّة.

كانت قضية فيليني آخر مُحاولاتي لكسب ودِّه. بدا المُفتِّش ستانديش في أكثر حالاته المِزاجية لُطفًا عندما مَثُلْتُ بين يديه، وكان ذلك بالرغم من أن مأساة مُتنزَّه جرينيتش كان يتردَّد صداها في جميع أنحاء لندن، دون أن يكون لدى

الشرطة أدنى فكرةٍ عن الجريمة أو مُرتكبها. استشففتُ من ابتسامة المُفتِّش ستانديش الكريمة أنني أنفعِل بعضَ الشيء حين أتحدَّث إليه، وربما استخدمتُ العديد من الإيماءات التي بدَتْ عديمة المَعنى بالنسبة إلى رجُلٍ ضخمٍ يُمكن أن أصِفَه بأنه عديم العاطفة وبطيء الكلام ولا يحرِّك يدَه، كما لو أنَّ عباراته هي خُلاصة حكمة السنين.

صحتُ قائلًا:

- أيها المُفتِّش ستانديش، هل من سُلطتكم أن تَقبض على شخصٍ عند الاشتباه فيه؟

قال:

- بالطبع، هذا من سُلطتنا، لكننا يجبُ أن نتأكَّد من وجود حالة الاشتباه قبل أن نقبِض عليه.

قلت مُتعجِّبًا:

- ثِق بي. الشخص الذي ارتكب جريمة القتل في مُتنزَّه جرينيتش بارك مُجرِم إيطالي يُدعى فيليني.

أعطيتُهُ عنوان المكان الذي من المُفترَض أنه كان يعيش به، مع توجيه بعض التحذيرات بشأن طبيعته المُراوِغة. قلت له إنني استطعتُ الإمساك به ثلاثَ مرَّات، لكنه نجح في تلك المرَّات الثلاث في الهرب منِّي. لكنني شعرتُ بعد ذلك بأن المُفتِّش ستانديش لم يُثمِّن أيَّ كلمةٍ قلتُها.

سألني المُفتِّش ببطء:

- ما دليلُك على ارتكاب هذا الرجُل الإيطالي للجريمة؟

رددت: - الدليل موجود على جسَد الرجُل المقتول، لكن إذا واجهتَ فيليني بي فجأة، ومن دون أن تُعطيَه أيَّ فكرةٍ عن الشخص الذي من المُفترَض أن يُقابِله، فسوف تحصُل على الدليل من شفتيه قبل أن يتمالك نفسه من اندهاشه ورُعبه.

لا بُدَّ أن شيئًا ما في ثِقَتي بنفسي قد أثَّر في المُفتِّش؛ لأنه أصدَر أمر الاعتقال. والآن، وأثناء غِياب الشرطيّ الذي جرى إرساله للقَبض على فيليني، شرحتُ للمفتِّش بالكامل تفاصيل خُطتي. فعليًّا، لم يكن يستمِع إليَّ؛ إذ كان رأسه مُنكبًّا على دفترٍ اعتقدتُ أنه كان يدوِّن فيه المُلاحظات التي أقولها، لكن عندما انتهيتُ من كلامي، استمرَّ في الكتابة كما كان يفعل قبل ذلك؛ لذا رأيتُ أنني قد بالغتُ في تقدير مكانتي دون داعٍ. مرَّ أكثر من ساعتين قبل عَودة الشرطيّ وفي قبضته المُتَّهم الإيطالي الذي كان يرتعِد خوفًا. التفتُّ بسرعةٍ قُبالَته وصِحتُ فيه بنبرة تهديد:

- فيليني! انظر إليَّ! أنت لا تستطيع العَبَث مع فالمونت لأنَّك تعرِفه جيدًا! ما أقوالك فيما يتعلَّق بحادثةِ القتل التي جَرَتْ في مُتنزَّه جرينيتش بارك؟

أؤكد لكم أن المتهم الإيطالي انهار وكان على وشكِ السُّقوط تمامًا على الأرض لولا وجود الشرطيَّين اللذين كان يُمسك كلٌّ منهما إحدى ذراعيه بيدَيه. اعتلى وجهَه شحوبٌ شديدٌ، وبدأ يَتلعثَم وهو يَسرِد اعترافه عندما حدَث هذا الأمر العجيب الذي لا يُصدَّق وقوعه في فرنسا؛ فقد أشار المُفتِّش ستانديش إليه بالتوقُّف عن الكلام.

وقال بِجديَّةٍ مُحذِّرًا:

- لحظةً واحدة! تذكَّر أن كلَّ ما تقوله سيُستخدَم ضدَّك!

أخذتْ عينا الرجل الإيطالي السَّوداوان السريعتان والصغيرتان والبرَّاقتان تنتقلان من ستانديش إليَّ وبالعكس. وفي لحظة، أدرك ذهنه المُتوقِّد الموقف. مَجازيًّا، جَرَت تَنحِيَتي جانِبًا؛ فأنا لم أكن هناك بأيِّ صِفةٍ رسمية. وقد أدرك على نحوٍ خاطِف العقليَّة البلهاء التي كان عليه التَّعامُل معها. فأغلقَ فمه بسرعةٍ وكأنه مَصيَدة من الصُّلب، ورفض أن ينبس بِبِنتِ شَفة. بعد فترةٍ قصيرة، أُطلق سراحه؛ إذ لم يكن هناك أيُّ دليلٍ ضدَّه. وعندما توافر في النهاية دليل إدانته الكامل في أيدي السُّلطات البريطانية البطيئة، كان هذا

الرجُل الشديد الذَّكاء آمِنًا في سلسلة جبال الأبينيني، واليوم هو يقضي حُكمًا بالسجن المؤبَّد في إيطاليا لاغتياله سيناتورًا لا أذكر اسمه.

هل هناك أيُّ عجبٍ إذن في شعوري بالإحباط واليأس لوجودي وسط هؤلاء؟ لكن هذا كان في الأيام الأولى. أما الآن وبعد امتلاكي خبرةً أكبر بالإنجليز، فقد تغيَّر الكثير من آرائي المبدئية عنهم، لقد ذكرتُ كلَّ هذا لأشرح: لماذا، كمُحقِّقٍ خاص، كنتُ مُعتادًا على فعل ما لم يكن يجرؤ أيُّ مسئولٍ إنجليزي على فعله؟ إن البلد الذي يُرسِل شرطيًّا، دون حتى أن يكون معه مُسدَّس يَحميه، للقبض على مُجرمٍ عتيد في أخطر أحياء لندن، لا يُمكن فَهمُه من جانب أيِّ من مواطني فرنسا أو إيطاليا أو إسبانيا أو ألمانيا. وعندما بدأتُ أنجَح كمُحقِّقٍ خاصٍّ في لندن وأدَّخِر المال الكافي لإتمام مشروعي، قرَّرتُ ألا يُعيق عملي تلك الرَّخاوة غير المُبرَّرة للإنجليز تجاه الأشخاص المُتهمين؛ لذا غيَّرتُ تصميم شَقَّتي، وجعلتُ في وسطِها غرفةً مُظلِمةً مُحكمةً كأيِّ زنزانةٍ من زنازين سجن الباستيل. كانت مساحة تلك الغرفة ١٢ قدمًا مُربَّعة، ولم تكن تحتوي على أيِّ أثاثٍ سوى عددٍ من الأَرْفُف ومِرحاض في أحد الأركان وفراشٍ صغير. كانت تجرى تَهوِيَتها من خلال فتحتَي تَهويةٍ في وسط السقف، تعمل في إحداهما مروحة كهربائية عندما يَشغَل أحد الغرفة؛ بحيث تُخرِج الهواء الفاسِد عبر هذه الفتحة، وتُدخل الهواء النظيف عبر الفتحة الأخرى. كان مدخل تلك الزنزانة يُفضي إلى غرفة نومي، وما كان أدقُّ تفتيشٍ ليَكشِف مكان بابها الذي كان من الصُّلب الشديد، وكان يُفتَح ويُغلَق باستخدام زرٍّ كهربائيٍّ كان مَخفيًّا جُزئيًّا بفِعل ظهر سريري. وحتى إذا جرى اكتشافه، فما كان سيكشِف عن شيء؛ لأن من شأن إدارته مرَّةً واحدة أن تُضيء الضوء الكهربائي الموجود في ظهر السرير، وإدارته مرةً ثانية ستُغلِق هذا الضوء، وكان هذا سيحدُث ما دام الزرُّ يُدار جهةَ اليمين. لكن إذا أدرته ثلاث مرَّاتٍ ببطءٍ جهةَ اليسار، فإن الباب المصنوع من الصُّلب كان سينفتح. كانت وَصْلَته مخفيَّةً تمامًا وراء

كسوة الجدار. وقد جعلتُ الكثير من المُجرمين يعودون لصوابهم بين الجدران المَنيعة لتلك الغُرفة الصغيرة.

إن من يعرفون قواعد البناء في لندن سيتعجَّبون، كيف أمكنني خِداع المُفتِّش الحكومي أثناء بناء هذا الجزء من سجن الباستيل في وسط مدينة لندن الحديثة. كان هذا أبسطَ شيءٍ في العالم. إن حريَّة المُواطِن هي القاعدة الكبرى الأولى لدى الشعب الإنجليزي؛ ولهذا السبب أُتيح لكثيرٍ من المجرمين الهرب. كنتُ أضع خُططًا لانتهاك تلك القاعدة الكبرى الأولى. ولكي أفعل هذا، استغللتُ القاعدة الكبرى الثانية للإنجليز، ألا وهي: عدم انتهاك حُرمة المَسكن. قلت لسُلطات البناء إنني رجُلٌ غنيٌّ ولا أَثِق كثيرًا في البنوك. وإنني أرغبُ في أن أبني داخِل شقَّتي خِزانةً أو غُرفةً حَصينة أضع فيها مُقتَنَياتي الغالية. بنيتُ حِينها غرفةً كتِلك التي يُمكن أن تُوجَد في أيّ بنكٍ، والعديد من المباني الخاصة في المدينة. ومن المُمكن أن يعيش في شقَّتي أيُّ مُستأجرٍ مدةَ عامٍ ولا يشكُّ أبدًا في وجود هذا السِّجن. ومن المُمكن أن تُطلِق قاطِرة سكة حديد صافرتها داخل تلك الغرفة دون أن يَصِل أيُّ صوتٍ إلى الشُّقَقِ المُحيطة بها إلا إذا كان الباب مفتوحًا، إلى جانب السيد يوجين فالمونت، الذي يرتدي أفخم الملابس كما لو أنه لا يزال الرجُلَ الأرستقراطيَّ الباريسيَّ الذي يسكُن بالطابق العلويّ بأحدِ أفخم المباني، كان يُوجد فرنسيٌّ آخَر في لندن يَجب عليَّ أن أقدِّمه لكم، ألا وهو: البروفيسور بول دوشارم الذي كان يعيش في غُرفةٍ قذِرة بأحد الشوارع الخلفيَّة في حيّ سوهو، وهو الحيُّ الأرخصُ والأقلُّ إقبالًا من قِبل الناس. يُثني فالمونت على نفسه بأنه لم يَبلُغ بعدُ مُنتصف العمر، لكن دوشارم المِسكين لا يحتاجُ إلى لِحيَته الرَّمادِيَّة الخفيفة للإعلان عن تقدُّمه في العمر. كانت تبدو على فالمونت مَظاهر الثراء والرَّخاء وكان يَتباهى بذلك. أما دوشارم، فكان يرتدي ملابس رَثَّةً وتبدو عليه مظاهر الفقر اليائس. لقد كان يجرُّ قدميه في الشارع في خنوع وخضوع؛ إنه شخص من بني وطنك لا

يُمكن أن تفتخِر به. هناك العديد من الفرنسيّين المُستعِدّين لإعطاء دروسٍ أخلاقية بِلُغَتهم مُفادها أنه يُمكن لأيٍّ منهم أن يَعيش حياةً فقيرةً ويستطيع تحسين ظروفه، لكنك لن ترى أبدًا فالمونت الأنيق يسير جنبًا إلى جنبٍ مع دوشارم المُعدِم.

قد تتعجَّب قائلًا: - آه! فالمونت في رَخائه نَسِيَ هؤلاء الأقلَّ حظًّا من بني جلدته. أستَميحكم عُذرًا يا أصدقائي. ليس الأمر كذلك؛ ففي الواقع، أعترف لكم أن فالمونت المُتأنِّق ودوشارم الرثَّ الملابس هما شخصٌ واحد. وهذا هو السبب وراء عدم تنزُّههما معًا. بالطبع لا يتطلَّب الأمرُ أيَّ براعةٍ تمثيلية لِلَعِب دور دوشارم البائس؛ لأنَّني عندما قَدِمت لأول مرةٍ إلى لندن، كنتُ أصارعُ الفقر في تلك الغُرفة البائسة، وكنتُ أنا من سمَّر على بابها لافتةً مطبوعة مكتوبًا عليها - البروفيسور بول دوشارم، أستاذ اللغة الفرنسيَّة . لم أتخلَّ قطُّ عن تلك الغرفة، حتى عندما أصبحتُ غنيًّا وانتقلتُ لشقَّتي الفخمة، تلك التي تَشتمِل على غُرفة الرُّعب الخفيَّة التي لا تعلم السُّلطات الإنجليزية عنها شيئًا. لم أتخلَّ عن غرفةِ حيّ سوهو بالأساس للسبب التالي: لو عُرفتْ حقيقة بول دوشارم، لكان سيُعتبَر شخصيةً خطيرة، لكن كان من الضروريّ أحيانًا بالنسبة إليَّ تقمُّصُ تلك الشخصية؛ فلقد كان عضوًا في إحدى المُنظمات اللاسُلطوية الدولية. كان المقرُّ الحقيقيُّ لتلك المُنظمة الشريرة هو لندن، وقد لَعَنَّا نحن المسئولين العاملين مع أجهزة الخِدمة السرِّيَّة الأوروبية أكثرَ من مرَّةٍ تَهاونَ الحكومة البريطانية الذي سمح لمجموعة مَصَّاصي الدماء هذه بالوجود على أراضيها دون أن يَجريَ المِساس بها عمليًّا. أعترف أنني قبل أن أعرِف جيّدًا كما أعرِفُهم الآن كنتُ أظنُّ أن هذا التهاوُنَ كان راجِعًا لأنانيَّةٍ شديدة؛ لأن اللاسُلطويّين لم يتسبَّبوا قطُّ في أيّ مُشكلاتٍ في إنجلترا. إن إنجلترا هي المكان الوحيد في أوروبا الذي لا يُمكن فيه للاسُلطوي أن يُسجَن إلا إذا كان هناك دليل ضِدَّه يجعله يخضع لمُحاكمةٍ في جلسةٍ علنيَّة. يَستغلُّ اللاسلطويون هذه

الحقيقة؛ فتُدبَّر الخُطط في لندن وتُنفَّذ في باريس أو برلين أو بطرسبرج أو مدريد. أُدركُ الآن أن تلك الطراوة من جانب الحكومة البريطانية لا ترجِع إلى مَكرِها، وإنما لتمسُّكِها غير المُبرَّر بقاعِدتها الكبرى - حرية المواطن . طالبت فرنسا أكثر من مرةٍ بتسليم مواطنيها من اللاسُلطويّين، لكنَّ طلباتها كانت دائمًا ما تُقابَل بالسؤال التالي:

- ما دَليلُكم؟

أعرف حالاتٍ عديدةً كان اليَقين فيها مُطلَقًا، وأعرف أيضًا قضايا امتلَكنا فيها كذلك أدِلَّةً قانونية، لكنها أدلَّةٌ لم نجرُؤ على إعلانها على الملأ، لسببٍ أو لآخر، غير أن كلَّ هذا لم يكن له أيُّ تأثيرٍ على السُّلطات الإنجليزية. فما كان لهم أن يُسلِّموا حتى أعتى المجرمين إلا بأدلَّةٍ قانونية مُعلنة على الملأ. وحتى في حالة توافر تلك الشروط، ما كانوا ليُسلِّموا المُتَّهم إذا كانت الجريمة سياسية.

أثناء عملي مع الحكومة الفرنسية، لم يكن أيُّ جُزءٍ من مهامّي مُقلِقًا بالنسبة إليَّ أكثر من ذلك المُتعلِّق بالجماعات السرِّيَّة السياسية. بطبيعة الحال — في ظلِّ توافُر جزءٍ كبيرٍ من جهاز الخدمة السِّرِيَّة تحت إمرتي — استطعتُ الحصول على بعض المُساعدة الخبيرة، وحتى بعض المعلومات من اللاسلطويّين أنفسهم. لم أُقابل حتى الآن لاسُلطويًّا أستطيع تصديقه حتى وإن حلف بأغلَظِ الأيْمان على صحَّة كلامه. وعندما كان أحدهم يبيع معلوماتٍ حصريَّةً للشرطة، كنَّا نادِرًا ما نعرف ما إذا كان يُحاوِل فقط الحصول على بعض الفرانكات حتى لا يموت جُوعًا، أم أنه كان يُعطي لنا تفاصيلَ خاطئةً يُمكن أن تقودَنا للوقوع في فخٍّ ما. لَطالَما نظرتُ إلى تَعامُلي مع العَدَميّين أو اللاسُلطويين أو غيرهم من المُنظمَّات السرِّيَّة التي تُقدِم على ارتكاب جرائم قتل؛ باعتباره أخطرَ مُهمَّةٍ يُمكن أن يُكلَّف أيُّ مُحقِّقٍ بها. لكن من الضرورة المُطلَقة أن تعرِف السُّلطات ما يحدُث في تلك الخلايا السرية. هناك ثلاثُ طُرُقٍ للحصول على المعلومات؛ الطريقة الأولى: الحملات الدورية

على المُشتَبَه بهم، التي تتضمَّن ضبط كلِّ الأوراق التي يُعثَر عليها والتفتيش فيها. هذه الطريقة من الطرُق المُفضَّلة لدى الشرطة الروسية، لكنَّني طالَما اعتبرتُها طريقةً عديمة الجدوى إلى حدٍّ كبير؛ أولًا: لأن اللاسُلطويين، بوجهٍ عام، ليسوا بهذا الحُمق بحيث يدوِّنون مُخطَّطاتهم على الوَرَق، وثانيًا: لأنها تؤدِّي إلى أعمالٍ انتقامية؛ فكلُّ حملةٍ عادةً ما تَتلوها مَوجةٌ جديدة من النَّشاط من جانب مَن لم يُقبَض عليهم. أما الطريقة الثانية، فتتمثَّل في رَشْو أحد اللاسُلطويّين حتى يخون زُملاءه. إنني لم أجِد أدنى صعوبةٍ في إقناع هؤلاء بقَبول المال. إنهم بحاجةٍ دائمةٍ إلى المال، لكنَّني غالِبًا ما أجدُ المعلومات التي يُقدِّمونها في المُقابِل غيرَ مُهمَّةٍ أو غيرَ دقيقة. يتبقَّى معنا الطريقة الثالثة التي تكمُن في دسِّ عينٍ لنا وسطهم. إن كتيبة الجواسيس هي الأمل الأخير للمُحقِّقين. في أحد الأعوام، فقدتُ ثلاثةً من رجالي في إحدى المهامِّ المُتعلِّقة باللاسُلطويين، وكان من بين الضحايا أهمُّ مُساعِديَّ هنري بريسون. كان مصير بريسون المِسكين مِثالًا على كيفَ أنَّ رجُلًا قد يَشترِك في مُهمَّةٍ خطيرة لعدَّة شهورٍ دون أن يُصيبه أذًى ثُمَّ يرتكِب خطأً صغيرًا فيدمِّر حياته. حصل بريسون في آخر اجتماعٍ حضرَه على أخبارٍ ذات تَبِعاتٍ فوريَّةٍ وخطيرة لدَرَجة أنه بِمُجرَّد أن خرج من مكان الاجتماع اتَّجَه مُباشرةً إلى محلِّ إقامتي بدلًا من أن يَتَّجه إلى غُرفته القَذِرة في شارع فالجاري. قال حارس بَيتي إنه وصَلَ بعد الواحدة صباحًا بقليل. وبدا أنه في تلك الساعة كان يستطيع بسهولةٍ إدراكَ حقيقة أنَّ أحدَهم كان يتَتَبَّعه. ومع ذلك، بما أن ذلك الفَهْد البشري فيليني هوَ من كان يَتَتَبَّعه، فليس من الغريب أن بريسون المِسكين لم يستطع الإفلاتَ منه.

عندما وصل بريسون إلى مبنى الإمبريال الذي كانت تُوجَد به شقَّتي حينها رنَّ الجرس، وشدَّ الحارس، كما هو المُعتاد في تلك الحالة الغريبة من شِبهِ النَّوم التي يكون عليها حُرَّاس المباني أثناء الليل، السلكَ الحلقيَّ الموجود في ظهر

سريره، وفتح الباب. أغلَق بريسون بالتأكيد الباب الكبير خلفه، ومع ذلك، وفي اللحظة السابقة على فِعل ذلك، لا بُدَّ أن فيليني قد تسلَّل دون أن يلحَظه أحدٌ إلى الفِناء الداخليّ المرصوف بالحَجَر. إذا لم يتحدَّث بريسون ويُعلِن عن هُويَّته، لكان الحارس سيستفيق على الفور بالكامل. وإذا أعطاه اسمًا لم يكن يعرِفه، فما كانت النتيجة لتختلِف. ما فعله هو أن صاح بصوتٍ عالٍ: - بريسون. وحينها تمتم حارس بيتِ أشهر رئيسٍ لفريق المُحقِّقين الفرنسيِّين، فالمونت، قائلًا: - رائع! ثم عاد لنومه ثانيةً على الفور.

كان فيليني يعرِف بريسون جيدًا، ولكن تحتَ اسم ريفنسكي، وبوَصفه روسيًّا مَنفيًّا. كان بريسون قد قضى سنواتِ عُمُره الأولى في روسيا، وكان يتحدَّث الروسيَّة كمُتحدِّثها الأصليّين. وفي اللحظة التي نطقَ فيها بريسون اسمه الحقيقيَّ كان قد أعلَن عمَّا يُبرِّر قتلَه. تتبَّعه فيليني إلى بَسطة الدَّرَج الأولى — كانت شقَّتي في الطابق الثاني — وهناك وَضع بصمَته على الرَّجُل التَّعيس، التي تمثَّلت في طعنةٍ سريعةٍ لأسفلَ، من خِنجرٍ طويلٍ ورفيعٍ وحاد، دخلَتْ جسمَه تحت الكَتِفَين واخترقَتِ القلب. إن مَيزة تلك الضربة الرهيبة هي أنَّ الضحيَّة يسقُط ميِّتًا على الفور، على الأرض تحتَ قَدمَي قاتله مِن دون أن يتألَّم. ويكون الجُرْح عبارةً عن علامةٍ زرقاء صغيرةِ الملاحظة، وهي نادرًا ما تنزِف حتَّى. كانت تلك هي العلامة التي رأيتُها على جسَد ماري من مارسيليا، وبعد ذلك على شخصٍ آخر في باريس إلى جانب بريسون المِسكين. وكانت هي العلامة التي وُجدَت على الرجُل المقتول في مُتنزَّه جرينيتش بارك. طعنة من الخَلْف، دائمًا تحت لَوح الكَتِف الأيسر تمامًا. يزعُم رِفاق فيليني أن هناك قدْرًا من النُّبل في أفعاله؛ بمعنى أنه كان يَسمَح للخائن بأن يُبرِّئَ ساحته قبل أن يُوَجِّه له الطعنة. ويؤسِفني أن أنزع عن فيليني هذا القدْرَ اليَسير من الاستحقاق، لكنَّ السبب وراء اتِّباعه بريسون إلى الفِناء الداخلي هو أن يُعطيَ نفسه الوقت الكافيَ للهرَب. لقد كان يعرف على نحوٍ دقيقٍ طريقةَ تصرُّف الحارس. وكان

يعرف أن جُثَّة بريسون ستبقى مُلقاةً على الأرض حتى الصباح، كما حدث بالفعل، وكان هذا سيُتيح له عدَّة ساعاتٍ يستطيع فيها الهرب. كان هذا هو الشخص الذي منعه القانون الإنجليزي من أن يُدين نفسه! يا له من شعب! يا له من شعب!

بعد مَوت بريسون التراجيدي، قررتُ ألَّا أضع المَزيد من رِجالي المُهِمّين في طريق اللاسُلطويين، وأن أضطلِع بنفسي بتلك المُهمَّة في أوقات راحتي. لقد أصبحتُ شَغوفًا بشدَّةٍ بالأعمال السرِّيَّة للمُنظمة اللاسُلطوية الدولية. انضممتُ إلى تلك المُنظمة تحت اسم بول دوشارم، البروفيسور المُنادي بالآراء التقدُّميَّة، التي بسببها فَقدَ وظيفته في نانت. في حقيقة الأمر، كان هناك شخص بالفعل يُدعى بول دوشارم، وهو الذي فقد وظيفته، لكنه أغرَق نفسه في نهر اللوار بمدينة أورليان، كما تُوضِّح السجلَّات. لقد اتخذتُ الإجراء الاحترازيَّ المُتمثِّل في الحصول على صورةٍ فوتوغرافية لهذا الرَّجُل العجوز الأحمق من شرطة نانت، وتنكَّرتُ لأُشبهه. يرجع الفضل إلى تنكُّري في تعرُّف أحد الرِّفاق من نانت عليَّ باعتباري البروفيسور، وذلك في الاجتماع السنوي الذي عُقد في باريس والذي حضرتُه. وعلى الرغم من أنَّنا تحادَثنا بعض الوقت معًا، لم يشكَّ إطلاقًا في أنني لستُ البروفيسور، الذي لم يكن مَصيرُه معلومًا لأحدٍ غير شرطة أورليان. لقد ارتفع قدْري كثيرًا بين رِفاقي بسبب هذا اللقاء؛ لأنَّ الرفيق الذي كان من نانت ذكر أنني نموذجٌ للشخص المَيسور الحال الذي ضحَّى عن قصدٍ بوضعه الحَياتيّ من أجل المبدأ. بعد وقتٍ قصير من هذا الاجتماع، جرى اختياري مندوبًا لحمل رسالةٍ إلى رفاقنا في لندن، ومرَّت تلك المُهمَّة الحساسة دون مُشكلات.

هكذا ربما كان من الطبيعي عندما أتيتُ إلى لندن بعد استغناء الحكومة الفرنسية عنِّي أن أتقمَّص شخصية بول دوشارم وأحمل اسمه، وأن أزعُم عملي في مِهنة تدريس اللغة الفرنسية. إن تلك المِهنة أعطتني مَيزات عظيمة؛

فأستطيع الغياب عن شقَّتي لساعاتٍ في المرَّة الواحدة دون أن ألفتَ الأنظار إليَّ؛ لأن المُعلِّم يذهب أينما يكون التلاميذ. وإذا شاهدَني أحدُ رفاقِ اللاسُلطويين وأنا أخرج مُرتديًا ملابس رثَّةً من مبنى الإمبريال الذي يسكن فيه فالمونت، فسوف يحيِّيني بِوُدٍّ، ظانًّا أنني كنتُ آتِيًا من منزل أحد التلاميذ.

وهكذا، فقد كانت الشقة الفخمة هي المكتب الذي أستقبِل فيه زبائني الأغنياء، في حين أن الغرفة القَذِرة الموجودة في حيّ سوهو كانت — غالبًا — المكان الذي أُتِمُّ فيه المهامَّ المُوكَلةَ إليَّ من جانب المُنظَّمة.

أنتقل الآن في واقع الأمر إلى فترةٍ أحدث، قضيتُ فيها وقتًا طويلًا مع مندوبي المنظمة السرية، سيُذكَر أن ملك إنجلترا قام بجولةٍ زارَ فيها العديد من العواصم الأوروبية، وربما لم نفهم أو نقدِّر بالكامل بعدُ نتائجَها البعيدة فيما يتعلَّق بالسلام. لقد كانت زيارته لباريس بداية الاتفاق الوِدِّي الحالي. ولا أُبالغ إذا قلتُ إنَّ تلك الزيارة الرسمية القصيرة للعاصمة الفرنسية كانت مَدعاةً لقلقٍ كبير من جانب حكومة بلدي وحكومة البلد الذي كنتُ أعيش فيه. إن اللاسُلطويّين يُعادون كلَّ الحكومات، ويَتمنَّون رؤيتَها مُدمَّرةً جميعًا، بما فيها حكومة بريطانيا العُظمى، كانت مُهمَّتي فيما يتعلَّق بزيارة المَلِك إدوارد لباريس غير رسميَّةٍ على الإطلاق. أكرَمني بالزيارة في شقَّتي أحدُ النُّبَلاء الذي سعدت جدًّا في واقعةٍ سابقةٍ بحلِّ لُغزٍ صغير كان يُزعِجه. وذلك قبلَ نَحوِ أُسبوعَين من زيارة المَلِك للعاصمة الفرنسية. أعرف أنكم ستعذُرونَني إذا لم أذكُر اسم هذا النَّبيل. أدركتُ أن زيارة الملك المُنتظرَة كانت تلقى رفضه. وسأل ما إذا كنتُ أعرِف شيئًا أو يُمكِن أن أكتشف شيئًا عن الأغراض التي تُحرِّك جماعات اللاسلطويين الباريسية وموقفهم تجاه الزيارة المَلَكيَّة التي أصبَحتِ الآن الموضوعَ الرئيسي للصُّحف. قلتُ له إنني سيكون بإمكاني في خلال أربعة أيامٍ أن أقدِّم له تقريرًا كاملًا عن الموضوع. فانحنى لي ببرودٍ وتركَني. وفي مساء اليوم الرابع، حَظِيتُ بِشَرَف انتظار سيادته في قصره بمنطقة وست إند بلندن.

بدأت حديثي إليه قائلًا:

- أتشرَّف بأن أقول لسيادتكم إن اللاسُلطويّين الباريسيّين مُنقسِمون بعض الشيء في آرائهم حِيال زيارة جلالته المُنتظرَة لتلك المدينة. إن قلّةً منهم — صحيح أن عدَدَها لا يكاد يُذكر لكنها مُهمَّة نظرًا لتطرُّف أفكارها — تحاول...

قاطعني النبيل، ببعض الحِدَّة في نبرة الصوت قائلًا: - عُذرًا، هل سيُحاوِلون الاعتداء على المَلِك أم لا؟

ردَدتُ بما أعتقد أنه أسلوبي المُهذَّب المُعتاد، رغم مُقاطعته الفظَّة:

- لا سيادتكم. هم لن يُحاوِلوا إيذاءَ جلالته، وسببُ عدَمِ تحرُّكهم...

قاطعني جنابه بِغلظةٍ قائلًا: - أسبابهم لا تُهمُّني. هل أنتَ مُتأكِّد ممَّا تقول؟

- تمام التأكد سيادتكم.

- هل تُوجَد حاجة لاتِّخاذ أيّ احتياطات؟

telegram
@soramnqraa

- على الإطلاق سيادتكم.

ختَمَ الرجُل الحوار بفظاظةٍ قائلًا:

- رائع للغاية. أخبِر سكرتيري الخاصَّ الموجود في الغُرفة المُجاوِرة بالمُقابل الذي تُريده لقاء هذه المُهمَّة وسيُعطيك شيكًا بالمبلغ. وهكذا انتهتِ المُقابلة.

عساني أن أقول إنه مِن واقِع تعامُلي مع كِبار الشخصيَّات في البلدين، وتَلقّي تلك الحَفاوَةِ التي أنا على استعدادٍ دومًا لتقديمها، فإن شعورًا بالسُّخطِ نوعًا ما قد تَملَّكَني من جرَّاء مُعاملة هذا النبيل لي. ومع ذلك فقد انحنيتُ له على نحوٍ رسميّ بعض الشيء في صمت، وانتهزتُ الفرصة المُتاحة في الغُرفة المُجاورة والمُتمثِّلة في مُضاعفة أجري، والذي دُفع دونَ أيّ تَردُّد.

والآن، لو كان هذا النبيل قد استمَع إليَّ فقط بدلًا من أن يُقاطِعني، لكان قد استمَع إلى الكثير ممَّا قد يَستهوي الإنسان العادِي، لكن يَجِب أن أقول إن عقلَه أثناء مُحادثاتي الثلاثِ معه بدا غير مُتقبِّلٍ لكلّ الانطباعات الخارجية فيما عدا عَظَمةِ نَسَبِه، الذي أرجعه من دون أن تَشوبَه أيُّ شائبةٍ للجُزء

الشمالي من بلدي، كانت زيارة الملك بمنزِلة مُفاجأةٍ للاسُلطويين، ولم يعرفوا على وجه التحديد ما سيفعلونه حِيالها. كان الثوريُّون الباريسيون يُفضِّلون التظاهر، لكنَّ رِفاقَهم في لندن استحلفوهم ألا يقوموا بأيِّ تَحرُّكٍ لأن إنجلترا، كما أشاروا، هي الملجأ الوحيد الذي يُمكن أن يعيش فيه اللاسُلطويُّ آمنًا حتى يُتَّهم في جريمةٍ مُحدَّدة، بل والأدهى من ذلك، حين تُثبَت عليه تمامًا تلك التُّهمة، سيُذكَر أن زيارة الملك لباريس مرَّت دون أن يُعكِّر صفوَها أيُّ شيء، تمامًا كما حدَث عندما زار الرئيس الفرنسي لندن ردًّا على تلك الزيارة. على السطح ساد السلام والود، ولكن تحت السطح، كانت هناك حكومتان عُظمَيان تَغلِيان ويغمُرُهما القلق ولم يغمض لكبار المسئولين في جهاز الخدمة السرية في كلا البلدين جفنٌ لعدَّةِ ليالٍ مُتواصِلة. ونظرًا لعدَم حُدوث أيِّ - حادثة غير مُتوقَّعة ، فقد خفَّت حِدَّة اليَقظة التي كانت عليها السُّلطات في البلدَين الواقِعَين على جانبَي بحر المانش، في الوقت الذي كان من المُفترض فيه أن تتضاعف، بالنظر إلى طبيعة الخصم. فلْتحذَرْ دائمًا من اللاسُلطوي عندما يكون هادئًا؛ وانتظر ردَّ فِعله. إنه يُضايقه أن يُجبَر على عدَم التحرُّك عندما تكون هناك فرصةٌ كبيرة للظهور على الساحة العالمية. وعندما تضيع منه اللحظة المناسبة، من المُنتظَر أن يتحوَّل إلى شخصٍ - خطير ، حسب تعبير الإنجليز.

عندما أُعلن لأول مرةٍ أنه سيكون هناك مَوكبٌ مَلَكيٌّ يمرُّ عبر شوارع باريس، تمنَّى بعض المُهوِّرين المُتطرِّفين، في كلٍّ من تلك المدينة ولندن، التحرُّك، لكن كبَح جماحَهم الأعضاءُ الأكثر حِكمةً في المنظمة. فيجِب عدم افتراض أن اللاسُلطويين حِفنةٌ من المجانين؛ فهناك عقول حكيمة من بينهم، وهؤلاء القادة بالفِطرة من الطبيعي أن تكون لهم السيطرة في عالم اللاسُلطوية السري، كما سيكون الحال إذا وَجَّهوا مهاراتهم لأمورٍ في الحياة العادية. إنهم أناسٌ اتَّخذَت عقولهم، في فترةٍ ما، الوِجهة الخطأ. لكنَّ هؤلاء الأشخاص —

رغم كَبحِهم لتهوُّر المُتطرِّفين — أصابهم هلعٌ شديد عندما رأَوا إمكانية حُدوث تَقارُبٍ بين إنجلترا وفرنسا. فإذا أصبَحتْ فرنسا وإنجلترا مُتقارِبَتين كما هو الحال بالنسبة لفرنسا وروسيا، ألن يكون المَلاذ الذي وفَّرتْه إنجلترا للَّاسُلطويَّة ضربًا مِن الماضي؟ يُمكن القول هنا: إنني كنتُ أستخدِم ثِقَلي كلاسُلطوي في أثناء حضور هذه الاجتماعات مُتنكِّرًا تحت اسم بول دوشارم بالتأكيد للدَّفع باتِّجاه التهدئة. إن دَوري، بالتأكيد، لم يكن الحديث كثيرًا، ولا إبراز نفسي. ولكن في مثل هذه التجمُّعات لا يُمكن أن يبقى الفرد مُتفرِّجًا. إن حِرصي على سلامتي جعلَني لا أسعى للظُّهور قدْرَ الإمكان؛ إذ إنَّ أعضاء الجماعات المُتحزِّبين معًا ضِدَّ قوانين المكان الذي يعيشون فيه يَشكُّ كلٌّ منهم في الآخر بشدَّة، ويُمكن لكلمةٍ خرَجت دُون قصدٍ أن تُسبِّبَ كارثةً للشخصِ الذي نطَقَ بها، ربما كان هذا التحفُّظ من جانبي هو ما جَعل نصيحتي يُؤخَذ بها من قِبل النُّخبة الحاكمة؛ أو ما يُمكن أن تُطلِق عليه المجموعةَ الحاكمة للَّاسُلطويين؛ فرغم الغَرابة التي قد يبدو عليها هذا الأمر فإن تلك المُنظمة التي تَسعى بكلِّ قوَّةٍ لإسقاط كلِّ صُور القانون والنظام، كانت هي نفسها محكومةً حُكمًا صارمًا، وذلك مع انتخاب أميرٍ روسيٍّ رئيسًا لها، وهو رَجُل ذو قُدراتٍ هائلة، لكن يرجِع الفضل في انتخابه، حسب اعتقادي، إلى حقيقة أنه كان رجُلًا نبيلًا أكثر من تقدير مواهِبه الفِطرية. هناك نقطةٌ أخرى أثارتِ اهتِمامي أكثر وهي أن هذا الأمير كان يَحكُم أتباعَه الجامِحين باستخدام أسلوب الاستبداد الروسي، وليس طِبقًا للأفكار الليبرالية للبلد الذي كان يعيش فيه. عرفتُ أنه في أكثر من مرَّةٍ قد انقلَب بقوَّةٍ على رأي الأغلبية، وأخذ يَخبِط بقدمِه بعُنفٍ على الأرض، ويضرِب بقبضة يَدِه الكبيرة على الطاولة، ويُعلِن أن كذا وكذا يجِب فعلُه، مهما كانت نتيجة التصويت. وكان هذا الشيء يُنفَّذ بالتأكيد، في الفترة الأكثر حداثةً التي أتحدَّثُ عنها، كان يتولَّى رئاسة اللاسُلطويّين في لندن رجُلٌ ضعيفٌ ومُترددٌ، وقد خرج أتباعُه بعضَ الشيء عن

السيطرة. في الأزمة التي كانت تواجِهنا، تحسَّرتُ على القبضة الحازِمة والخَبطةِ القويَّة لحذاء الزعيم الروسيّ العنيد. تحدَّثتُ فقط مرةً واحدة هذه المرَّة، وطمأنت مُستمعيَّ بأنه لا يُوجَد شيء يخافونه من التَّقارُب المُنتظَر للبلدين. قلتُ إن الإنجليز مُتمسِّكون بشدَّةٍ بأفكارهم الغريبة فيما يتعلَّق بحريَّة المُواطن وضرورة وجود دليلٍ قانوني مُثبتٍ لإدانته، بحيث لا يُمكن أبدًا أن نجِدَ رفاقنا يَختفُون على نحوٍ غامضٍ من إنجلترا كما حدَث في دُول أوروبا الأخرى، رغم القلق المُتصاعِد أثناء الزيارات المُتبادَلة بين الملك والرئيس، أعتقد أنه كان بإمكاني حَملُ الجماعة الإنجليزية على الاتفاق معي في رأيي، إذا كانت اللقاءات الدولية ستنتهي عند هذا الحد. لكن بَعدَ أن أُعلنَ أن أعضاء من البرلمان الإنجليزي كانوا سيلتَقون مع أعضاء من المجلس التشريعي الفرنسي، انزَعجَتِ الجماعة الفرنسية. وعندما لم يُنْهِ هذا المؤتمر الاتفاق بين البلدين، بل مَهَّد فقط الطريق لاجتماع رجال الأعمال من كلا البلدين في باريس، أرسل اللاسُلطوِيُّون الفرنسيون مندوبًا إلينا، وهو الذي ألقى كلمةً هوجاء علينا ذات ليلة، وظلَّ يُلوِّح طوال الوقت بالعلَم الأحمر. أثار هذا كامل سُخطنا وتذمُّرنا بِجُنون؛ فقد اتَّهم المُتحدِّث الفرنسيُّ — عمليًّا — الجماعة الإنجليزية بالجُبن، وقال: نظرًا لأنهم غير مُعرَّضين لأيّ تحرُّشٍ أو مُضايقةٍ من جانب الشرطة الإنجليزية، فإنهم لا يُبدون أيَّ تعاطُفٍ مع رفاقهم في باريس المُعرَّضين في أيّ وقتٍ للاعتقال الفوريّ والتعذيب من خلال الاستجواب القاسي في أماكن غير معلومة. إن هذا التقارُب الإنجليزي الفرنسي يجِب نسْفه فورًا بالديناميت. كان اللاسُلطوِيُّون مُصمِّمين على ذلك. وعلى الرغم من أنهم كانوا يرغَبون في تعاون إخوانهم في لندن، فإن المُتحدِّث قال إنه لم يحمِل معه تأكيدًا بهذا التعاون؛ فإن باريس ستتصرَّف بمُفردها، كان من شأن الحاكم الروسيّ المُستبدّ للجماعة الإنجليزية أن يَستخِفَّ بتلك الخُطبة العَصْماء من جانب مندوب الجماعة الفرنسية، لكن للأسف، لم يَعُد موجودًا، وأدار

الرئيس الضعيف تصويتًا حاشِدًا لصالح استخدام القوَّة وانتهى الأمر بقَبوله. وأخذ المندوب الفرنسي معه — وهو عائد إلى باريس — الموافقةَ الجماعيَّة للرِّفاق الإنجليز، التي أتى إلى لندن ساعِيًا إليها. إن كلَّ ما طُلِب من الجماعة الإنجليزية هو الترتيب لتهريب الشخص الذي سيُلقي قنبلةً وسط الزائرين الإنجليز، والإخفاء الآمن له، وبعد رحيل الخطيب المجنون، اختِرتُ أنا، وقد تملَّكني فزَعٌ شديد، لترتيب النقل الآمن والإيواء المُستقبلي للشخص الذي سيَرمي القنبلة. ليس من المُعتاد في دوائر اللاسُلطويّين أن يَرفُض أيُّ عضوٍ أيَّ مهمَّةٍ يُعهَد بها إليه من خلال تصويت زملائه؛ فهو يعرف البديل لهذا الرفض، ألا وهو الانتحار. وإذا رفَض المُهمَّة ولم ينتحِر، فإن مُشكلته ستُحل؛ حيث سيحلُّها فيليني الإيطالي بقتله بالطريقة التي قَتَل بها مُساعدي المِسكين بريسون؛ لذا قبلتُ المُهمَّةَ المشئومة في صمتٍ وتسلَّمتُ من المسئول المالي الأموال اللازمة لتنفيذها.

أدركتُ لأول مرَّةٍ منذُ انضمامي للمنظمة اللاسُلطويَّة قبل عدَّة سنواتٍ أنني في خطرٍ حقيقي؛ فخطوةٌ واحدة خاطئة أو كلمةٌ واحدة غير مقصودة قد تُنهي مَسيرة يُوجين فالمونت، وفي الوقت نفسه تُنهي وجود بول دوشارم، معلم اللغة الفرنسية الهادئ المسالم. أُدرِك تمام الإدراك أنهم يجِب أن يتبعوني؛ ففي اللحظة التي تسلَّمتُ فيها الأموال من جانِب المسئول المالي، سأل المندوب الفرنسي عن المَوعد الذي سأكون فيه في باريس. كان يريد أن يعرِف تلك المعلومة حتى تُوضَع كل الموارد الخاصة بجماعتهم تحتَ تصرُّفي. ردَدتُ بهدوءٍ بأنني ليس بإمكاني على وجه التحديد ذِكر اليوم الذي سأترُك فيه إنجلترا؛ فهناك مُتَّسع من الوقت، حيث إن مُمثِّلي رجال الأعمال القادمين من لندن ما كانوا ليَصِلوا إلى باريس إلا قبلَ أسبوعين آخرين. كنتُ معروفًا على نحوٍ جيِّدٍ لغالِبية الجماعة الفرنسية، وكنتُ سأَمثُل بين أيديهم في أول أيام وصولي لباريس. أظهر المندوب الفرنسي كلَّ الحماس الذي يُبدِيه أيُّ عضوٍ جديد،

وبدا غيرَ سعيدٍ بغموضي، لكنَّني لم أُغيِّر طريقي ولم أعبأ بعدَم رِضاه. إن هذا الشخص لم يكن معروفًا شخصيًّا لي، ولم أكن معروفًا له، لكن إن جاز لي أن أقول ذلك، فقد كان كلُّ أعضاء الجماعة الإنجليزية الباقين لديهم فكرة جيدة عن بول دوشارم، لقد تعلَّمتُ درسًا مُهمًّا في قضية قلادة المَلِكة، التي أدَّت إلى تسريحي من قِبل الحكومة الفرنسية. لقد تعلَّمتُ أنك إذا توقَّعتَ أن يتبعك أحد، فمن الأفضل دائمًا أن تترُك خَيطًا يَتبعه من يتبعك؛ لذا قلتُ أمامهم بنبرةٍ حواريَّةٍ مُنخفِضة:

- أريد أن تتركوا يوم الغدِ بالكامل لي؛ فأنا يجِب أن أُعلِم تلاميذي بغيابي. وحتى إذا تركَني تلاميذي، فلن يُهمَّ الأمر كثيرًا؛ فأنا أستطيع على الأرجح الحصول على آخرين. لكن المُهم هو عملي السكرتيري مع السيد فالمونت في مبنى الإمبريال. إنني على وَشكِ الانتهاء من ترجمة كتابٍ له من الفرنسية إلى الإنجليزية، وغدًا يُمكن أن أُكمِل العمل وأحصُل على إذنٍ منه بالحصول على إجازةٍ مُدَّتُها أسبوعان. إن هذا الرجل، الذي من بني جلدتي، هو الذي وَفَّرَ لي عملًا منذ أن قَدِمتُ إلى لندن. إنه هو المصدر الأساسي لدخلي، ولولا رعايته لي، لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل؛ فأنا لا أرغب فقط في عدَم إثارة غضَبه، وإنما أيضًا أتمنَّى أن يَستمِرَّ عملي السكرتيري معه عندما أعود للندن.

سَرَت هَمهَمة بالموافقة حِيال ذلك؛ فمن المُتَّفق عليه بوجهٍ عامٍّ أنه يجِب عدَم التدخُّل عندما يتعلَّق الأمر بمصدَر دخل العضو، إذا كان ذلك مُمكِنًا. إن اللاسُلطويين ليسوا أُناسًا شديدي الفقر، كما يَظنُّ مُعظم الناس؛ فالكثير منهم ظروفهم المَعيشية مُمتازة، ويشغَل بعضهم مناصب تحتاج إلى أمانةٍ كبيرة، ونادِرًا ما يخونونها، ومن المعروف أن من واجب العضو — ليس تجاه نفسه فحسب، بل أيضًا تجاه المنظمة — أن يكسب كلَّ المال الذي يَستطيع كسبه؛ ومن ثَمَّ يقلُّ احتمال لُجوئه إلى صندوق الإعانات. إن هذا الاعتراف الصريح باعتِمادي على السيد فالمونت جعل من المُستحيل تمامًا على أيٍّ من

الحاضرين المُستمِعين إليَّ أن يشُكَّ في أن فالمونت نفسه هو من يتحدَّث إليهم في اجتماعهم السِّرِي، ألحَّ المندوب الفرنسيُّ الفضوليُّ قائلًا: - إنك إذن سوف تأخذ القطارَ الليليَّ المُتَّجِه غدًا لباريس. أليس كذلك؟

- بلى ونعم. إنني سأستقلُّ القطار الليلي الذي ستكون وِجهته باريس، ولكن ليس من مَحطة تشارينج كروس أو فيكتوريا أو ووترلو؛ فأنا سوف أسافر في القطار القارِّي السريع الذي سوف يُغادِر في الثامنة والنصف من محطة ليفربول ستريت إلى محطة هاربتش، ثم أعبُر لِمحطة هوك أوف هولاند، ومن هناك سأسافر إلى باريس عبر هولندا وبلجيكا. إنني أرغَب في استكشاف هذا الطريق باعتِباره طريقًا مُمكنًا لهروب رفيقنا؛ فبعد انفجار القنبلة، ستكون محطَّات كاليه وبولوني وديبب وهافر مُراقبةً عن كثَب. إنني على الأرجح سأجلِبُه للندن عن طريق أنتويرب وهوك أوف هولاند.

إن تلك التوضيحات الوِديَّة كانت مُتوافقةً بالكامل مع ما هو معروفٌ عن بول دوشارم من الحذَر والصراحة، لِدرَجة أنني لاحظتُ أنها تركتِ انطباعًا مُمتازًا لدى جمهوري، وهنا تدَخَّل الرئيس واضعًا حدًّا لأيِّ استجوابٍ آخر قد يحدُث، وقال: إن الجميع لديه ثِقةٌ تامَّةٌ في حِكمة السيد بول دوشارم وحُسن تصرُّفه، وإن المندوب الفرنسي يستطيع إخبار رِفاقه بأن عليهم ترقُّبَ وصول المندوب الإنجليزي خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة القادِمة، تركتُ الاجتماع وتوجَّهت مُباشرةً إلى غرفتي في حيِّ سوهو، دون حتى أن أُكلِّف نفسي عَناء ملاحظة ما إذا كنتُ مُراقبًا أم لا. وهناك قضيتُ الليلة بالكامل، وفي الصباح غادَرتُ حيَّ سوهو في شخصية دوشارم، بِلحيةٍ رَمادية وكَتِفين مَحنيَّين، وسرتُ غربًا باتِّجاه مبنى الإمبريال وركبتُ المِصعد لأعلى. وعندما وجدتُ المَمَرَّ خاليًا، تسلَّلتُ إلى شقَّتي. ثم غادرتُ شقَّتي مُسرعًا في الساعة السادسة مرَّةً أخرى في شخصية بول دوشارم. لكنَّني هذه المرَّةَ كنتُ أحمِل تحتَ ذراعي رُزمة أوراقٍ ملفوفةً بالورق البني، وتوجَّهت مُباشرة إلى غُرفتي في حيِّ سوهو. لاحقًا، ركبتُ

حافِلةً وأنا ما زِلتُ أحمِل لفَّتي المُغَطَّاة بالورق البني، ووصلتُ محطة ليفربول ستريت وكان لديَّ مُتَّسع كبير من الوقت قبل وصول القطار القاري. ومن خلال اتِّفاقٍ خاصٍّ بسيطٍ مع المُحصِّل، حجزتُ مقصورةً لنفسي، على الرغم من أنني حتى لحظة مُغادرة القطار للمحطة لم أكن مُتأكدًا إلا من أنني بعدَ كلِّ شيءٍ قد أكون مُجبرًا على السفر إلى محطة هوك أوف هولاند. فلو أصرَّ أحدُهم على الدخول إلى مقصورتي، لكان سيتعيَّن عليَّ عبور بحر المانش في تلك الليلة. كنتُ أعلم أنهم يتبعونَني من حيِّ سوهو إلى المَحطَّة، وأن الشخص الذي يتبعني على الأرجح سيذهب حتى محطة هاريتش حتى يراني على القارب، وليس من المؤكد إن كان سيركب معي القارب أم لا. لقد اخترتُ هذا المسار لأننا ليس لنا رِفاق في هولندا؛ إن أقرَب رفاقٍ لنا موجودون في بروكسل، ولو كان هناك وقت، لكانت الجماعة هناك سيُطلَب منها أن تراقِبَني. لكن لم يكن هناك وقتٌ لإرسال رسالة، واللاسُلطويون لا يَستخدِمون أبدًا التلغراف، خاصةً في نطاق القارَّة الأوروبية، إلا في حالات الضرورة القُصوى؛ إذ إنهم لو أرسلوا وصفًا لي بالتلغراف إلى بروكسل، فلن يكون ثَمَّةَ احتمال أن أُراقَب من قِبل أحد اللاسُلطويين فحسب، وإنما من قِبل أحد أفراد قوَّات الشرطة البلجيكية كذلك، لم يتوقَّفِ القطارُ القاريُّ السريع المُنطلِق في الساعة الثامنة والنصف بين محطتَي ليفربول ستريت وباركستون كواي، وكان من المُفترض أن يصِل قبلَ العاشرة بثلاث دقائق. أعطاني هذا فرصة ساعةٍ ونصف كي أُغيِّر ملابسي. كَوَّرتُ ملابس البروفيسور العجوز الفقير، القِطعة تلو الأخرى، وقذفتُ كلًّا منها عبر النافِذة المفتوحة، بعيدًا في المُستنقَعات التي كنَّا نمرُّ بها بسرعةٍ شديدة في ظلام الليل الحالِك. استقرَّ المِعطف والبنطلون والصِّديري في مُستنقعاتٍ مُنفصلة يفصِل بينها على الأقلِّ عشرة أميال. مزَّقتُ تمامًا اللحية الرمادية والشعر المُستعار الرمادي، وألقيتُ أجزاءهما من النافذة المفتوحة.

حرصتُ على حجزِ مقصورة في مُقدِّمة القطار، وعندما توقَّف القطار في محطة باركستون كواي، انطلق الركَّاب مُسرِعين خلفي، رغبةً منهم في ركوب الباخرة، وقد دخلتُ بسرعةٍ وسط هذا الحشد، وأنا على هيئة شابٍّ مُهندَم ونشيط بِلِحيةٍ وشاربٍ أسوَدين، وقد غطَّتْ شعري الأسود المقصوص على نحوٍ قصيرٍ جدًّا قبعة ديربي جديدة. إن أيَّ شخصٍ كان سيبحث عن بول دوشارم لم يكن سيتعرَّف عليَّ، وهكذا الحال بالنسبة لأي صديق لفالمونت.

مشيتُ بتمهُّلٍ لفندُق جريت إيسترن في باركستون كواي، وسألتُ موظَّف الاستقبال هناك ما إذا كانت قد وصلتْ حقيبة سفرٍ مُرسلةٍ إلى السيِّد جون ويلكينز في ذلك اليوم من لندن. فردَّ قائلًا: - نعم. حينها حجزتُ غرفة للمَبيت في تلك الليلة حيث إن آخر قطارٍ كان قد غادر بالفعل إلى المدينة.

في صباح اليوم التالي، استقلَّ السيد جون ويلكينز، حامِلًا حقيبةَ سفرٍ جديدةً وباهظة الثمن، قطار الساعة الثامنة إلا ثلاث دقائقَ المُتَّجِه إلى محطَّة ليفربول ستريت، التي وَصَل إليها في الساعة العاشرة والنصف، واستقلَّ عربةَ أُجرة، وذهب إلى مَطعم سافوي وتناوَل الغداء هناك مُودِعًا حقيبته في غرفة حِفظ المَعاطِف والقُبَّعات. عندما انتهى جون ويلكينز من غَدائه الرائع والذي تناوَله ببطءٍ في المَقهى الباريسي بالمَطعَم ودفَع فاتورته، لم يخرُج إلى شارع ستراند عند الساحة المَرصوفة بالمطَّاط التي دخل منها، لكنه مرَّ داخِل الفندق ونزَل السلالِم وخرَج إلى الشارع المُواجِه لمنطقة إيمبانكمنت. ثُمَّ اتَّجه يمينًا ووَصَل إلى مدخل فندق سيسل الواقع في منطقة إيمبانكمنت. جعله هذا يدخُل في مَمرٍّ طويل ومُظلم يُوجَد في نهايته مِصعد يُمكن طلبه. لم يكن المِصعد يهبِط إلى لطابق الأسفل إلا إذا استدعَيْتَه بنفسك. وفي هذا المَمرِّ المُظلِم والذي كان خاويًا، أزال جون ويلكينز اللِّحيَةَ والشارِبَ الأسودَين، وأخفاهُما في الجَيب الداخليِّ لِمعطفه، ثم ركِبَ المِصعد بعد لحَظَاتٍ قليلة مُتَّجِهًا إلى الطابق الإداري وقد تحوَّل إلى يوجين فالمونت، أنا، لأول مرةٍ منذ

عدَّة أيام، حتى حين ذلك، لم أستقلَّ عربة أُجرة لأذهب لشقَّتي، لكنَّني مررتُ تحت واجِهة فندق سيسل المُقوَّسة في عربة أجرة، مُتَّجهًا إلى محلِّ إقامة ذلك النبيل الذي استعان بخدماتي في السابق لضمان سلامة المَلِك.

ربما تقول إن هذا الحذر الشديد لا داعيَ له عندما لا يكون حتى الشخص مُتأكدًا من أن أحدًا يتبعه. في حقيقة الأمر، أنا لا أعلم حتى يومِنا هذا أن أحدًا كان يتتبَّعُني أم لا، ولستُ عابئًا حتى بهذا الأمر. إنني أعيش في الحاضر؛ فبِمُجرَّد أن يُصبِح الأمر ضربًا من الماضي، ينتهي وجوده بالنسبة إلي. من المُمكن، لا، بل من المُحتمَل تمامًا أن أحدًا لم يَتتبَّعْني فيما يتجاوز محطة ليفربول ستريت في الليلة السابقة. غير أن عدَم تَوخِّي هذا الحذَر الشديد جعل مُساعدي بريسون يقَعُ ضحيَّةً للخِنجر الذي غرسَه الإيطالي تحت لَوْحِ كَتِفه قبل خمسة عشر عامًا. إن اللحظة الحالية هي دائمًا اللحظة المُهمَّة. أما المُستقبل، فيقوم فقط على التَّبصُّر الذكي. إن الإعداد للمُستقبل كان يعني أن أستقلَّ الآن عربةَ أجرةٍ لأذهب إلى بيت هذا النبيل. لم أكن خائفًا من اللاسُلطويين الفرنسيين بخصوص المُعتَرك الذي كنتُ بصدَدِ الدخول فيه الآن، بل من الشرطة الباريسية. أعرف تمام المعرفة الفكر البيروقراطي الفرنسي؛ لذا فإنني أدرك أنه لا جدوى من الذهاب للسلطات الفرنسية وإخبارها بالأمر؛ إذ إنني لو أقدمتُ على الذهاب إلى رئيس الشرطة ومعي المعلومات التي اكتشفتُها في لندن، والتي كان من مَهامِّ عمله أن يعرفها في باريس، فستكون المقابلة أبعدَ ما تكون عن الودِّية رغم أنني أعلنتُ عن نفسي بوَصفي يوجين فالمونت، أو ربما بسبب ذلك تحديدًا. إن نجاحات يُوجين أصبَحَت جُزءًا من أساطير باريس، وتلك الأساطير كانت مُزعجةً بِشدَّة لمن هم في السُّلطة. لَطالَما كانت إنجازاتي موضوع المقالات الخفيفة في الصحافة الباريسية، وقد جرى، بالتأكيد، عرضُها على نَحوٍ مُبالَغ فيه من خِلال خَيال الكُتَّاب. غير أنَّني، مع ذلك، أُقرُّ بأنني حقَّقتُ بعض الإنجازات الجيِّدة في

مجال التَّحقيق الجنائي أثناء خِدمتي مع الحكومة الفرنسية؛ لذا من الطبيعي أن يَستمِع المسئولون الحاليُّون ببعض الضَّجَرِ عندما يُذكر اسم يوجين فالمونت. أعرف أن هذا من الأشياء المُتوقَّعة تمامًا، وأنا مُنصِف بما يكفي للاعتراف بأنَّني في فترة خدمتي عادةً ما كنتُ أستمِع إلى القِصص الخاصَّة بإنجازات لوكوك بلامبالاةٍ ورِيبة.

الآن، إذا عَرَفتِ الشرطة الفرنسية أيَّ شيءٍ عن تلك المؤامرة من جانب اللاسُلطويين، والتي كانت مُرجَّحة، وإذا كنتُ على اتِّصالٍ مَشبوهٍ مع اللاسُلطويين، وخاصةً مع الرجل الذي سيُلقي القنبلة، فهناك احتمال كبير أن أجِدَ نفسي واقِعًا تحت طائلةِ القضاء الفرنسي. ومن ثم، يجِب أن أُقدِّم المُستندات التي تُثبِت أنني لم أكن أعمل ضِدَّ سلام واستقرار بلدي، ولكن في صفِّ القانون والنظام؛ لذا أردتُ أن أحصُل من النبيل على إذنٍ مكتوب، مُمائِلٍ للتكليف الذي كلَّفَني به في أثناء زيارة الملك. كنتُ سأضَع هذا الإذن في بنكي في باريس، ليكون دليلًا ملموسًا على صحَّةِ مَوقفي عندما أحتاج إلى ذلك. لم يكن لديَّ أيُّ شكٍّ في أنَّ سيادَته كان سيُعطيني حريَّة التصرُّف في هذه المرَّة تمامًا كما حدَثَ في مرَّتَين سابِقَتين، ربما لو لم أكن قد تناولتُ غداءً جيِّدًا، لكنتُ قد تعاملتُ مع سيادة النبيل بإجلالٍ أكبرَ ممَّا كان عليه الحال؛ لكنني عندما طلبتُ غدائي، طلبتُ أن تُصفَّى من أجلي من الشوائب زجاجةُ شاتو دو تيرتر إنتاج ١٨٧٨، وهو نوع من خَمر الكلاريت اللذيذ جدًّا، وهذا جعَلَ نوعًا من التوهُّج اللطيف يَسري في جسدي، ممَّا أدَّى إلى حالةٍ من التفاؤل الذِّهني الذي جعلني على استعدادٍ للتعامُل مع أعظم البَشر وكأننا مُتساوون تمامًا. بالإضافة إلى ذلك، أنا، في نهاية الأمر، مُواطِن في جمهوريةٍ عظيمة، استقبَلَني النبيل بأدَبٍ وبرود، يُنبِئان عن عَدَم رضائه بزيارتي المُفاجئة، لكن دون أن يُصرِّحا بذلك. كانت مُقابلتُنا قصيرةً للغاية.

بدأتُ حديثي إليه قائلًا:

- لقد شرُفتُ بخدمة سيادتكم في مُهمَّتَين سابِقتين.

قاطعني قائلًا: - أتذكَّر ذلك جيدًا، لكنَّني لا أتذكَّر تكليفي إياك بمُهمَّةٍ ثالثة.

- لقد تجرَّأتُ على الحضور إليك، سيِّدي اللورد، دون أن تطلُبَني بسبب أهمِيَّة الأخبار التي بِحوزَتي. ظننتُ أنك مُهتمٌّ بتعزيز أواصِر الصَّداقة بين فرنسا وإنجلترا.

- ظنُّكَ يا سيِّدي في غيرِ مَحلِّه. أنا لا أهتمُّ مُطلقًا بالأمر. قلقي الوحيد كان بشأن سلامة المَلِك.

حتى الخَمرُ الفَخْمُ لم يكن كافيًا ليَحمِيَني من الكلماتِ الشديدةِ الفَظاظَة ونَبراتِ الصَّوت الجافَّة بشدَّة التي سمح سيادته لنفسه باستخدامها.

قلتُ له وقد قَلَّلتُ من درجةِ الرسمية في الحديث في ظِلِّ غضَبي المُتصاعِد:

- سيِّدي، قد يُهمُّك أن تعرف أن عددًا من بني وطنك مُعرَّضون للتَّفجير من قِبل قُنبلة يُلقيها أحد اللاسُلطويّين في غُضون أقلَّ مِن أسبوعين من اليوم. إن جماعةً من رِجال الأعمال، المُمَثِّلين الحقيقيّين لطبَقَةٍ حَرِيَّةٍ بعظمةِ إمبراطوريةٍ مِثل خاصَّتِكم، على وشكِ التعرُّض لـ...

قاطَعَني سيادته بضجرٍ قائلًا:

- أرجو أن تُعفِيَني من كلِّ هذا. لقد قرأتُ عن مثل هذه الأمور كثيرًا في الصُّحف. إذا جرى تفجير كلِّ هؤلاء الرجال المُوقَّرين، فإن الإمبراطورية ستفتقِدُهم بلا شكٍّ كما أسلَفْتَ، لكنَّني لن أفعل ذلك، ومصيرهم لا يُهمُّني على الإطلاق، على الرغم من أنك مَنحتَني شرَفَ الاعتقاد بهذا. طومسون، هلا رافقتَ هذا الشخصَ للخارج؟ سيدي، إذا رغبتُ في مُثولِك أمامي في المُستقبَل، فسأُرسِل إليك.

صِحْت، وقد تملَّكني الغضب بشدةٍ الآن، بعد أن سيطَرَت عليَّ الخمر:

- قد تُرسل في طلَب الشيطان!

ردَّ ببرود: - لقد عبَّرتَ عن مقصدي باقتضابٍ أكثر مما كلَّفتُ نفسي عَناء فِعله. وكانت تلك آخرَ مرةٍ رأيتُه فيها، ركبتُ عربة الأُجرة وانطلقتُ إلى شقَّتي، وأنا مُستاءٌ من طريقة الاستقبال التي قُوبلتُ بها. لكنَّني كنتُ أعرف الإنجليز جيدًا، بحيث لا أغضب منهم بِسبب فعل واحدٍ من بني جلدتهم؛ لذا لا يبقى أبدًا الاستياء طويلًا معي. بمجرَّد وصولي لشقَّتي، أخذتُ أقرأ الجرائد لأعلمَ كلَّ شيءٍ يُمكِنُني الوصول إليه عن رحلة رجال الأعمال المُنتظرة إلى باريس. وأثناء قراءتي لأسماء أبرز الأشخاص المَعنيّين بالقيام بالترتيبات الضرورية لتلك الرحلة، صادفْتُ اسم دبليو رايموند وايت؛ ما جعلَني أستريح في مَقعدي وأقطب جبيني في مُحاولة لتنشيط ذاكرتي. ما لم أكن مُخطئًا، سعدتُ بشدَّةٍ بتأدية مُهمَّةٍ لصالح هذا الرجل الفاضل منذ نحو ١٢ أو ١٣ عامًا. كما أتذكَّر، كان رجُل أعمالٍ يَشترِك في عملياتٍ ضخمة مع فرنسا، ويعمَل على وجه الخصوص في ليون وما يُجاورها. كان عنوانه مذكورًا في الجريدة، وكان يسكن في شارع أولد تشينج؛ لذا قرَّرتُ على الفور لقاءه. وعلى الرغم من أنني لم يكن باستطاعتي تذكُّر تفاصيل لقائنا السابق — إن ثبَت لي بالفعل أنه الشخصُ نفسُه الذي أعنِيه — فإن مجرَّدَ رؤيةِ الاسم جلَب لي سعادةً ذهنية، كما قد تجلِب لمْسةٌ عرضية على أحد أوتار آلةٍ موسيقية إحساسًا رائعًا بالتَّناغُم للعقل. قررتُ أن أحصل من السيد وايت، إذا كان ذلك مُمكنًا، على المُستندات التي تُبرِّئ ساحتي؛ إذ إنَّ ذلك في حقيقة الأمر سيكون أكثر قِيمةً بكثيرٍ ممَّا لو تمَّ من خلال السيد النبيل العجوز الفظِّ الذي تحدثتُ إليه قبله؛ لأنني إذا وقعتُ في مشكلةٍ مع شرطة باريس، فقد كنتُ واثِقًا — بفضل ما أعرِفه عن السُّلطات من تهذيب طبيعي — أن خِطابًا من أحد ضيوف المدينة سيكون كافيًا لضمان إطلاق سراحي الفوري.

أخذت عربة أجرة لمدخل هذا الشارع الضيق المعروف بأولد تشينج، وعندما وصلتُ هناك، لم أجعلها تنتظرني، كنتُ محظوظًا جدًّا بحيث استطعتُ

التعرُّف على السيد وايت وهو خارج من مَكتبه. فلو كنتُ تأخَّرتُ للحظةٍ واحدة، لم أكن لألحقَ به.

دنوت منه وقلت له:

- سيد وايت، أرجو أن أحظى بشرَفِ تقديم نفسي إليك ومُتْعَته.

رد السيد وايت بابتسامة: - سيدي، إنَّ تقديم نفسِك لي ليس ضروريًّا، وأنا من سيحظى بالشرَفِ والمُتعة. وما لم أكن مُخطئًا، إنك السيد فالمونت الباريسي. أليس كذلك؟

رددتُ مُصحِّحًا:

- الباريسي سابقًا.

- ألم تَعُد تعمل لدى الحكومة؟

- صِرْتُ من سكان لندن منذ أكثر من عشر سنوات، أو أقلَّ قليلًا.

- كيف هذا؟ ولماذا لم تُعلِمني بذلك؟ هذا شيء يُسمِّيه الدُّبلوماسيُّون عملًا غير وِدِّيٍّ يا سيدي. والآن، هل تُريد أن نعود لمكتبي أم نذهب للمقهى؟

- إلى مكتبك لو تكرَّمت يا سيِّد وايت؛ فأنا قادِم إليك بشأن موضوع مُهِمٍّ جدًّا.

دخلنا مَكتبه الخاص، وأغلق التاجِرُ الباب وطلبَ منِّي الجلوس وجلسَ هو على الكرسيِّ الموجود خلف طاولته. ومن البداية أخذ يُحادِثني بالفرنسية، التي كان يتحدَّث بها بلهجةٍ نقيَّةٍ للغاية ممَّا أثلج قلبي المُتلهِّف لِسماعها.

قال:

- ذهبتُ لمنزِلك منذ ستِّ سنواتٍ عندما كنتُ في باريس في حدَثٍ احتفالي، حيث أردتُ أن أحظى بمُرافقتك، لكنَّني لم أستطِع أن أعرِفَ على وجه التحديد ما إذا كنتَ لا تزال تعمَل لدى الحكومة أم لا.

رددتُ:

- هذه هي طريقةُ عمَل البيروقراطية الفرنسية. إذا كانوا يعرفون مكان إقامتي، فسيَحتفِظون بتلك المعلومة لأنفُسهم ولا يُطلِعون أحدًا عليها.

- حسنًا، إذا كنتَ تُقيم منذ عشر سنواتٍ في لندن يا سيد فالمونت، فربَّما نتشرَّفُ الآن بأن نَزعُم أنك رجل إنجليزي؛ لذا أرجو منك أن تُرافِقنا في حدَثٍ احتفاليٍّ آخر بباريس في الأسبوع القادم. ربما علِمتَ أن عددًا منَّا ذاهبٌ إلى هناك للاحتفال.

- أجل؛ لقد قرأتُ كلَّ ما كُتِب عن رِحلة رجال الأعمال إلى باريس، وتلك الرحلة هي التي أنا قادِم للتحدُّث معك بخصوصها. ثم أوضحتُ للسيد وايت بالتفصيل خطةَ اللاسُلطويين لإنهاء الودِّ المُتزايد في العلاقة بين البلدين. استمَع التاجر بهدوءٍ دونَ مُقاطعةٍ حتى انتهيتُ من كلامي، ثم قال: - أعتقد أنه سيكون من غير المُجْدي تمامًا إخبارُ الشرطة الباريسية. أليس كذلك؟

- بلى يا سيد وايت. إن الشُّرطة الباريسية هي التي أخشاها أكثر من اللاسُلطويِّين. إنهم سيرفضون المعلومات القادِمة إليهم من الخارج، خاصَّةً من مسئولٍ سابق؛ حيث سيكون الاستِنتاج أنهم لا يقومون بمَهامِّ عملِهم على الوجه الأكمل. سيحدُث احتكاكٌ وتأخير بحيث لا يُصبح بالإمكان منع وُقوع المؤامرة. من المُحتمَل جدًّا أن يكون لدى الشرطة الباريسية فكرة عن المؤامرة. وفي هذه الحالة، وقبل الحدَثِ مُباشرة، يكون من المُحتمَل جدًّا أن يَقبِضوا على الأشخاص الخطأ. سأتنقَّل في أنحاء باريس، ليس في شخصيَّةِ يوجين فالمونت، ولكن بول دوشارم اللاسُلطوي؛ لذا هناك احتمال أن يُلقى القبضُ عليَّ، باعتباري غريبًا ومُشتَبهًا به، في اللحظة الحاسمة. فإذا تكرَّمتَ وأعطيتَني ما يُفيد عملي لصالح البلد، والذي يُمكن أن أحفَظه في مكانٍ أمين في باريس؛ لكي أستخدِمَه في وقت الحاجة؛ فرُبَّما أستطيع مِن ثَمَّ إقناع السُّلطات بأنهم قَبضوا على الشخص الخطأ.

لم ينزعِج السيد وايت على الإطلاق من احتِمال أن تُلقى عليه قُنبلة في غضون أسبوعين، وكتب بهدوءٍ عدَّة مُستندات ثُمَّ حوَّل وجهه غير المُضطرِب تجاهي، وقال بنبرةٍ واثِقةٍ وفاتنة: - سيد فالمونت، لقد أوضحتَ المسألة بشمولٍ واضِح

يُميِّز أمَّةً تفهَم معاني الألفاظ والترتيب الصحيح لها. إن سلاسة اللغة هذه هي التي جعلتْ فرنسا تحوز قصبَ السَّبْقِ في مجال الأدَب بين الأمم. ومن ثم، أعتقد أنني أُدرِك بوضوحٍ شديدٍ أبعاد الموقف. ربما نتوقَّع عقباتٍ بدلًا من العَون من جانِب المَسئولين في البلدين المَوجودَين على جانِبَي بَحر المانش. إن السرِّيَّةَ ضروريةٌ للنجاح. هل أعلمتَ سواي بهذا الأمر؟

قلت:

- اللورد بلانك فقط، والآن أنا نادِم أشدَّ الندَم على إعلامه بالأمر.

ردَّ السيد وايت بابتسامة: - هذا لا يُهمُّ على الإطلاق. إن عقلَ اللورد بلانك مَشغول تمامًا بعظَمَته. إن الكيميائيِّين يقولون لي: إنك لا تستطيع إضافةَ مُكوِّنٍ جديد إلى محلولٍ مُشبَّع؛ لذا فاكتشافُك لن يترُك أيَّ انطباعٍ على عقل سيادته. لا بُدَّ أنه نَسي بالفعل كلَّ شيءٍ بشأنه. هل أنا على صوابٍ في افتراض أنَّ كلَّ شيءٍ يتوقَّف على الرجل الذي سيُلقي القُنبلة؟

- إنك مُحقٌّ تمامًا يا سيدي؛ فقد يكون مُرتَشِيًا، وقد يكون خائنًا، وقد يكون جبانًا، وقد يكون حقودًا، وقد يكون سِكِّيرًا. خلال العشر الدقائق الأولى من حديثي إليه، سأعرِف نُقطة ضَعفه. ويجِب أن أعمل على نُقطة الضَّعف تلك، ويجِب أن يتأجَّل فِعلي حتى اللحظة الأخيرة؛ إذ لو اختفى قبلَ الحدَثِ بوقتٍ طويل جدًّا، فسيأخذ مكانه على الفور بديلُه الأول أو الثاني أو الثالث.

- بالضبط؛ لذا لن يُمكنك إتمام خُططك حتى تُقابِل هذا الرجل. أليس كذلك؟

- بلى، بالتأكيد.

قال السيد وايت: - إذن، أرى أننا يَجِب ألا نَثِق في أحد؛ ففي قضية كهذه، لا تُوجد فائدة كبيرة في المُثول أمام لجنة استماع. بإمكاني إدراك أنكَ لستَ بحاجةٍ لأيِّ نُصح. وسيكون دَوري هو أن أبقى في الظلِّ، على استعدادٍ لدَعمِ أكفأ رَجُلٍ يُمكن أن يُختار للتَّعامُل مع أزمةٍ شديدة الصعوبة كهذه.

انحنيتُ له بشدَّة. كان هناك تقديرٌ في نظرته وكذلك في كلماته. لم أقابِل رجلًا رائعًا كهذا من قبلُ قط.

قال مُعطيًا إيايَ إحدى الأوراق التي خَطَّها: - هذا خطابٌ لمن يُهمُّه الأمر، يوضِّح تعيينك كعميلٍ لي للأسابيع الثلاثة التالية، وتحمُّلي المسئولية عن كلّ ما ترى أنَّ مِنَ المُناسب فعله. وأضاف، مانِحًا إيايَ ورقةً أخرى: - وهذا خطابُ تقديمٍ للسيد لارجان، مدير بنكي في باريس، وهو رجل معروف ومُحترم للغاية في كلّ الأوساط، سواء الرسمية أم التجارية. أقترح أن تُقدِّم نفسَك إليه، وهذا سيجعله على استعدادٍ كامل للاستجابة لأيّ طلبٍ قد تطلبه منه، ليلًا أو نهارًا. إن مجرَّد مُثوله أمام السُّلطات سيُنهي على الفور أيَّ صعوبةٍ عادية. ثم أردَفَ - مُمسِكًا بالورقَة الثالثة ومُتحدِّثًا ببعض التردُّدِ ومُختارًا كلماته بعِناية : - والآن يأتي أمرٌ لا يُمكِن تجاهُله. المال عصبًا سحرية تُزيل — مثل الإيمان الديني — أيَّ عائق، وقد تتخلَّص أيضًا من أيّ لاسُلطوي يَحوم حول الطريق الذي يَسلُكه أيُّ رجل أعمال.

ثمَّ أعطاني ما اتَّضح لي أنه حِوالة بألفِ جنيه تُصرَف في باريس.

قلت مُعترِضًا وقد اعتراني الارتباك:

- أؤكد لك يا سيدي أن مسألة المال لم تَخطُر ببالي عندَما سمحتُ لنفسي بالمجيء إليك. لقد حصلتُ بالفعل على أكثر ممَّا يُمكن أن أتوقَّعه من خلال الثِّقة العظيمة التي تكرَّمتَ وأوليتَني إياها، والتي تجسَّدت في هذه الأوراق، وخاصة الخطاب المُوجَّه لمدير بنكك. فبفضل كرَم بني وطنك يا مستر وايت، والذي تُعدُّ أنت مثالًا بارزًا عليه، أنا لستُ في حاجة إلى المال.

- سيد فالمونت، يُسعِدُني سماع تأقلُمِك وسعادتك بالإقامة وسطنا. إن هذا المال لغَرَضَين؛ أولًا، أنك ستستخدِم ما تحتاجه منه. إنني أعرف باريس جيدًا يا سيدي، ولم أجد المال هناك مَصدرًا للإحراج قطُّ. أما ثانيًا، فأنا أعتقد أنك عندما تُقدِّم خطاب التقديم للسيد لارجان ستودِعُ هذا المَبلغ في حسابك في

بنكه، وسيرى مِن ثَمَّ أنني إلى جانب كتابة خطاب تقديمٍ لك منِّي له، فإنني حوَّلتُ مَبلغًا مُعينًا من رصيدي لرصيدك. أؤكد لك أن هذا لن يَضرَّك بأيِّ نحو. والآن سيِّد فالمونت، يبقى لي أن أشكر الفرصة التي منحتَنِي إياها، وأن أؤكد لك أنني سأتحرَّك من محطة جار دو نور دُون خوفٍ لأنَّني أعلم أنَّني في أيدٍ أمينة.

ثم صافَحَني هذا الرجل المُحترم في ودٍّ شديد، ثم خرجتُ من شارع أولد تشينج وأنا أكاد أُعانِق السماء، وهو شعور يَختلِف بشدَّةٍ عن ذلك الذي أحسستُ به وأنا خارج من منزل اللورد العجوز الواقع في منطقة وست إند قبلها ببضعِ ساعات.

في صباح اليوم التالي، كنتُ في باريس وحضرت في الليلة التالية الاجتماع السِّريَّ للاسُلطويين، والذي عُقد في مكانٍ على بُعد رُبع ميلٍ من لوكسمبورج. كنتُ معروفًا للعديد من الحضور هناك، لكن لم تكن دائرة مَعارفي بالطبع كبيرةً جدًّا كما هو الحال بالنسبة للجماعة اللندنية. توقَّعوا حضوري الليلة السابقة؛ إذ كانوا يَعرفون أنَّني حتى إذا أتيتُ عبر محطة هوك أوف هولاند فإنني قد أصِل باريس قبل الاجتماع بفترةٍ ملائمة. قُدِّمتُ للجمع باعتباري المندوب المُرسَل من إنجلترا الذي من المُفترَض أن يُساعد الأخ الذي سيُلقي القُنبلة في الهرَب إلى هذا البلد أو لأيِّ نُقطةٍ آمنةٍ أخرى قد أختارها. لم تُطرَح أيُّ أسئلةٍ بشأن ما فعلتُ في اليوم السابق ولا طُلِب منِّي كشف خُططي لهروب زميلنا الذي سيُلقي القنبلة. لقد كنتُ أنا المسئول، وكان هذا كافيًا. إذا فشلتُ في مُهمَّتي دون أيِّ خطأ من جانبي، فإن هذا سيكون جُزءًا من الحظِّ السيِّئ الذي كان جميعنا مُستعدًا لمواجهته. أمَّا إذا فشلتُ بسببِ الخيانة، إذن فهناك خنجرٌ بانتظار أن أُطعَن به في الظهر في أقربِ فُرصة ممكنة. كان جميعنا يَعرف بنود عقدِنا المشئوم، وكلنا كان يُدرك أنه كلَّما قلَّ كلامُنا، كان ذلك أفضل، كان القَبو مُضاءً بضَوءٍ خافتٍ يأتي من مصباحٍ زيتيٍّ يتدلَّى من

السقف. ومن هناك يتدلَّى حبلٌ متَّصل بمُخمِد، وكان تحريك الحَبل مرةً واحدةً يُغلِق الضوء. وعلى الرغم من أن أبواب الدخول الأساسية كان يقتحِمها رجال الشرطة، فقد كان شاغِلو الغُرفة يهربون عبر واحدٍ من ثلاثة أو أربعة مَنافذ هروبٍ ضيِّقة مُخصَّصة لهذا الغرض.

إذا شرَّفَني أحد اللاسُلطويين الفرنسيين بقراءة هذه المُلاحظات، فأودُّ أن أُخبره بأنَّني عندما كنتُ أعمل لدى الحكومة الفرنسية، كنتُ دائمًا أعرف مَنافِذ الخروج من تلك الأماكن السرية، وكان بإمكاني — في أيِّ ليلةٍ يُعقَد فيها مؤتمرٌ — القبضُ على كلِّ الجمع الموجود هناك. لكنَّني لم أكن أرغَب في زعزعةِ ثِقةِ اللاسُلطويين في نظامهم؛ لأنَّ هذا كان يعني نقلَ التجمُّع لمكانٍ آخر؛ ممَّا يُضيف علينا مِن ثَمَّ عبء تحديد المداخل والمَخارج الجديدة لمكانهم. وعندما أهجِم على مقرٍّ للَّاسُلطويين في باريس، كان الهدف دائمًا هو القبض على شخصٍ بعينه. كنتُ أضع بعضًا من رجالي عند كلِّ مخرجٍ وكانوا يَرتدون ملابس مدنية. وفي كلِّ الأحوال كنتُ أترك الجُرذان يهربون دون أن يُقبَض عليهم، مُتسلِّلين بحذَرٍ شديد في الليل، لكنَّنا كنَّا دائمًا ما نرصُد الشخص الذي نريده، ونقبِض عليه في كلِّ الحالات تقريبًا في مكانٍ آخر، بعد أن نتتبَّعه من وَكْره. في كلِّ الأحوال، كان ضُبَّاطي المرتدون ملابسَ رسميةً يَجدون المَخبأ مُظلِمًا وخاليًا، ويتركونه والحيرة بادِيَة عليهم. غير أنَّ المُصادَفة المُتمثِّلة في القبض على أحد الأعضاء الموجودين في تلك الاجتماعات على نحوٍ سريٍّ في جُزء آخر من باريس في ليلة الإغارة من جانب الشرطة، مع السماح له بالعبور لروسيا، لم يبدُ قطُّ أنها أثارَتِ الشكَّ في عقول المُتآمرين.

أعتقد أن طريقة لاسُلطويّي لندن أفضلُ بكثير. ولَطالما رأيتُ أن العدميَّ الإنجليزي أخطر اللاسُلطويّين جميعًا؛ فهو باردُ الأعصاب ولا تأخُذه الحماسة؛ ومن ثَمَّ نادِرًا ما يُقبَض عليه من قِبل شرطته. إن السُّلطات في لندن لا تُواجِه أيَّ مُعارضةٍ عند الهجوم على أيٍّ من أماكن تجمُّع

اللاسلطويّين؛ فهم يَجدون غرفةً مُضاءةً جيّدًا بداخلها زُمرة يرتَدون ملابس رَثَّةً ويلعبون الورَق على طاولات رخيصةٍ من خشَب الصنوبر. ولا يُوجَد أيُّ مالٍ ظاهر. وفي واقع الأمر لن يَجدوا سوى القليل جدًّا من العُملات المعدِنية إذا جرى تفتيش الجمع كله؛ لذا فإن الشرطة لن تستطيع اتّهام اللاعبين بموجَب قانون المُقامَرة. هذا بالإضافة إلى أنه من الصعب في كلّ الأحوال اتّهام أحدٍ بموجب هذا القانون؛ لأنَّ المُتَّهم سيتعاطف معه كلُّ مَن في البلد. لطالما رأيتُ أن مِن غرائب الطبيعة الإنجليزية أن قاضيًا يُمكن أن تبدوَ على وجهه علاماتُ الصرامة بينما يُغرِّم رَجُلًا فقيرًا مُعدِمًا بتُهمة المُقامرة، وهو يُدرِك أنه في يوم السِّباق التالي - إذا لم تكن المَحكمة مُنعقِدة سيكون — مُرتديًا ملابسه الرياضية المُلائمة، ونظّارتُه المُكبِّرة مُتدليةٌ عندَ وِركه — في المنطقة العُشبيَّة المُجاورة لِمضمار السِّباق يدعَم فرَسَه المُفضَّل.

بعد أن جرى تقديمي للحاضرين في اجتماع اللاسُلطويين الباريسيين، ظللتُ قاعدًا — دون أن يتطفَّل عليَّ أحدٌ — على مِقعدٍ بانتظار انتهاء الإجراءات الروتينية، والتي توقَّعت أن يجري بعدَها تقديمي للرجُل الذي اختِيرَ لإلقاء القُنبلة. أنا رَجُل حسَّاس للغاية، وبجلوسي هناك في هدوء، أدركتُ أن هناك شخصًا يتفحَّصُني على نحوٍ دقيق أكثر مِن المُعتاد؛ مما أعطاني شعورًا بعدم الراحة. وفي النهاية، وفي شِبه الظلام قُبالتي رأيتُ عينين حادَّتَين كعينَي النِّمر تُحدِّق بنحوٍ ثابتٍ تجاهي. رددتُ التَّحديق بأقصى رَباطة جأشٍ يُمكنني استِجماعُها. ومال الرجل بجسمه للأمام، كما لو أنه أُعجِب بنظرةٍ واثقةٍ مثل نظرته، وظهر أكثر فأكثر في دائرة الضوء، ثم تلقيتُ صدمةً احتاج مِنّي إخفاؤها إلى استِجماع كلّ قُدرَتي على ضبط النفس. إن الوجه الشَّرِسَ والمُنهَك، كان لشخصٍ يُدعى أدولف سيمار، الذي كان مُساعدي الثاني في جهاز الخدمة السرِّيَّة الفرنسي في أثناء عامي الأخير من عملي. كان شابًّا رائعًا ومُبشِّرًا في ذلك الوقت، وبالطبع، كان يَعرفُني جيدًا. هل استطاع إذَن أن

يكشِف تنكُّري؟ بدا هذا الأمر مُستحيلًا؛ فما كان له أن يتعرَّف على صوتي؛ حيث إنَّني لم أقُل شيئًا بصوتٍ عالٍ منذ دخولي للمكان، وقد نطقتُ هامِسًا بكلِماتي القليلة التي وجَّهتُها لرئيس الجماعة. لقد حيَّرني وجود سيمار هناك؛ فبِحلول ذلك الوقت، كان من المُفترَض أن يكون بمنصبٍ رفيع في الجهاز. إذا كان هنا الآن بِصِفته جاسوسًا، فسيرغَب بالتأكيد في معرفة كلّ تفاصيل وجودي في هذا المكان؛ حيث إنَّني أنا صاحب خُطَّةِ هُروب المُجرم. لكن إذا كانت هذه هي مُهمَّته، فلماذا يَجذِب أنظار كلّ أعضاء الجماعة بتفحُّصه الشديد هذا؟ لم يكن لديَّ خوفٌ من إمكانية تعرُّفه عليَّ بصِفتي فالمونت؛ إذ كان تنكُّري مِثاليًّا جدًّا. وحتى إذا كنتُ هناك بشكلي الحقيقي، فأنا لم أرَ سيمار ولا هو رآني منذ عشر سنوات، ويَعتَرِي مظهر الفردِ تَغييرات كبيرة أثناء تلك الفترة الطويلة. غير أنَّني تذكرتُ بقلقٍ أن السيد وايت تعرَّف عليَّ، وها أنا قد تعرَّفتُ الليلة على سيمار. لم أستطِع تحريك مِقعدي الثابت إلى الخلفِ أكثر؛ لأنه كان مُلتصقًا بالفِعل بالحائط، لكنَّ سيمار، على العكس، كان يجلِس على أحد الكراسي المُنفرِدة القليلة الموجودة في المكان، وهذا ما أتاح له التحرُّك به للأمام على نحوٍ مُنتظم ليتَمكَّن من الاستمرار في مراقبتي، وهو الأمر الذي جذَب الآن انتباه الآخرين مِثلما جذَب انتباهي. وكلَّما تقدَّم لم أستطع منع نفسي من الإعجاب بكمال تَنكُّرِه فيما يتعلَّق بالملابس. لقد كان نموذجًا مِثاليًّا للمُتشرِّد الباريسي. والأدهى أنه كان يرتدي على رأسه قبَّعةً خاصَّةً بعصابة الأباشي، التي تُعدُّ أخطر العِصابات التي يمكن أن تُبتلى بها أيُّ مدينةٍ مُتحضِّرة. أستطيع تَفهُّم أنه حتى وسط اللاسُلطويّين المارِقين يُمكن أن يكون لتلك العلامة على الانضمام لتلك العصابات مغزًى كبيرٌ. شعرتُ أن عليَّ — قبلَ أن ينتهيَ الاجتماع — أن أتحدَّث إليه، وقرَّرتُ أن أبدأ حوارنا بأن أسأله عن سبب تحديقه المُستمرّ فيَّ. لكن حتى تلك اللحظة كان من الضروري أن يتقدَّم الحوار ببطء. فما كنتُ أجرؤ على التلميح بأنه ينتمِي لجهاز الخدمة

السرية؛ ومع ذلك، لو كانت السلطاتُ مسئولةً عن تلك الخطة، لكان من الضروري تمامًا أن نعمل معًا، أو على الأقلِّ أن أعرِفَ أنهم يتجسَّسون عليهم وأُعدِّل مَسار عَمَلي طِبقًا لذلك. إن حقيقة أن سيمار كان يظهر بوجهه الحقيقي دون تنكُّرٍ لم تكن ذات أهميَّةٍ كبيرة كما قد يبدو الأمر في نظر الإنسان العادي، من الآمن دائمًا بالنسبة للعميل السريِّ أن يُحافظ على مَظهرِه الطبيعي إذا كان ذلك مُمكنًا؛ لأن اللِّحيَة أو الشنب أو الشعر المُستعار مُعرَّض لاحتمال التمزُّق أو عدم الثبات. وكما أوضحت سابقًا، فإن تجمُّع اللاسلطويين حدثٌ يَسودُه جوٌّ من الشك. أعرف مرَّاتٍ جرى فيها الانقضاض على شخصٍ غريبٍ بريءٍ فجأةً، في وسط الوقائع المهيبة للاجتماعات، من قِبل اثنين أو ثلاثة من الأعضاء المُتهوِّرين الذين كادوا ينتزِعون شعرَ لِحيَته مِن وجهه؛ لأنهم شعروا بأنه مُستعار؛ لذا، ما دام سيمار يظهر بلِحيَته الهزيلة وشعره الأشعث، فقد كان يعني هذا أنه كان يتواصَل مع قيادته بطريقةٍ غير مُباشرة. أدركتُ، من ثَمَّ، أن بانتظاري بعضًا من العمل الدبلوماسي الحسَّاس جدًّا إذا تَسنَّى لي أن أعلم منه وضعه الحقيقي. وبينما كنتُ غارِقًا في حيرتي هذه، تبدَّدت هذه الحيرة فجأة بفضْلِ ما قام به رئيس المجموعة، وحلَّت محلَّها حيرة أخرى.

قال الرئيس:

- أيسمَح الأخ سيمار بالتَّقدُّم للأمام؟

أَنزل مرءوسي السابق عينيه عنِّي، وقام ببطءٍ من كرسيه، وتحرَّك ببطءٍ تجاه طاولة الرئيس.

قال هذا المسئول لي بنبرةٍ هادئة:

- الأخ دوشارم، أقدِّمُك للأخ سيمار الذي مطلوب منك أن توفِّر له مكانًا آمنًا عندما يُفجِّر الموكب.

حوَّل سيمار عينيه الجاحِظتين المُريبتين باتِّجاهي، وكشفت ابتسامةٌ عريضة عن أسنانه التي كانت تُشبِه أسنانَ الذئب. مدَّ يدَه فنهضتُ كي أُصافِحه. لم يُصافِحْني بقوَّةٍ وكانت عيناه المُتسائلتان تحوم حولي طوال الوقت.

قال:

- إنك لا تبدو كفؤًا لهذه المُهمَّة. ماذا تعمَل؟

- مُعلِّم لغة فرنسية في لندن.

قال سيمار بامتعاضٍ وقد بدا أنه لم يكن مُعجبًا على الإطلاق بمظهري: - أف! أعتقد أنك لستَ مُقاتلًا جيدًا. ثم قال بامتعاض للرئيس: - إن رجال الشرطة سيقبِضون على هذا الرَّجُل بسرعة.

ردَّ الرئيس بحزم:

- إن الجماعة الإنجليزية بالكامل تُزكّي بشدَّةٍ الأخ دوشارم.

قال: - أوه، الإنجليز! أنا لا أُقيم لهم وزنًا. ومع ذلك، فهذا لا يُهم. وهزَّ كتفيه تعبيرًا عن اللامبالاة ثُمَّ عاد إلى كرسيِّه ثانية، تاركًا إيايَ واقفًا هناك في حالةٍ ذهنيَّةٍ مُحرَجَةٍ للغاية؛ كما لو أن عقلي كان يدور في دوَّامة. إن وجود هذا الرجل بمظهره الحقيقي كان مُحيِّرًا بما يكفي، لكن وجوده هنا باسمه الحقيقي كان ببساطة مُدهِشًا. سمعتُ بالكاد ما قاله الرئيس. بدا أنه قال شيئًا مُفادُه أن سيمار سيأخذُني لغُرفته حيث نستطيع أن نتناقَشَ بشأن خُططنا. والآن نهض سيمار من كرسيِّه وقال للرئيس:

إن علينا أن نذهب إن لم يكن مطلوبًا منا أيُّ شيء. وبناءً على ذلك تركنا مكان الاجتماع معًا. تفحَّصتُ رفيقي عن قُرب. كانت هناك الآن حماسةٌ مُتردِّدة في أفعاله. ودون أن ينطِق بكلمةٍ، أسرع بي لأقربِ مقهًى حيثُ جلسنا إلى طاولةٍ حديديةٍ صغيرة على الرصيف.

صاح بغِلظة:

- أيها النادِل، أَحضر لي أربعَ كئوسٍ من شراب الأفسنتين. ماذا ستشرب يا دوشارم؟

- قهوة بالكونياك، إذا سمحت.

صاح سيمار قائلًا:

- هراء. الأفضل أن تتناوَل الأفسنتين.

ثم لعَنَ النادِل لِبطئه. وعندما أتت كئوس الأفسنتين، أمسك بأوّل كأس، وقد كانت مُمتلئةً للنِّصف، وتجرَّع الشراب كما هو دون تخفيف، وهو شيء لم أرَهُ من قبلُ قط. وبالنسبة إلى الكأس الثانية من الشراب، فقد صبَّ الماء باندفاعٍ من الدَّورَق، وهو شيء آخر لم أرَه أيضًا من قبلُ قط، ووضع قِطعتَين من السُّكَّر فيه، ووضع فوق الكأس الثالثة مِلعقةً مطليَّة مُسطَّحة ومثقوبة، وكوَّم السُّكَّر على هذا الحاجز ثمَّ سمح للماء بالمرور بدقَّةٍ كبيرة، وهذه هي الطريقة الصحيحة لإعداد هذا المَزيج الرائع. وبعد أن انتهى من تناوُل الكأس الثالثة، وضع المِلعقة المثقوبة على الكأس الرابعة وبدأ الآن يرتَشِف على نحوٍ أكثر هدوءًا من الكأس الثالثة مع ترك الماء يسيل ببطءٍ في الكأس الأخيرة.

ثم وقع أمام عينيَّ تغييرٌ أعجَبُ من التحوُّل التدريجيّ لشراب الأفسنتين الشفَّاف إلى سائلٍ برَّاقٍ غير شفاف؛ فقد تحوَّل سيمار ببطء، تحت تأثير الشراب، إلى سيمار الذي كنتُ أعرِفه منذ عشر سنوات. مُذهل! فمِثلما تَحوَّل في السنوات الماضية من إنسانٍ إلى وَحْش، فقد بدأ الآن يعود لطبيعته البشرية ويتخلَّص من هذا الوَحْش. ارتَسمتْ على عينيه المُحدِّقتين تَعبيراتُ الودِّ الإنسانية. لقد اتَّضح لي على نحوٍ كامِلٍ حلُّ اللُّغز دون طرحِ أيّ سؤالٍ أو تقديم أيّ إجابة. لَم يكن هذا الرجُل جاسوسًا، وإنما لاسُلطوي حقيقي. وبِغَضِّ النظَرِ عن الطريقة التي حدَث بها هذا، فقد أصبحَ أحد ضحايا شراب الأفسنتين، وهو واحد من عديدين أعرِفُهم، على الرغم من أنني لَم أقابل قطُّ

أحدًا قد تدهورَتْ حالته كما فعل. كان يَتناوَل كأسَه الرابعة وطلبَ كأسين أُخريَين عندما بدأ في الحديث.

قال، وقد ارتَسمتْ على وجهه النَّحيف ابتسامة أشبَهُ بالابتسامة المُحتَضِرة: - نخبنا. أرجو ألَّا تكون قد تضايقتَ مِمَّا قُلتُه في الاجتماع.

ردَدْت: - أوه، لا.

قال:

- هذا صحيح. كما ترى، لقد كنتُ أنتمي في السابق لجهاز الخدمة السرية، ولو كان رئيسي لا يزال في منصبه اليوم، لوَجدنا أنفُسنا سريعًا في زنزانةٍ بارِدة. فما كان لنا أن نخدَع يوجين فالمونت.

عندما قال تلك الكلماتِ مُتحدِّثًا بصِدق، اعتدلتُ في جِلستي على الكرسيّ الذي كنتُ أقعُد عليه، وأنا مُتأكد من أن تَعبيرًا عن السعادة قد لاحَ على وجهي، ولولا أنني قد كبَتُّه على الفور، لكان أمري قد انكشف.

سألتُ بنبرةٍ من اللامبالاة المُصطنعة:

- مَن يوجين فالمونت؟

أومأ برأسه بحكمةٍ وهو يَمزجُ كأسه الخامسة.

- ما كنتَ ستسأل هذا السؤال لو كنتَ مُقيمًا في باريس منذ عدَّة سنوات. لقد كان كبير المُحقِّقين التابعين للحكومة، وكان يَعرِف عن اللاسُلطويّين، نعم، وعن عصابة الأباشي أيضًا، أكثر منّي ومنك. لديه ذكاء أكثر من جميع من يَعملون ويُثرثِرون هناك اليوم. لكن نظرًا لحماقة الحكومة، كما هو الحالُ بالنسبة لكلّ الحكومات، فقد استَغنتْ عنه. ولأنني كنتُ مُساعِده، فقد استغنَوا عنّي أيضًا. لقد استغنَوا عن كلّ فريقه، واختفى هو أيضًا. لو أنني استطعتُ العثور عليه، فما كنتُ لأجلس معك هنا الليلة؛ لكنه كان مُحقًّا في الاختفاء. لقد فعلَتِ الحكومة كلَّ ما تستطيع للنَّيْل من كلّ من كانوا أصدقاء له، وأنا بالخُصوص كنتُ على وشكِ الموت جُوعًا، وإلقاء نفسي في نهر السين،

وهو أمرٌ كنتُ أحيانًا أتمنَّى فِعله. أيها النادِل، كأس أخرى هنا من الأفسنتين. لكنَّني تدريجيًّا أصبحتُ أحبُّ الفقر الشديد، وها أنا ذا على الحالة التي رأيْتَني عليها؛ فأنا أُفضِّل الفقر والأفسنتين على العَيش في لوكسمبورج بدونهما. لقد انتقمتُ لنفسي من الحكومة عدَّةَ مرَّاتٍ من ذلك الحين؛ فأنا أعرِف طُرُقَها وكثيرًا ما استطعت خداع الشرطة. وهذا ما جعل اللاسُلطويّين يَحترمونني. هل تعرِف كيفَ انضممتُ إليهم؟ كنتُ أعرف كلَّ كلماتِ السرِّ خاصَّتهم، ودخلتُ على نحوٍ مُباشِرٍ إلى أحد اجتماعاتهم، بمفردي وبملابِسَ مُمزَّقة.

قلت:

- ها أنا ذا. أدولف سيمار، المُساعد الثاني السابق ليوجين فالمونت، كبير مُحقِّقي الحكومة الفرنسية.

وجدت عشرين سلاحًا مُصوَّبًا تجاهي على الفور، لكنَّني ضحكت.

صحتُ قائلًا:

- أنا أتضوَّر جُوعًا وأريدُ شيئًا آكُله وشرابًا أتناوَله. وفي مُقابِل كلِّ هذا، سأوضِّح لكم كلَّ مَنافِذ الهروب خاصَّتكم. ارفعوا كرسي الرئيس وستجدون بابًا خفيًّا يُؤدِّي إلى شارع بلان. أنا واحد منكم وسأخبركم بكلِّ حِيَل الشرطة.

تلك كانت بدايتي معهم، ومن تلك اللحظة، بدأَتِ الشرطة في إبعاد جواسيسها عن نهر السين، وقد تركونا الآن وشأننا. وحتى فالمونت نفسه، ما كان لِيستطيع فِعل أيِّ شيءٍ ضِدَّ اللاسُلطويين منذ انضمامي إليهم.، أوه، عجبًا لغرور الطبيعة البشرية الذي لا يُصدَّق! هذا الهمَجيُّ يذكر عيوب فالمونت، الذي كان قبلها بنصف ساعةٍ يُصافِحه داخل الدائرة الداخلية لجماعته! لكن قلبي لانَ للمُتشرِّد الذي ذَكرَني وذَكر مَناقبي، نصبح الآن إبعاد سيمار عن المقهى وشراب الأفسنتين مُهمَّةً صعبةً ومقلقةً بالنسبة إلي؛ فكأس تلوَ الأخرى من هذا الشراب القوي أعادته تقريبًا إلى مستواه الفكري السابق، ولكنها الآن جعلته ينهار ثانيةً بسرعة. يجِب أن أعرف مكان غُرفته، غير أنَّني لو انتظرتُ

أطول من ذلك فسيكون الرجل في حالة غفلةٍ بسبب السُّكر؛ مما سيجعل من المُستحيل أن يُرشدني لغرفته، بل من المُحتمَل أيضًا أن يجعل الشرطة تقبض علينا نحن الاثنين. جرَّبتُ معه الإقناع، لكنه سخر مني، فحاولت التهديد وحينها تَجهَّم ولعَنَني باعتباري خائنًا من إنجلترا. في النهاية، غلبه الشراب تمامًا، وسقط رأسه على الطاولة المعدِنية ووقعتِ القُبَّعة ذات اللون الأزرق الداكن على الأرض، شعرتُ باليأس، لكنَّني الآن تعلَّمتُ درسًا مُفادُه أن الإنسان إذا ترك مدينة، حتى ولو لفترةٍ قصيرة، فإنه لا يعرف كيف يتصرَّف داخلها. ناديتُ على النادل وقلتُ له:

- هل تعرف صديقي هذا؟

ردَّ النادل:

- أنا لا أعرِف اسمه لكنَّني رأيته عدَّة مراتٍ في هذا المقهى. يُصبح غالبًا على هذا الحال عندما يمتلك مالًا.

- أتعرِف أين يعيش؟ لقد وعد بأن يصحبَني معه إلى هناك، وأنا غريب في باريس.

- لا تقلق يا سيدي. ابقَ هادئًا، وأنا سأتصرَّف.

بناءً على ذلك، خرج إلى الرصيف أمام المقهى ومنه إلى الشارع وأطلَق صافرةً خفيضةً ومُميَّزة. لقد كان المقهى الآن شِبهَ خالٍ؛ لأن الوقت كان مُتأخِّرًا جدًّا أو بالأحرى مُبكرًا جدًّا. وعندما عاد النادل، همستُ له بشيءٍ من القلق قائلًا:

- أنت لم تَستدعِ الشرطة. صحيح؟

صاح بازدراء:

- لا! أنا بالتأكيد لم أستدعِ الشرطة.

أخذ يُدخل الكراسي والطاولات الخالية في غير اكتراث. وبعد بضع دقائق، جاء باختيال إلى المقهى اثنان من أكثر الأوغاد الذين رأيتُهم حقارةً ودناءة، وكان كلٌّ منهما يرتدي قُبَّعةً ذات لونٍ أزرق داكن، وكانت حافَتُها التي تُغطِّي العينين

لامعة؛ وكانت القُبَّعتان مُماثِلتين تمامًا للقُبَّعة التي كانت مُلقاةً أمام سيمار. لقد علا شأن عصابة الأباشي وانتشرت في جميع أنحاء باريس بعد رحيلي، وقد أخطأ سيمار قبل ساعةٍ في التأكيد على أن فالمونت كان عالمًا بأوكارهم. إن رئيس الشرطة الحالي في باريس وبعضًا ممن سبقوه في المنصب يعترفون بأن هناك صعوبةً في التَّعامُل مع هؤلاء السفَّاحين المُحنَّكين، وكم كنتُ أودُّ بشدَّةٍ التدخُّل في هذه العملية مُتَّخذًا جانب القانون والنظام. لكن هذا لم يحدُث للأسف؛ ولذلك فإن العصابة في نموٍّ وازدهار، ضرب المُتشرِّدان بغلظةٍ رأس سيمار المُنكفئ بقبَّعتِه، وبنفس الغِلظة أوْقَفاه على قدَميه.

قلت:

- إنه صديق لي وقد وعدَني بأن يأخُذني إلى منزله.

قال أحدهما:

- حسن! اتبعنا. أخذتُ الآن أسير عبر شوارع باريس في الصباح مُتَّبعًا ثلاثةً من السفاحين، لكنَّني كنتُ أعلم أنني كنتُ حينها آمِنًا أكثر ممَّا لو كنَّا في وَضح النهار، وشمس الظهيرة تسطع علينا. لقد كنتُ آمنًا من جِهَتَين؛ فلم أكن أخشى أذى لصوص مُنتصف الليل، ولم أكن مُعرَّضًا لخطر القبض عليَّ من قِبل الشرطة. إن كلَّ الشرطيين الذين قابلناهم تجنبونا، وحوَّلوا أنظارهم في لامبالاةٍ إلى الجانب الآخر من الشارع. عرجنا إلى حارة ضيِّقة ثم إلى أخرى أضيق منها، وهي التي أدَّت إلى ساحة. دخلنا مبنًى مُرتفِعًا وصعدنا خمسَ مجموعاتٍ من درجات السُّلَّم حتى وصلنا إلى بسطة، حيث فتح أحد الرجلين بابًا أدَّى إلى غرفةٍ شديدة التواضع لدرجة أنها لم يكن لها حتى قِفل يُخفي حالة البؤس التي كانت عليها. ثم ألقَيا بقوةٍ سيمار الغائب عن الوعي على الأرض وتركَانا دون حتى تحيَّة وَداع. إن عصابة الأباشي تهتمُّ بأفرادها — بطريقةٍ أو بأخرى.

أشعلتُ عود ثقابٍ ووجدتُ جزءًا من شمعةٍ محشورًا في فُوَّهة زجاجة أفسنتين قابعة على طاولة خَشِنة المَلمَس يعلوها لوحٌ مِن خشب الصنوبر. أضأتُ الشمعة ونظرتُ في أنحاء الغُرفة البَشِعة. كان يُوجَد في أحد الأركان كومةٌ من قِطَع القماش البالية، التي من الواضح أنها كانت سرير سيمار. سحبتُه إلى هناك، ورقدَ هناك وهو غائب عن الوعي، وكان هو نفسه أشبهَ بحزمةٍ من قِطَع القماش البالية. وجدتُ كرسيًّا أو بالأحرى مقعدًا صغيرًا؛ لأنه كان بلا ظهر. جرَرْتُ الطاولة وأغلقتُ بها الباب الذي كان بلا قِفل، وأطفأتُ الشمعة، وجلست على المِقعد الصغير، مُسنِدًا ذِراعي على الطاولة ورأسي على ذراعي، ونمتُ في سلامٍ لفترةٍ طويلة بعد طلوع الشمس.

استيقظ سيمار في أسوأ حالةٍ مِزاجية مُمكنة. ألقى على مَسامعي مجموعةً مُتنوِّعةً من الشتائم البذيئة. وكأن هذا ليس كافيًا، أزاح قِطَع القماش البالية التي كان نائمًا عليها وأخرج لدائرة الضوء شيئًا مُستديرًا لونه أسود يُشبِه قَذيفةَ مدفعٍ كرويةً صغيرة، وأخبرني أنها هي القُنبلة المصنوعة من حِمض البيكريك، والتي كان من المُفترض أن تقتل أصدقائي الإنجليز الذين كان يُكِنُّ لهم أكبر قدْرٍ مُمكنٍ من الازدراء والبُغض. ثم عدَّل وضع جِسمه وجلس وبدأ يعبثُ بتلك الكرة المُميتة، وهو يعلم، وأنا كذلك، أنه إذا أفْلتَها من يديه، فستكون تلك نهايتنا.

هززتُ كَتِفَيَّ استهجانًا مما يفعله، واصطنعتُ برودًا كنتُ بعيدًا كلَّ البعد عن الإحساس به. لكنني في النهاية وضعتُ حدًّا لهذا المزاح الخطير بأن قلتُ له إنه لو خرج معي، فإنني سأدفع ثمن إفطاره وأُعطيه كأسًا من شراب الأفسنتين.

كانت الأيام القليلة التالية هي الأصعب في حياتي؛ فلم أَعِش من قبلُ بهذا القُرب من قنبلةٍ مصنوعة من حِمض البيكريك، الذي يُعَدُّ إحدى أكثر الموادِّ المُتفجِّرة فتكًا وغموضًا. سرعان ما اكتشفتُ أن سيمار كان مُدمِنًا للأفسنتين لدرجةٍ لا أستطيع معها أن أفعل له شيئًا؛ فهو لا يُمكن رشوته ولا مُداهنته

ولا إغراؤه ولا تهديده. ذات مرَّة، في واقع الأمر، عندما كان يتحدَّث بإعجابٍ تحت تأثير الشراب عن يوجين فالمونت، تملَّكتْني فكرةٌ مجنونة بأن أعلن له عن هُويَّتي، لكنني بعد لحظةٍ من التفكير اتَّضح لي عدم جدوى هذا المسار؛ فلم يكن هناك سيمار واحد كان عليَّ أن أتعامَل معه، ولكن كانت له ستُّ شخصياتٍ أو أكثر؛ فقد كان هناك سيمار المُفِيق وسيمار نصف المُفيق وسيمار رُبع المُفيق، وسيمار الثَّمِل وسيمار نصفُ الثَّمِل وسيمار ربع الثَّمِل وسيمار الغارِق في الثَّمالة. إن أيَّ اتِّفاقٍ يُمكن أن أُجريه مع أيٍّ من هذه الشخصيات الستة ما كانت الشخصيات الأخرى لتلتَزِم به. إن الشخصية الآمِنة الوحيدة التي يكون عليها سيمار هي عندما يفقد الوعي من فرط تناوُلِ الشراب؛ لذا قرَّرتُ أن أجعل سيمار يَسكر بشدَّةٍ في صباح يوم العملية، لكنَّ خُططي تبدَّدتْ في اجتماع للَّاسُلطويين، وهو الذي تم لحُسن الحظِّ في مساء أحد الأيام بعد فترةٍ قليلةٍ من وصولي، وهذا منحني وقتًا لتحديد أبعاد الخطة التي جرى تنفيذها بالفعل. إن كلَّ عضوٍ من أعضاء جماعة اللاسُلطويين كان يعرف بإدمان سيمار الشديد للأفسنتين، وكانت هناك مَخاوِف صريحة من إمكانية عدم قُدرته على تنفيذ المُهمَّة في يوم العملية، مع تأخُّر الوقت لإحلال بديل له؛ لذا اقتُرح وجود عضوٍ أو عضوين بطولِ مسار مَوكب الضيوف وبحوزَة كلٍّ منهما قنبلة جاهزة للانفجار في حالة فشل سيمار في مُهمَّته. اعترضتُ بشدَّةٍ على هذا الاقتراح وأكدتُ لهم أن سيمار سيكون مُستعدًّا لإلقاء القنبلة. لم أجد صعوبةً كبيرة في إقناعهم بما أراه لأن كلًّا منهم، في نهاية الأمر، كان يخشى أن يكون من ضِمن المُختارين، حيث كان هذا الاختيار يعني فِعليًّا حكمًا بالإعدام. أكدتُ لهم أن القنبلة سيَجرى إلقاؤها وفُهم من ذلك ظاهريًّا أن سيمار إن لم يقُم بالمُهمة، فسأقوم أنا بها.

بعد إزاحة هذا الخطر، أخذتُ بعد ذلك قياسات القنبلة المصنوعة من حمض البيكريك وقدَّرتُ وزنها. ثم ذهبتُ إلى فنيٍّ أعرفه، والذي كان خبيرًا في

مجال الألعاب النارية وما شابه، وكان حِرَفِيًّا عبقريًّا يصنع الألعاب النارية الهائلة الرائعة التي تراها أحيانًا في باريس. لقد قدَّمتُ لهذا الرجل، باعتباري يوجين فالمونت، خدمةً كبيرة، وكان من غير المُحتمَل أن ينساها؛ ففي أثناء أحد أحداث العنف التي قام بها اللَّاسُلطويون، ألقى شرطيٌّ غبيٌّ القبض عليه، وعندما تدخَّلتُ كان الرجل على وشكِ أن يُعدَم. فقد كانت فرنسا، أو بالأحرى باريس، ترتعِدُ في واحدٍ من أحداث الرُّعب التي مرَّتْ بها، وكانت تحتاج إلى ضحايا. صحيح أن هذا الحِرَفِيَّ القصير البريء قد زوَّد المُجرمين بالمواد والمَشورة، لكنَّ أيَّ أحمق كان يُمكن أن يرى أنه فعل هذا بسذاجة؛ فقد طُلبت منه المُساعَدة وقدَّمَها بدعوى أن عُملاءه كانوا يُقدِّمون عرضًا بالألعاب الناريَّة للهواة، الأمر الذي كان صحيحًا بما يكفي، لكن العرض أدَّى إلى موت ثلاثة أشخاص، وكان هذا مقصودًا من قِبل مَن نفَّذوه؛ لذا وقفتُ بجانب هذا المُواطِن عندما كان في قِمَّة يأسِه وقدَّمتُ هذا الدليل على براءته لمن هم أعلى منِّي مما جعلهم يُطلِقون سراحَه وهم كارِهون على مَضَضٍ شديد. ذهبتُ الآن لهذا الرجل بقياساتي الخاصة بالقُنبلة وتقديري لوزنها.

قلت له:

- سيِّدي، هل تذكر يوجين فالمونت؟

ردَّ بحماسةٍ أسعدتني: - وهل يمكن أن أنساه أبدًا؟

- لقد أرسلني إليك وهو يلتَمِس منك مُساعدتي، وتلك المساعدة ستُعادِل الجميل الذي أسداه إليك.

ردَّ الحِرَفِي:

- أنا مُستعد، مُستعد للمُعاونة ما دام الأمر غير مُتعلِّق باللاسُلطويين أو صناعة القنابل.

- إنه مُتعلِّق على وجهِ التحديد بهذين الأمرين. أريدُ منك أن تصنع قُنبلةً غير مؤذية، وهي التي ستمنَع حدوث ضررٍ كبير من قِبل اللاسُلطويين.

حينها، تراجع الرجل القصير للخلفِ وأصبح وجهه شاحبًا.
أبدى اعتراضه قائلًا:
- مُستحيل. لقد سئمتُ القنابل غير المؤذية. لا، لا، وعلى أيِّ حال، كيف لي أن أتأكَّد أنك من طرَفِ يوجين فالمونت؟ لا يا سيدي، أنا لن أُخدَع للمرَّةِ الثانية.
حينها، سردتُ له بسرعةٍ كلَّ ما فعله فالمونت من أجله، وحتى كرَّرتُ حواراته الأكثر خصوصيَّةً معه. اندهش الرجل بشدَّةٍ لكنه تماسَك.
وقال:
- أنا لا أجرؤ على فِعل هذا.
كنَّا بِمُفردنا في هذا المَتجر الخلفي، فسِرتُ إلى الباب وأغلقتُ التراس. ثم بعد لحظةٍ من السكون، استدرتُ ومددتُ يدي اليُمنى على نحوٍ درامي وصحت:
- انظر، ها هو يوجين فالمونت!
اندَهشَ صديقي بشدَّةٍ مما جعلَه يترنَّح ويسند ظهره للحائط، واستمررتُ في عرضي بنبرةٍ جادَّة:
- يوجين فالمونت الذي بكشفه لتنكُّره يضع حياته في يديك كما كانت حياتك في يديه. والآن يا سيدي، ماذا ستفعل؟
ردَّ قائلًا:
- سيِّد فالمونت، أنا سأفعل أيَّ شيءٍ تطلبه منِّي. لو أنني رفضتُ قبل لحظة، فقد كان هذا بسبب أنَّني اعتقدتُ أن يوجين فالمونت غير موجود الآن في فرنسا ليُصلِح خطئي إن ارتكبتُ واحدًا.
عدتُ إلى تَنكُّري وقلتُ له إنني أريد بديلًا غير مؤذٍ لتلك القنبلة المصنوعة من حمض البيكريك، واقترَح على الفور استخدام كرةٍ من الفخَّار، يكون وزنُها في مثل وزن القنبلة، ويُمكن تلوينُها لتُشبِهها تمامًا.
- والآن سيد فالمونت، هل تُريد أن يَصدُر دخان من تلك القنبلة الزائفة؟
قلت: - نعم، بأكبر قدرٍ يُمكنك ضغطه داخلها.

صاح قائلًا بحماسة فنانٍ فرنسيٍّ حقيقي: - هذا من السهل تنفيذه. وأضاف: - وهل يجوز لي أن أُضيف بعض الأشياء القليلة التي من ابتكاري، والتي ستُدهِش أصدقاءك الإنجليز، وستُسعِد أصدقائي الفرنسيين؟

قلت:

- سيدي، افعل ما تشاء. أنا أثِقُ في مهارتك في إتمام هذه المُهمَّة على خير وجه. وبعد أربعة أيام، حصلتُ على الكرة الزائفة واستبدَلتُها بالقنبلة الحقيقية، وألقيتُ، دون أن يراني أحد، القنبلة من على أحد الجسور في نهر السين.

في صباح يوم مسير المَوكب، كان عليَّ أن أجعله يَشرَب عدَّة كئوسٍ من الأفسنتين لأجعله يصِل لنُقطةٍ يمكن عندها الاعتماد عليه، وإلا فإن قلقه وعزمه على إلقاء القنبلة، وسُخطه على كلّ الحكومة، كانا من المؤكَّد أن يؤدِّيا لفضح أمرِنا قبل أن تأتي اللحظة الحاسِمة. لقد كان خوفي الوحيد يتمثَّل في عدَم قُدرَتي على إيقافه عن الشُّرب بمجرَّد أن يبدأ، لكن بدا بصورةٍ ما أن أيام رِفقتنا الحميمية، والتي كانت بَشِعةً بالنسبة إليَّ، كانت تُعيد من جديدٍ التأثير الذي كنتُ أمتلكه عليه في الماضي، وبدا غير مُدرِكٍ على نحوٍ تامٍّ لاستسلامه بنحوٍ أو بآخر لرَغَباتي، كان موكبُ الضيوف مُكوَّنًا بالكامل من عرباتٍ تجرُّها خيول، يركب في كلٍّ منها أربعة أشخاص؛ بحيث يَجلس إنجليزيان في المِقعد الخلفيّ ويجلس فرنسيَّان أمامهما. اصطفَّ جمعٌ غفيرٌ على جانِبَي الطريق، يهتفون على نحوٍ صاخب. ألقى سيمار قُنبلته في وسط المَوكِب تمامًا. لم يَصدُر صوت انفجار، بل انكسرتِ الكرة ببساطةٍ كما لو كانت إبريقًا من الفخَّار ثم تصاعَدَ منها عمودٌ كثيفٌ من الدخان شديد البياض. في المنطقة المُجاوِرة مُباشرة، توقَّف الهتاف على الفور وانتقلت كلمة - قنبلة المشئومة من شفاهٍ لأخرى في همساتٍ خائفة؛ ونظرًا لأن عمليَّة الإلقاء لم تُلاحَظ في وسط الهَيَاج الشعبي، فقد قبضتُ بقوَّةٍ على رسغ سيمار، وأمرتُه بألَّا يلفِتَ الأنظار إليه برغبته الناتِجة عن الذُّعر والمُتمثِّلة في الهروب الفوري.

همستُ في أُذنه قائلًا:

- قف ساكنًا أيها الأحمق! وقد أطاعني وهو يرتَجِف.

وقف الحصانان اللذان وقعتْ أمامهما القنبلة للحظةٍ على قوائمهما الخلفيَّة، وبدا عليهما علامات الفزَع والجُموح، لكن سائق العربة أمسك بلجامِهما بحزم، ورفع يدَه حتى يتوقَّف الرَّكب خلفه مؤقتًا. لم يُحرِّك أحدٌ في العربات ساكنًا، ثم فجأةً تبدَّدَ التوتُّر بفعل هتافٍ كبير ومُتزامن. تعجَّبتُ من هذا وحوَّلت عينيَّ من الحصانين الخائفين إلى عمود الدخان الباهِت الموجود أمامنا، ورأيت أنه على نحوٍ ما تحوَّل إلى زَهرة زنبق كالا ضخمة، خالصةِ البياض، وانبثق من أسفلِ هذا، الزنابق التي ترمُز إلى فرنسا، ذات ألوانٍ رقيقة. بالطبع، ما كان يُمكن أن يحدُث هذا إذا كان هناك أدنى قدْرٍ من الريح، لكن الهواء كان ساكنًا جدًّا لدرجة أنَّ الارتجاج الناتِج عن الهتاف جعل زهرة الزنبق الضخمة تهتزُّ بِخفَّة وهي تنتصبُ مُتَّزنةً على نحوٍ مُدهش؛ زهرة زنبق السلام وتُحيط بها الزنابق التي ترمُز إلى فرنسا! كان هذا هو التصميم، وإذا سألتني كيف نُفِّذ، فيُمكن فقط أن أُحيلك للجِرَفيّ الذي أنجزَه، وأقول لك: إن أيَّ شيءٍ يُحاول شخصٌ فرنسيٌّ أن يقوم به يُنجِزه على نحوٍ فني.

والآن وقف هؤلاء الإنجليز الرابطو الجأش، الذين كانوا يجلسون دون حِراكٍ عندما اعتقدوا أنه جرى إلقاء قنبلة، في عرباتهم ليَحصُلوا على رؤيةٍ أفضل لتلك الظاهرة الهوائية، وأخذوا يهتفون ويُلوِّحون بقُبَّعاتهم. أخذتِ الزهرة تتضاءلُ وتختفي في تجمُّعاتٍ صغيرة من السحاب كانت تمرُّ فوق رءوسنا.

قال سيمار مُتذمِّرًا ومُرتعدًا وأعصابه مُدمَّرة، شأنه تمامًا: - أنا لا أستطيع البقاء هنا لفترةٍ أطول. أرى أشباح من قتلتُهم تحوم حولي.

- إذن تحرَّكْ، لكن لا تُسْرع.

لم تكن هناك صعوبة في نقله إلى لندن، لكنَّه كان يتناول طوال الطريق كئوسًا من الأفسنتين، وعندما وصلْنا محطَّة تشارينج كروس، كان عليَّ أن أُساعده

على استقلال عربة أجرة؛ نظرًا لأنه كان شِبهَ غائبٍ عن الوعي. أخذته مُباشرةً إلى مبنى الإمبريال ثم إلى شقَّتي، حيث فتحتُ باب الغرفة التي كانت بمنزلة زِنزانةٍ وطرحته بالداخل؛ لينام حتى يزول أثرُ سُكره، ويقتات على الخبز والماء عندما يَستفيق، حضرت في تلك الليلة اجتماعًا للاسُلطويين وذكرتُ بالتفصيل قصَّةَ هروبنا من فرنسا. أعرف أننا كنَّا مُراقَبين؛ ولذلك لم أُغفل أيَّ تفصيلة. قلتُ لهم إنَّني أخذتُ سيمار مُباشرةً إلى شقَّة واحدٍ من أبناء بلدي؛ يوجين فالمونت، الرجل الذي وفَّر لي فرصة عمل، ووعد بفِعل كلِّ ما يستطيع من أجل سيمار، بدايةً من مُحاولة مُساعدته للإقلاع عن عادة مُعاقرة الأفسنتين، حيث إنه قد انهار بدنيًّا؛ بسبب إدمانه الشديد لهذا الشراب، من المُثير للاهتمام ذِكر تفاصيل النِّقاش الذي حدثَ بعدَ بضع ليالٍ بشأن فشَل العملية. قال العُلَماء من بيننا: إن القنبلة قد صُنِعت منذ فترة طويلة جدًّا فحدَث تفاعلٌ كيميائي بداخلها أدَّى إلى إضعاف تأثيرها، ورأى بعض الأعضاء المؤمنين بالخُرافات أن مُعجزةً قد حدثت وتركوا المنظمة على الفور. علاوةً على ذلك، سهَّل الأمورَ اختفاءُ الرجل الذي صنع القُنبلة، في اليوم السابق على سير المَوكب، والذي من الواضح أنه قد أصابه فزَعٌ شديد من جرَّاء ما حدث، وقد انقطعتْ أخباره منذ ذلك الحين. كان غالبية اللَّاسُلطويين يعتقدون أنه صَنع قُنبلةً زائفة، وأنه اختفى هربًا من انتقامهم وليس تجنُّبًا لعدالة القانون.

لن يحتاج سيمار إلى دخول المُطهِّر في العالم الآخر للتطهُّر من ذنوبه؛ فقد جعلتُه يعيش على الخُبز والماء لشهرٍ في زنزانتي. طلب في البداية تناوُل الأفسنتين مع بعض التهديد، ثم خنَع وأخذ يَستجْدِيني ويتوسَّل إليَّ لأجعله يشربه، وبعد ذلك مرَّت به فترة من الإحباط واليأس، لكن في النهاية بدأت بِنيَةُ جسمه القوية بطبيعتها في استعادة قوَّتها وبناء نفسها من جديد. أخذته في مُنتصف ليل أحد أيام حبسه ومَنحتُه سريرًا في غُرفتي بحيِّ سوهو، مع

الحِرص أثناء نقله على ألَّا يتعرَّف على الإطلاق على المكان الذي حُبس فيه. في تعاملي معه، كنتُ دائمًا ذلك الرجل العجوز، بول دوشارم. قلتُ له في صباح اليوم التالي: - لقد تحدَّثتَ عن يوجين فالمونت، وقد علمتُ أنه يعيش في لندن وأنصحُك بأن تزوره؛ فلربما يستطيع إيجاد عملٍ لك.

طار سيمار فرحًا، وبعد ساعتين استقبلتُه في شخصيَّة يوجين فالمونت في شقَّتي، وجعلته مُساعدي على الفور. ومنذ ذلك الحين، اختفى بول دوشارم مُعلم اللغة الفرنسية من الوجود، وهجَرَ سيمار الشيئَين اللذين كان يُدمِنهما؛ الفكر اللاسُلطوي وشراب الأفسنتين.

لغز
عصابة
شاردي الذهن

نَعِمتُ منذُ بِضع سنواتٍ ماضية بتَجرِبة فريدة؛ كُنتُ أُلاحِق فيها رَجُلًا متَّهمًا بجريمة، وكنتُ أسعى للحصول على دليلٍ يُثبِت تَورُّطه في أخرى. وعلى الرَّغم من تبرئته من الجريمة التي كنتُ أسعى وراء إثبات تورُّطِه فيها، فقد اتُّهِمَ بجريمةٍ أخرى أشدَّ خطورة. ومع ذلك فقد نجحَ هو وشركاؤه في الهُروب والإفلات دُون عقابٍ في ظروفٍ أعتزِم سردَها الآن.

قد تتذكَّرون في قِصَّة روديارد كيبلينج، - بيداليا هيرودزفوت ، كان زَوجُ المرأة المِسكينة يُواجِهُ خطرَ القبض عليه لِكونه سِكِّيرًا فحسْب، بينما كانت دِماءُ زَوجتِه تُلَطِّخ حِذاءه بعدما قَتَلَها. أمَّا قضية رالف سمرتريز، فكانت على النَّقيض تمامًا؛ إذ كانت السُّلطات الإنجليزية تُحاول أن تُلصِق به تُهمةً كادت تكون بِفداحة جرائم القتل، بينما كنتُ أنا أجمع الأدلَّة التي تُثبِت إدانَتَه بفعلٍ أكثرَ وأشدَّ جَسامةً من السُّكْر، دائمًا ما كانت السُّلطات الإنجليزية، حين تُدرِك وجودي من الأساس، تتفضَّل بمُعامَلتي بِدونيَّةٍ مَشوبة بالتَّلَذُّذ. فإذا سألتَ اليوم المُفتِّش سبنسر هيل، من شرطة سكوتلانديارد، عن رأيه في يوجين فالمونت، فسَيرسُم هذا الرَّجُل المَزهُوُّ بنفسه تِلك الابتسامة المُتكبِّرة التي تُعبِّر تمامًا عن شخصِيَّته. أمَّا إذا كُنتَ أحد أصدقائه المُقرَّبين، فقد يَخفِضُ جَفنَه الأيمن وهو يُجيب قائلًا:

- أوه! أجل، إنَّ فالمونت رَجُلٌ مُحترَم للغاية، ولكنَّه فرنسي. وكأنَّه بهذه العِبارة لم يكُن ثَمَّةَ حاجةٌ إلى قول المَزيد.

شخصيًّا، أُحبُّ هذا المُفتِّش الإنجليزي كثيرًا. وإذا ما تَورَّطْتُ يومًا في شِجار، فلن أختار أن يكون إلى جانِبي أيُّ رجلٍ سوى سبنسر هيل. سيكون صديقي هيل رفيقًا نافِعًا في أيِّ مَوقفٍ أحتاج فيه إلى قبضةٍ قويَّةٍ يُمكِنها أن تَطْرحَ ثَورًا أرضًا، ولكن فيما يَخصُّ التفكير والفِطنة وسَعةَ الحِيلة؛ أوه، حسنًا! أنا أكثر الناسِ تَواضُعًا ولن أقول شيئًا، سيكون من المُمتِع أن تَرَوا هذا العِملاق وهو يدخُل غُرفتي مساءً ويدَّعي كَذِبًا أنه يرغَب في تدخين غليونٍ معي. إنَّ الفرق

بيني وبين هذا العِملاق الطَّيِّب كالفرْق بين غليونِه الأسود الغليظ وبين سجائري الرَّقيقة التي أُدخِّنُها بِشراهةٍ في وجوده لأحمي نفسي من دُخان تَبْغِه الكريه. أنظرُ بِسرورٍ إلى هذا الرجل الضَّخم وهو يُحاوِل هباءً، بِخفَّة ظِلٍّ ولَمْعةٍ في عينَيه ظنًّا منه أنه قد نَجَح في خِداعي، الحصول مِنِّي على تلميحٍ يُساعِده فيما يَخصُّ أيَّ قضيةٍ تُحيّرُه في تلك اللحظة، بينما أُربِكُهُ أنا بِسهولةٍ تمامًا كما يُراوغ كلبُ صيدٍ كلبَ دِرواس ثقيل الوَزْن، ثُمَّ في النهاية أقول له ضاحِكًا:

- هيَّا يا عزيزي هيل، أخبِرْني بالأمر وسَأُساعِدك إن استَطعْت.

في البداية كان يهزُّ رأسهُ الضَّخمَ مرَّةً أو مَرَّتَين ويقول إن السِّرَّ لا يَخُصُّه. في آخِر مرَّةٍ فعل فيها هذا طمأنْتُه بأنَّ ما قاله كان صحيحًا تمامًا، ثم سرَدْتُ له التفاصيل الكامِلة للمَوقِف الذي وَجَد نفسه فيه، فيما عدا الأسماء لكونه لم يذكرها. لقد استَشْفَفْتُ حِيرتَه من بعض أجزاء حديثه معي على مدى نِصف ساعةٍ وهو يُحاوِل اصطِياد نَصيحتي التي كان يُمكِنه بلا شكٍّ أن يأخُذَها إذا طلَب مِنِّي ذلك صراحة. ومنذ ذلك الوقت لم يعُد يأتِيني إلَّا بالقضايا التي يَستشعِر حُريَّة إفشاء تفاصيلها. ولِحُسن الحظِّ تَمكَّنتُ من حلِّ مُعضِلةٍ أو اثنتَين له.

ولكن بِقَدْر إيمان سبنسر هيل الراسِخ بأنه لا تُوجَد دائرة تحقيقات على كوكب الأرض يُمكِنها أن تتفوَّق على دائرة تحقيقات سكوتلانديارد، إلَّا أنَّ ثَمَّةَ نَشاطًا بِعيْنِه حتى هو نَفسه يَعترِف بأنَّ الفرنسيين يتفوَّقون فيه، وإن كان يُخفِّفُ مِن اعترافِه هذا بِالقول إنَّنا في فرنسا يُسمَحُ لنا دَوْمًا بفعل ما يُحظَر فِعلُه في إنجلترا. ما أُشِير إليه هنا هو عمليَّة التَّفتيش الدَّقيق للمَنْزِل أثناء غياب مالِكه. إذا كنتُم قد قرأتُم قصَّة إدجار آلان بو البَديعة - الرِّسالة المسروقة ، فستَجِدون سَردًا لما أقصِده، وهو أفضلُ من أيِّ وَصْفٍ يُمكِن لشخصٍ مِثلي، كثيرًا ما شارَك في مِثل عمليَّات التفتيش هذه، أن يُسجِّله.

حاليًا يَفتخِر هؤلاء الناس الذين أعيشُ بينهم بِعبارتِهم الشهيرة - منزل الرَّجُل الإنجليزي هو حِصنُه ؛ إذ لا يُمكِن حتى لرَجُل شرطةٍ أن يَخترِقَه دُون أمرٍ قضائي. وهو ما قد يبدو من الناحية النظرية جَيِّدًا جدًّا، ولكنَّكم إذا اضطُرِرتُم للذَّهاب إلى بَيت أحدهم للتفتيش وأنتم تَنفُخون الأبواق وتَقرَعون الطبول، إذن عند الالتزام بجميع القُيود القانونية، لا داعِيَ للشُّعور بالإحباط إذا فشِلتُم في العثور على ما قد أَتيتُم بحثًا عنه. إن الإنجليزَ أُناسٌ مُمتازون بلا أدْنى شك، وهي حقيقةٌ أفتخِرُ دائمًا بقَوْلِها على الملأ، ولكن لا بُدَّ أن نَعترِف أنَّ الفرنسيين يَفوقونهم بكثيرٍ في استِخدام المَنطِق السَّديد. فإذا رَغِبتُ في الحصول على وَثيقةِ إدانة في باريس، لا أُرسِلُ إلى المالِك بِطاقةً بريدية أُطلِعُهُ فيها على رَغْبَتي، وهو إجراء يُؤيِّده الشَّعبُ الفرنسي بِكلِّ عقلانية. بل لقد عرَفتُ أشخاصًا يُلقون بِمفاتِيحهم إلى حارِس المبنى، حين يخرجون لقَضاء سهرةٍ بالخارج، قائلين:

- إذا سَمِعتَ أنَّ الشرطة تقوم بالتَّفتِيش في الأنحاء وأنا غَير موجود، فأرجو مِنك أنْ تُساعِدَهم وأن تُعبِّر لهم عن وافِر احترامي.

أتذكَّر أنَّني أثناء عملي كبيرًا للمُحقِّقين في الحكومة الفرنسية، كان يُطلَبُ مِنِّي أن أتَّصِل في ساعةٍ مُعيَّنة بالفندق الخاص بوزير الخارجية. كان ذلك في الوقت الذي كان يُخطِّط فيه بسمارك لهجومٍ ثانٍ على بلادي. ويَسرُّني القول إنَّني لعِبتُ دَورًا مِحوريًّا في تزويد المكتب السِّرِّي بِوثائق حَجَّمَت أهداف هذا الرجل الحديدي، وهوَ ما جعلَني أستَحقُّ، كما أعتقِد، العِرفان بالجميل من بلادي. وهذا لا يَعني أنَّني قد طالبتُ بهذا الحقِّ أو حتَّى أشرتُ إليه عندما تَنْسَى إحدى الوَزارات اللاحِقة الخدمات التي قدَّمتُها. فكما قال رجلٌ أعظم مِنِّي بكثيرٍ إنَّ ذَاكِرة الجمهورية قصيرة المدى. ومع ذلك، فكلُّ ما سَردْتُه آنِفًا ليس له أيُّ علاقةٍ بالواقِعة التي على وَشْك قصِّها. أنا فقط أذكُر هذه الأزمةَ لألتَمِس لهم عُذرَ النِّسيان المؤقَّت الذي ربما تَسبَّبَ لي في أيِّ بلدٍ آخر في

عَواقِب وَخِيمة. ولكن في فرنسا؛ حسنًا، نحن نتفَهَّم تلك الأمور، ولم يَحدُث أيُّ شيء.

كما يقولون في الغرب الكبير، أنا آخِرُ شخصٍ في العالَم يفقِد أعصابه. فأنا يوجين فالمونت الهادئ الرَّصِين الذي لا يُمكِن أن يُعكِّر صفوَهُ أيُّ شيء، ولكن تلك الفترة كانت من الفترات التي ازدادت فيها حدَّة التوتُّر، فأصبحتُ شاردًا. كنتُ وَحدي مع الوزير في مَنزله الخاصّ، وكانت واحدةٌ من الأوراق التي كان يرْغَبُ في الاطِّلاع عليها في مَكتبِه بِوَزارة الخارجيَّة؛ أو هكذا كان يَظُنُّ، وقال:

- أوه، إنها في دُرْج مَكتبي بالمكتب. يا له من شيءٍ مُزعِج! لا بُدَّ أن أُرسِل في طلَبِها!

انتفضتُ واقِفًا وصِحتُ ناسِيًا نفسي تمامًا: - إنها هنا. وعِندما لمستُ زُنبرك أحدِ الأدراج السِّرِّية، فتَحْتُه وأخرجتُ منه الوَثيقة التي يرغَبُ فيها وَسلَّمتُها إليه.

لم أُدرِك وَقْعَ ما فعلتُه إلَّا حينما التقَتْ عيني بنظرته الفاحِصة الحادَّة، ورأيتُ الابتسامة الباهِتة التي ارتَسَمتْ على شَفتَيه.

قال بهدوء: - لِصالِح من فتَّشتَ مَنزِلي يا فالمونت؟

أجبتُ بنبرةٍ لا تَقلُّ لُطفًا عن نَبرته قائلًا: - سعادة الوزير، تَنفيذًا لأوامِرك سأقوم بزِيارةٍ مَنزليَّة لقَصر البارون دومولان الذي يَحظى بتقديرٍ عالٍ ومكانةٍ بارِزةٍ لدى رئيس جمهورية فرنسا. إذا عَلِم أيٌّ مِن السَّيِّدَين المُوقَّرَين بِزيارتي غير الرَّسميَّة وسألاني لِصالِح مَن قُمتَ بتلك الزِّيارة المنزليَّة، فما الرَّدُّ الذي تَودُّ أن أُجِيب به؟

- ستقول يا فالمونت إنَّك قُمتَ بذلك لِصالِح وَكالة الاستِخبارات.

- هذا ما سأقوله يا سِيادة الوزير، وردًّا على السُّؤال الذي طرحتَه الآن، فقد شَرُفْتُ بتفتيش هذا القصر لِصالح وَكالة الاستِخبارات الفرنسية.

ضحِك وَزير الخارجية ضحكةً من القَلْب لا تَحمِل أيَّ ضَغينة قائلًا:

- أردتُ أن أُثني عليك فحسْب يا فالمونت، وعلى كفاءة تَفتيشِك وبَراعَةِ ذَاكِرتك. هذه هي فِعلًا الوثيقة التي اعتقدتُ أنَّني قد تركتُها في مكتبي.

أتساءلُ ماذا كان سيقول اللورد لانسداون لو أظهَرَ سبنسر هيل مَعرِفةً مُشابِهةً بأوراقِه الخاصَّة؟! ولكن الآن بعد أنْ عُدْنا إلى صديقنا العزيز هيل، فلا يَجِب أن نَدَعَهُ يَنتظِر أكثر من ذلك.

أتذكَّر جيِّدًا أحد أيام شهر نوفمبر عندما سمعتُ لأول مرَّةٍ عن قضية سمرتريز. ففي ذلك اليوم غطَّى الضباب الكثيف لندن، حتى إنَّني ضللتُ طريقي مرَّتين أو ثلاثَ مرَّات، ولم تَقبل أيُّ عربة أُجرة إقلالي مهما كان الثمن. فقد كان سائقو عرَبات الأُجرة القليلون الموجودون في الشارع يَقودون حيواناتهم ببطءٍ عبر الشارع ليَضَعوها في إسطبلاتها. كان واحدًا من تلك الأيام اللَّندَنية الكئيبة التي ملأتني ضَجَرًا وحنينًا لمدينتي باريس ذات الأجواء الصافية، التي إن حدَث وزارَنا فيها الضبابُ الخفيف، فإنه يكون عبارةً عن بخارٍ نقيّ أبيض اللون، وليس كهذا الخليط اللندني المُشبَّع بغازات الكربون الخانِقة. كان الضباب شديدَ الكثافة لدرجةٍ تَعذَّر معها على أيِّ عابرٍ قِراءة العناوين الرئيسية للصُّحف المُلصَقة على الرصيف، ولما لم يكن ثَمَّةَ أيُّ سباقاتٍ في ذلك اليوم على الأرجَح، كان بائعو الجرائد يَصيحون مُعلنين عمَّا اعتَبَروه الحدَث القادم الأهم، ألا وهي انتخابات الرئاسة الأمريكية. اشتريتُ صحيفةً ودَسَسْتُها في جَيبي. كان الوقتُ مُتأخِّرًا حين وصلتُ إلى شقَّتي، وبعد أن تناولتُ طعامي فيها على غير عادتي، ارتديتُ نَعليَّ واتَّخذتُ كُرسيًّا مُريحًا أمام المِدفأة، وبدأتُ في قراءة الصحيفة المسائية. شعرتُ بالأسى عندما علِمتُ أنَّ السيِّد برَيان المُفَوَّه قد هُزِمَ. لم أكن أعلم سوى القليل عن قضيَّة الفِضَّة، لكنَّ قُدراته الخَطابيَّة جَذَبتني وأثارت تَعاطُفي؛ لأنه كان يمتلِك العديد من مَناجِم الفِضَّة. وعلى الرَّغم من ذلك كان سِعر المعدِن مُنخفِضًا بشدَّة لدرجةِ أنَّه لم يكن قادِرًا، كما بدا، على كسب قُوتِه من خلال تشغيل تلك المناجم.

ولكن بالطبع تَسبَّبت الضَّجَّة التي أثارتها الدَّعاوى التي تردَّدَت مِرارًا وتِكرارًا عن كونه مِليونيرًا من طبقةِ الأغنياء ذَوي النفوذ في هزيمته في ديمقراطيَّةٍ يكون فيها الناخِب العادي شديدَ الفقر وغيرَ مَيسور الحال، كما هي الحال مع الفلَّاحين في فرنسا. لَطالَما أوليتُ اهتمامًا كبيرًا لشئون الجمهورية الشاسِعة التي تقعُ غربًا بعد أن بذلتُ جُهدًا كبيرًا في تثقيف نفسي تثقيفًا دقيقًا فيما يتعلَّق بِسياستها. وكما يَعلَم قُرَّائي، على الرَّغم من أنَّني نادرًا ما أقتبِس أيَّ مَديحٍ يُقالُ عنِّي، فقد اعترَفَ أحدُ عُملائي الأمريكيِّين مرَّةً بأنَّه لم يكن على علمٍ قط بِبَواطِن — أعتقد أنَّ هذه هيَ الكلِمة التي استخْدَمَها — السياسة الأمريكية حتى سَمِعَني وأنا أُلقي محاضرة عنها. ولكنه عاد وأضاف أنه كان دَومًا رجُلًا مَشغولًا طوال حياته.

تركتُ الصَّحيفة تنزلِق من يدي على الأرض؛ إذ كان الضَّباب في الواقِع يَخترِق حتى شَقَّتي، فأصبَح من الصَّعب القراءة، على الرَّغم من وجود ضوء المصباح الكهربي. دخل خادِمي وقال إن السيِّد سبنسر هيل يرغَب في رؤيتي، والحقُّ أنني في أيِّ ليلة، لا سيما في ليلةٍ مَطيرةٍ ضبابية كهذه، أكون أسعَدَ كثيرًا بِتَجاذُب أطرافِ الحديث مع صديقٍ من قراءة صحيفة.

- يا إلهي، عزيزي السيِّد هيل، يا لك من رَجُلٍ شُجاع أنْ تَخرجَ في مِثل هذا الضَّباب الكثيف الليلة!

قال هيل بِفَخر:

- أوه سيِّد فالمونت، لا يُمكِن أن تَتحمَّلوا ضبابًا كهذا في باريس. أليس كذلك؟

أجبتُ مُقرًّا وأنا أنهض لِتَحيَّة ضَيفي وإجلاسه: - بلى، أنتُم تتفوَّقُون في ذلك.

قال وهو يُشير إلى صحيفتي:

- أرى أنك تقرأ آخِر الأخبار. أنا مسرورٌ بشدَّةٍ أنَّ هذا الرجل برَيان قد هُزِمَ؛ الآنَ سنَحظَى بأوقاتٍ أفضل.

لوَّحْتُ بيدي وأنا أُعاوِد الجلوس مرةً أخرى. لا أمانِع مُناقَشة الكثير من الأشياء مع سبنسر هيل، إلَّا السياسة الأمريكية؛ فهو لا يَفقَه فيها شيئًا. فَمِن العيوب الشائعة لدى الإنجليز ما يُعانونه من جَهلٍ تامٍّ فيما يتعلَّق بالشئون الداخلية للبِلاد الأخرى.

- من المؤكَّد أنَّ أمرًا مُهِمًّا هو ما دَفَعَك للخروج في ليلةٍ كهذه. لا بُدَّ أنَّ الضباب كثيفٌ جدًّا في سكوتلانديارد.

لم يفهَم هيل هذا التَّشبيه الرَّقيق إطلاقًا، وأجاب بِبلادةٍ قائلًا:

- إنَّ الضَّباب كثيفٌ في جميع أنحاء لَندن، بل في مُعظَم أنحاء إنجلترا.

وافقتُه الرَّأي قائلًا:

- نعم إنه كذلك. ولكنَّه لم يَفهَم هذا الردَّ أيضًا.

ولكن بعد بُرهةٍ أبدى مُلاحظةً لو تَفوَّه بها بعض الناس الذين أعرفُهم، لدلَّتْ على قليلٍ من الفَهم.

- أنتَ رَجُلٌ شديد الذكاء يا سيِّد فالمونت؛ لذا كُلُّ ما أحتاج لقولِه هو أن المسألة التي دَفعَتْني للقُدوم إلى هنا هي نفسها التي كان يَتنافَس عليها المُرشَّحون في الانتخابات الأمريكية. حسنًا، لو كنتَ مُواطِنًا عاديًّا، كنتُ سأُضطرُّ لتقديم المزيد من الشرح، ولكن بالنسبة لك يا سيِّدي، لن يكون ذلك ضروريًّا.

في بعض الأوقات أبغَضُ تلك الابتِسامة الماكِرة وإغماضة العَينَين الجزئيَّة اللَّتَين دائمًا ما تُميِّزان سبنسر هيل عندما يَطرَح قضية يَتوقَّع أنها سَتُحيِّرني. سأكون مُخطِئًا بالطَّبع إذا قلتُ إنَّه لم يُحيِّرني قط؛ فأحيانًا ما تدفَعُني البساطة الشديدة للألغاز التي تُؤرِّقه إلى تعقيدٍ لا دَاعيَ له تمامًا للأمور في ظِلِّ الظروف المُحِيطة بها، غَطَّتُ أطراف أصابعي معًا، وحدَّقْتُ لبِضع لحظاتٍ في السَّقْف. كان هيل قد أشعَل غليونه الأسود، ووضعَ خادِمي الصامِت عندَ

مَرفِقه الويسكي والصودا ثُمَّ خرَج من الغُرفة بهدوءٍ تام. وعندما أغلَقَ الباب، تحرَّكَتْ عيناي من السَّقفِ إلى مُستوى وَجْهِ هيل الضَّخم.

سألتُه بهدوء: - هل هَربوا منك؟

- من؟

- مُزيّفو العُملات.

وقعَ غليون هيل من فمه، ولكنَّه نجَح في التقاطه قبل أن يصِل إلى الأرض، ثم احتسى جرعةً من الكأس.

- كان هذا التَّخمين مُجرَّد ضربة حظ.

أجبْتُ بلا مُبالاةٍ قائلًا:

- بالضبط.

- اعترِف الآن يا فالمونت! كانت ضربةَ حظ، أليس كذلك؟

هززتُ كَتِفيَّ بلا مُبالاة؛ إذ لا يَصِحُّ أن يُخالِف المرء ضَيفَه في الرأي وهو في مَنزله، صاح هيل بِوقاحةٍ قائلًا: - أوه كُفَّ عن ذلك! عادةً ما يميل هيل قليلًا لاستِخدام التعبيرات الحادَّة بل السُّوقيَّة عندما يكون مُرتبِكًا. - أخبِرني كيفَ خَمَّنْتَ ذلك!

- الأمر بسيط للغاية يا عزيزي؛ المسألة التي كان يتنافَس عليها المُرَشَّحون في الانتخابات الأمريكية هي سِعر الفِضَّة المُنخفِض بِشدَّة، لدرجة أنه قد دَمَّر السيد برَبان بالفعل، ويُهدِّد بتدمير جميع مُزارعي الغرب الذين يَمتلِكون مَناجم فِضَّة في مَزارعهم. إن الفِضَّة تُثير قَلَق أمريكا؛ وبالتالي فهي تُثير قَلَق سكوتلانديارد.

حسنًا، الاستِنتاج الطَّبيعي هوَ أنَّ شَخصًا ما قد سرَق سبائك الفِضَّة، ولكنَّ واقِعةَ السَّرِقة هذه حدثَتْ قَبل ثَلاثةِ أشهُرٍ أثناء تفريغ المعدِن من سفينةٍ بُخارية ألمانية في ساوثامبتون، وصديقي العزيز هيل قَبَض على اللُّصوص بذكاءٍ شديد بينما كانوا يُحاوِلون إذابَةَ العَلامات من فوق السَّبائك باستِخدام

الحِمض. إنَّ الجرائم الآن لا تُرتكَب بِتسلسلٍ مِثل الأرقام في لُعبةِ الروليت بمونت كارلو؛ فاللُّصوص أشخاصٌ أذكياء. هُم يقولون لأنفسهم: - ما فُرصتُنا في سرقة سبائك الفضة بنجاح والسيد هيل يعمل في سكوتلانديارد؟ أليس كذلك يا صديقي العزيز؟

قال هيل وهو يحتَسي رَشفةً أخرى،

- بحقّ يا فالمونت، في بعض الأحيان تُقنِعني بأنَّك تَتمتَّع بقدراتٍ استدلالية.

- أشكرُك يا رفيقي. إذن فما علينا التَّعامُل معه الآن ليس عملية - سرقة الفضة؛ فالمعركة في الانتخابات الأمريكية كانت على سِعر الفضة؛ فلو كان سِعرها مُرتفعًا، لما وُجدَت هذه المسألة من الأساس. إذن فالجريمة التي تُؤرِّقك نابِعة من السِّعر المُتدنّي للفضة، وهو ما يُشير إلى أنها لا بُدَّ أن تكون قَضيَّة سَكِّ نُقودٍ بصورةٍ غير شرعية. وهنا يأتي دَور السِّعر المُنخفِض للمعدن. لقد كَشَفْتَ على الأرجح فِعلًا غيرَ قانوني لم يكن ظاهِرًا من قبلُ كما هو الآن؛ ثَمَّةَ شخصٌ يَسُكُّ عملات الشِّلِن والنِّصف الكراون التي تَستخدمونها من الفِضَّة الحقيقية بدلًا من المعدن الأساسي الرَّخيص، وعلى الرَّغم من ذلك، يُحقِّق رِبحًا كبيرًا لم يَتَسَنَّ تحقيقه حتى الآن مع ارتِفاع سِعر الفضة. لقد كنتُ مُلِمًّا بالوَضع سَابقًا، ولكنَّ هذا العنصر الجديد الذي أُضيف يُلغي صِيَغَكم السابقة بالكامل. هذه هي الطريقة التي فَسَّرتُ بها الأمر.

- حسنًا، لقد أصبتَ كبِدَ الحقيقة يا فالمونت. أنت مُحقٌّ تمامًا. تُوجَد عصابةٌ مُحنَّكة من مُزيّفي العُملات الذين يَصنعون عُملاتنا من الفِضَّة الحقيقية ويُوزِّعونها للتَّداول، ويَسُكُّون عُملةَ الشلن على عُملة النِّصف الكراون. لا يُمكِنُنا أن نَجِد أيَّ أثرٍ لمُزَيّفي العُملات، ولكنَّنا نعرِف الرجل المسئول عن تسيير هذه الأمور.

أشرتُ قائلًا:

- يُفترَض أن يكون هذا كافيًا.

- أجل، ولكن لم يَثبُت هذا حتى الآن؛ ولقد أتيتُ الليلةَ لأرى إذا ما كان يُمكِنك أن تُساعِدنا بإحدى حِيلِكَ الفرنسية سِرًّا.

تساءلتُ ببعضِ الجِدَّة ناسِيًا لوهلةٍ كيف أنَّ هيل دائمًا ما يكون غير مُهذَّبٍ عندما ينفعل:

- أيَّ حيلةٍ فرنسية تَقصِد يا سيِّد سبنسر هيل؟

- لم أقصِد أيَّ إساءة. هكذا ردَّ هذا الشُّرطي الأحمَق الذي هو في الحقيقة شخصٌ طيِّب، ولكنَّه دائمًا ما يردُّ رُدودًا مُحرِجة ثُمَّ يعتذِر عما قاله. ثم أوضح قائلًا: - أريد شخصًا يدخُل منزِل أحدِهم دُون أمر تَفتيشٍ ويعثُر على الأدِلَّة ثم يُخبرني، بعد ذلك سَنُهرَع إلى المنزل قبل أن يَتمكَّن من إخفاء آثاره.

- من هذا الرجُل وأين يعيش؟

- اسمه رالف سمرتريز، ويعيش في مَسكنٍ صغير الحجم وفخمٍ يقَعُ في شارع بارك لين الذي يُعدُّ، كما تَصِفه إعلانات العقارات، أكثَرَ الشوارع رُقيًّا.

- فهمتُ قصدَك. وما الذي أثار شُكوكَكَ تِجاهَه؟

- حسنًا، كما تعلَم، إنَّ تكاليف المعيشة في ذلك الحيِّ باهِظة؛ لذا لا بُدَّ أن يكون لدَيك ما يكفي من المال لتنفيذ الحِيلة. هذا المدعو سمرتريز ليس لدَيهِ أيُّ عملٍ واضِح، ولكنَّه يذهب كلَّ يوم جُمعة إلى بنك المال المُتَّحِد في بيكاديللي ويُودِعُ كيسًا من النُّقود التي عادةً ما تَكون كلُّها عبارةً عن عُملات فضيَّة.

- أجل، وماذا عن هذه الأموال؟

- ما نعرِفه حتى الآن أنَّ هذه الأموال تحتوي على الكثير من هذه القِطَع النقديَّة الجديدة التي لم تَمُرَّ على دارِ سَكِّ النُّقود البريطانية أبدًا.

- إذَن فليستْ كُلُّ الأموال من العُملات النقديَّة الجديدة. أليس كذلك؟

- أوه كلَّا، إنه أذكى بِكثيرٍ من أن يفعَل شيئًا كهذا. كما ترى يُمكِن لأيِّ شخصٍ أن يجوب لندن وجُيوبه مملوءةٌ بالعُملات المعدنية الجديدة من فئة الخمسة الشلنات، ويَشتري هذا وذاك وتلك، ثم يعود إلى مَنزِله ومعه الباقي على هيئة

عُملاتٍ قانونية من الفئات نفسها: عملاتُ النِّصف الكراون والفلورين والشلنات والستَّة البِنسات وما إلى ذلك.

- فهمت. إذن لماذا لا تَقبِض عليه في أحد الأيام التي تكون فيها جُيوبه مُمتلِئةً بِقِطَع الخمسة الشلنات غير الشرعية؟

- يمكِن تنفيذ ذلك بالطبع، وقد خطَر ببالي بالفعل، ولكنَّنا نرغَب في الإمساك بالعِصابة كلِّها كما تعلَم. فَبِمُجرَّد القبضِ عليه دُون معرفة مصدر الأموال، سيهرُب المُزَيّفون الحقيقيون.

- ومن أين جاء لك أنه ليسَ المُزيّف الحقيقي؟

هنا أصبحَ هيل المسكين ككتابٍ مفتوح. فقد تردَّد قبل أن يُجيب على هذا السؤال، وبدا مُرتبِكًا كأنه مُجرِم أُمسِكَ به مُتلبِّسًا بفعلٍ احتيالي، قلتُ مُطمئنًا له بعد فترة صَمتٍ قصيرة:

- لا داعِيَ للخَوف من إخباري، لقد جَعلْتَ أحد رِجالك يدخُل إلى مَنزِل السيِّد سمرتريز بالفعل، ومن ثَمَّ عرفتَ أنَّه ليسَ هو مُزيّف النقود. ولكن لم يَنجَح رَجُلُك في الحصول لك على أدِلَّةٍ لإدانة الآخرين.

- لقد أَصبْتَ مرَّةً ثانية يا سيِّد فالمونت. لقد عَمِل أحد رجالي رئيسًا للخدَم في منزل سمرتريز ولكنه، كما قُلتَ، لم يَعثُر على أيِّ أدِلَّة.

- هل لا يزال يعمل خادِمًا لديه؟

- أجل.

- حسنًا أخبرني بآخر ما تَوصَّلتَ إليه. ما تَعرِفه هو أنَّ سمرتريز يُودِع كِيسًا من النُّقود المعدنية كلَّ يوم جمعة في بنك بيكاديللي. وأعتقِد أنَّ البنك قد سمحَ لك بِفَحْص كِيسٍ أو اثنين من أكياس نُقوده.

- أجل يا سيِّدي، ولكن كما تَعْلَم، مِن الصَّعب كثيرًا التَّعامُل مع البنوك؛ فهم لا يُحبُّون أن يَجوب المُحَقِّقون المكان ويُزعِجوهم. وعلى الرغم من أنهم لا

يقِفون ضدَّ القانون، فهم لا يُجيبون على أيّ أسئلةٍ أكثر ممَّا يُوجَّه إليهم، وقَد كان السيد سمرتريز عميلًا جيدًا لدى البنك لسنواتٍ عديدة.

- ألم تكتشِف مصدر الأموال؟

- بلى فعلنا؛ يُحضِرها كلَّ ليلةٍ رجل يبدو كأنه كاتِب مُحترَم بالمدينة ويضَعُها في خِزانةٍ ضخمة، هو من يحمِل مفاتيحها، وهذه الخِزانة في الطابق الأرضي، في غُرفة الطعام.

- هل تَتَبَّعتَ الكاتب؟

- أجل، إنه يبيتُ في منزل بارك لين كلَّ ليلةٍ ويذَهب في الصباح إلى مَتْجرٍ قديم للسِّلَع الغريبة في طريق توتنهام كُورت ويَظلُّ هناك طوال اليوم، ثُمَّ يعود بِحقيبةٍ من النُّقود في المساء.

- لماذا لا تُلقي القَبض عليه وتَستجْوِبه؟

- حسنًا يا سيِّد فالمونت، المانع الذي يَحول دُون اعتقالِه هو عينُه الذي يَحول دُون اعتقال سمرتريز. يُمكِنُنا بِسهولةٍ القَبضُ عليهما، ولكن ليس لدَينا أيُّ دليلٍ ضِدَّ أيّ منهما، ثم إنَّنا إذا زَجَجْنا بالوُسَطاء في السجن، فسيهرُب أعتى مُجرِمي العِصابة.

- هل يُوجَد أيُّ شيءٍ يُثير الرِّيبة فيما يَخُصُّ مَتْجر السلع الغريبة القديم؟

- لا، يبدو عاديًّا تمامًا.

- منذُ متى بدأتُم مراقبة هذه اللعبة؟

- منذ نحو ستَّة أسابيع.

- هل سمرتريز مُتزوِّج؟

- لا.

- هل تُوجَد أيُّ خادِمات في المنزل؟

- لا، فيما عدا تِلك الخادِمات الثلاث اللاتي يأتينَ كلَّ صباحٍ لتنظيف الغُرف.

- مَن يَسكُن معه في البيت؟

- كبير الخدَم والخادِم، وأخيرًا الطبَّاخ الفرنسي.

صحتُ قائلًا:

- أوه، الطبَّاخ الفرنسي! هذه القضيَّة تثير اهتمامي. إذَن هل نَجَح سمرتريز بالكامل في إرباك رَجُلِكَ؟ هل حالَ دُون تفتيشه المَنزِل تَفتيشًا شامِلًا؟

- أوه لا، لم يُعطِّله بل سَاعَده؛ فقد ذَهَب في إحدى المرَّات إلى الخِزانة وأخذَ المال وجعل بودجرز — هذا هو اسم رَجُلي — يُساعِده في عَدِّهِ، ثم أرسَلَ بودجرز إلى البَنْك ومعه كيس النقود.

- وهل تَجوَّل بودجرز في جميع أنحاء المكان؟

- نعم.

- ولم يجِد أيَّ أماراتٍ لعمليَّة سَكِّ نقود؟

- لا، من المُستحيل تمامًا أن تَتِمَّ أيُّ عمليات سَكٍّ هناك. علاوةً على ذلك، كما قلتُ لك، من يجلُب له المال هو هذا الكاتِب المحترَم.

- أظنُّك تُريدني أن أَحُلَّ مَحلَّ بودجرز. أليس كذلك؟

- حسنًا يا سيد فالمونت، أصدُقُك القول، أنا لا أُفَضِّل ذلك. فقد فعل بودجرز أقصى ما يُمكِن لأيِّ إنسانٍ فعله، ولكنَّني فكَّرتُ في أنك إذا دخلتَ المنزل بمساعدة بودجرز، فَسيُمكِنك تفتيشه تفتيشًا دقيقًا كلَّ ليلةٍ في وَقتِ فَرَاغِك.

- فهِمْت، أعتقدُ أنَّ هذا الأمرَ خطير بعضَ الشيء في إنجلترا. أظنُّ أنَّني أُفَضِّل تأمين نفسي بأن أكونَ الخَلَفَ الشَّرْعِيَّ للسيد بودجرز اللطيف. تقول إن سمرتريز ليس لديه عمل؟

- حسنًا يا سيدي، ليس ما يُمكِنُك أن تُسمِّيه عملًا؛ إنه مُؤلِّفٌ بالمناسبة، ولكنَّني لا أعتَبِرُ ذلك عملًا.

- أوه، مُؤلِّف؟ متى يجلِس للكتابة؟

- إنه لا يَبرَح مَكتَبه مُعظَم اليوم.

- هل يَخرُج لتَناوُل الغداء؟

- لا، إنه يُضيء مِصباحًا خافتًا داخل مكتبه كما يخبرني بودجرز، ويَصنَع لنفسه فنجانًا من القَهوَةِ ويَحتَسِيه مع شَطيرةٍ أو اثنتين.

- هذا طعامٌ رَخيص بالنِّسبة إلى شخصٍ يَسكُن في بارك لين.

- صحيح يا سيد فالمونت، إنَّه كذلك، ولكنَّه يُعوِّض ذلك في المساء عندما يَتناوَل عشاءً طويلًا ممَّا لذَّ وطاب من الأطباق الأجنبيَّة التي تُحبُّونها أنتم، والتي يَطهُوها طبَّاخه الفرنسي.

- إنه رجلٌ عاقل! حسنًا يا هيل، سأتطلَّع بِكلِّ سُرورٍ إلى التَّعرُّف على السيد سمرتريز. هل تُوجَد أيُّ قيودٍ على تَحرُّكات رَجُلِك بودجرز؟

- لا، على الإطلاق، يُمكِنُه الخروج ليلًا أو نهارًا.

- رائع يا صديقي هيل، أَحضِرْه إلى هُنا غدًا بِمُجرَّد دخول مُؤلِّفِنا إلى مَكتبه، أو الأفضل، كما أعتقِد، بِمُجرَّد مُغادَرة الكاتب المُحتَرَم إلى طريق توتنهام كورت الذي أعتقِد، وبحسْبِ ما قُلت، يقَع على بُعد حَوالي نِصف ساعة، بعد أن يُسَلِّم سَيِّده مَفاتيح الغُرفة التي يكتُب فيها.

- أنت مُحقٌّ في هذا التخمين يا فالمونت، كيف توصَّلْتَ إليه؟

- إنه مُجرَّد تَكهُّن يا هيل. هذا المَنزِل شديد الغرابة؛ لذا فلا يُفاجِئني إطلاقًا أنَّ السيد يبدأ العمل قبل خادِمه. وتُساوِرُني شُكوكٌ أيضًا في أنَّ رالف سمرتريز يَعلَم تمام المَعرِفة سببَ وجود السيد بودجرز المُحتَرَم في مَنزله.

- ما الذي يَجعلُك تَظنُّ ذلك؟

- لا يُمكِنني أن أُقدِّم سببًا سوى أنَّ رأيي في فِطنةِ سمرتريز يتأكَّد تَدريجيًّا طوال حديثك، بينما يَتَراجع تقييمي لِمَهارة بودجرز باطِّراد. ومع ذلك، أَحضِرْه معك إلى هنا غدًا لكي أسألَه بعض الأسئلة.

في اليوم التالي في حوالي الساعة الحادية عشرة، تَبِع بودجرز المُتعَبُ رئيسه إلى شقَّتي مُمسِكًا قُبَّعته في يده. وَجْهُه الجامِد العريض والأملَس جعلَه يبدو كرئيس خدَمٍ بالفعل أكثر مما تَوقَّعت، وقد عزَّزَت البزَّة الرَّسمية التي كان يرتديها مَظهرَه بلا شك. كانت إجاباته على أسئلتي تعكس أنه خادِم مُدرَّب جَيدًا على ألَّا يقول الكثير إن لم يكُن يَستحقُّ الأمر ذلك. لقد فاقَ بودجرز تَوقَّعاتي عُمومًا، وكان لصديقي هيل حقًّا بعضُ العُذْر لاعتباره انتِصارًا لجهته، وهو ما كان بالفِعل على نحوٍ جَلِي.

- اجلِس يا سيِّد هيل، وأنت يا بودجرز.

تجاهَلَ بودجرز دَعوتي له بالجلوس وظلَّ واقِفًا كالصَّنَم حتى أشار له رئيسه؛ حينئذٍ خارَ جالِسًا على الكرسي. إن الإنجليز رائعون فيما يَخُصُّ الانضِباط.

- والآن يا سيِّد هيل، لا بُدَّ أنْ أُهنِّئك أوَّلًا على هيئة بودجرز، إنها مُمتازة؛ فأنتُم تَعتمِدون هنا على المُساعدة الاصطناعية بِصورة أقل ممَّا نفعَل في فرنسا، وأعتقد أنكم مُحقُّون في ذلك.

ردَّ هيل بفخرٍ يُمكِن غُفرانه:

- أوه، إنَّ لدَيْنا مِن العِلم ما يكفي هنا يا سيِّد فالمونت.

- والآن يا بودجرز، أُريد أن أسألَكَ عن هذا الكاتِب، في أيِّ وقتٍ من المساء يصِل؟

- في تمام السادسة يا سيِّدي.

- هل يرنُّ الجرس أم يدخل باستخدام مِفتاح مِزلاج الباب؟

- يدخل باستِخدام مِفتاح المِزلاج يا سيِّدي.

- كيف يَحمِل المال؟

- في حقيبةٍ جِلديَّة صغيرة ومُقفَلة يحمِلُها على كتِفِه يا سيدي.

- هل يتَّجِه إلى غُرفة الطعام مُباشرةً؟

- أجل يا سيِّدي.

- هل رأيتَه وهو يَفتح الخِزانة ويَضَع المال داخلها؟

- أجل يا سيِّدي.

- هل تُفتَحُ الخِزانة باستِخدام مِفتاحٍ أم كلِمة سِر؟

- باستِخدام مِفتاحٍ يا سيِّدي، إنها مِن الطِّراز القديم.

- ثمَّ يَفتح الكاتِب حقيبة النقود الجلدية التي يحملها حينئذ؟

- أجل يا سيِّدي.

- هذا يعني أن ثلاثة مَفاتيح قد استُخدِمت في غُضون بِضع دقائق؛ هل هي مُنفَصِلة أم موضوعة في سلسلة؟

- في سلسلة يا سيِّدي.

- هل رأيت سيِّدَك على الإطلاق وهو يحمِل سلسلة المفاتيح هذه؟

- لا يا سيِّدي.

- علمتُ أنَّك قد رأيتَه وهو يفتَح الخِزانة في إحدى المرَّات. أهذا صحيح؟

- أجل يا سيِّدي.

- هل استخدَم مِفتاحًا مُنفصلًا أم أحد المفاتيح الموجودة في السلسلة؟

حكَّ بودجرز رأسَه ببطءٍ ثُمَّ قال:

- لا أتذكَّر يا سيِّدي.

- آه يا بودجرز، إنك تُهمِل الأشياء المُهِمَّة في ذلك المنزل. هل أنت مُتأكِّد أنك لا تستطيع تَذكُّر هذا الأمر؟

- لا يا سيِّدي.

- وبِمُجرَّد أن يَستقرَّ المال داخل الخِزانة ثُمَّ تُقفَل، ماذا يفعَل الكاتِب؟

- يذهَبُ إلى غرفته يا سيِّدي.

- أين تقَع غُرفته؟

- في الطابق الثالث يا سيِّدي.

- وأين تنام أنت؟

- في الطابق الرابع مع بقيَّة الخدَم يا سيِّدي.

- وأين ينام سيِّد المنزل؟

- في الطابق الثاني بِجوار غُرفة مكتبه.

- يتكوَّن المنزِل من أربعة طوابق وبدروم. أليس كذلك؟

- بلى يا سيِّدي.

- لقد توصَّلتُ بطريقةٍ ما إلى الشكِّ في أنَّ المنزل ضَيِّقٌ للغاية. فهل هذا صحيح؟

- أجل يا سيِّدي.

- هل يجلِس الكاتِب مع سيِّدك لتَناوُل العَشاء؟

- لا يا سيِّدي، لا يَتناوَل الكاتب الطعام في المنزل أبدًا.

- هل يخرج قبل ميعاد الإفطار؟

- لا يا سيدي.

- ألا يُحضِرُ أيُّ شخصٍ وَجبةَ الإفطار إلى غُرفتِه؟

- لا يا سيِّدي.

- في أيِّ وقتٍ يُغادِر المنزل؟

- في العاشرة يا سيِّدي.

- متى تُقَدَّم وجبة الإفطار؟

- في التاسعة يا سيِّدي.

- في أيِّ ساعةٍ يأوِي سيِّدُك إلى غُرفة مَكتبِه؟

- في التاسعة والنِّصف يا سيِّدي.

- وهل يُغلِق الباب من الداخل؟

- أجل يا سيِّدي.

- ألا يَقْرَع الجرسَ طالِبًا أيَّ شيءٍ خلال اليوم على الإطلاق؟

- على حَدِّ عِلمي، لا يا سيِّدي.

- أيُّ نَوعٍ من الرجال هو؟

هنا كان الأمر مألوفًا بالنِّسبة لبودجرز، واسترسَل في وَصفٍ دقيقٍ لكلِّ شيء.

- ما قَصدْتُه يا بودجرز هوَ هل هوَ ثَرثارٌ أم هادِئ؟ هل يَغضَب؟ هل يبدو ماكِرًا، مُتشكِّكًا، قَلِقًا، مَرعُوبًا، هادئًا، مُنفعلًا، أم ماذا؟

- حسنًا يا سيِّدي، إنه يَتَّسِم بالهدوء الشديد ولا يقول الكثير، ولم أرَه غاضِبًا أو مُنفعلًا من قبل.

- حسنًا يا بودجرز، لقد قضيْتَ أسبوعين أو أكثر في منزل بارك لين، وأنت رجلٌ حاذقٌ حادُّ الانتِباه ويَقِظٌ، فما الذي يحدُث في ذلك المنزِل وترى أنه غير عادي؟

ردَّ بودجرز وهو ينظُر ببؤسٍ نوعًا ما إلى رئيسه، ثُمَّ إليَّ، ثُمَّ إلى رئيسه مرَّةً ثانية:

- حسنًا، لا يُمكِنُني القَطْع بِشيءٍ يا سيِّدي.

- لقد كانت واجِباتُك المهنيَّة تضطرُّكَ في الغالِب أن تلعَبَ دَور رئيس الخدَم من قبل، وإلَّا لما كُنتَ بهذه البَراعَة في أدائه. هل أنا مُحِق؟

لم يُجِب بودجرز بل استرَقَ نَظْرةً إلى رئيسه خِلسة. كان مِن الواضِح أنَّ هذا السؤال من الأسئلة المُتعلِّقة بدائرة التحقيقات، والتي لا يُسمَح للمرءوسين بالإجابة عليها. غير أن هيل سارَع فورًا بالردِّ قائلًا:

- بالتأكيد، لقد خدَم بودجرز في العديد من الأماكن.

- حسنًا يا بودجرز، فقط تذكَّرْ بَعض المنازل الأخرى التي عَمِلتَ فيها وأخبِرْني عن التفاصيل التي يختلِف فيها مَنزل السيد سمرتريز عن غيره من المنازل.

فَكَّرَ بودجرز طويلًا ثم قال:

- حسَنًا يا سيِّدي، إنه مُتعلِّق بالكِتابة بِشدَّة.

- أوه، إنها مِهنَتُه كما تعلَم يا بودجرز؛ إنه ينكَبُّ على الكِتابة من الساعة التاسِعة والنصف حتى السابعة كما أعتقِد. أليس كذلك؟

- بلى يا سيِّدي.

- هل لديك أيُّ شيءٍ آخر تُريد أن تُضِيفَه يا بودجرز مَهما كان تافِهًا؟

- حسَنًا يا سيِّدي، إنه مُولَع بالقراءة أيضًا، مُولَع بقراءة الصُّحف على الأقل.

- متى يقرأ؟

- لم أرَه قطُّ وهو يقرؤها يا سيِّدي؛ بل، على حسب عِلمي، فالصحف لم تُفتَح مُطلقًا، ولكنَّه يأخذُها كلها داخل الغُرفة يا سيِّدي.

- ماذا؟ كلُّ الصحف الصباحيَّة؟

- أجل يا سيدي، والمسائية أيضًا.

- أين تُوضَع الصحفُ الصباحيَّة؟

- على الطاولة في غُرفة مَكتبِه يا سيِّدي.

- والصحف المسائية؟

- حسنًا، عندما تأتي الصحفُ المسائية يا سيدي، تكون غُرفة المكتب مُقفَلة؛ لذا تُوضَع على طاولةٍ جانبية في غُرفة الطعام ثُمَّ يأخذها معه إلى الطابقِ العُلويِّ إلى غُرفة مكتبِه.

- هل يحدُث هذا الأمر كلَّ يومٍ منذ أن عَمِلتَ في المنزل؟

- أجل يا سيِّدي.

- وقد ذكرتَ هذه الحقيقة المُدهِشة لرئيسك بالطبع. صحيح؟

قال بودجرز مُرتبِكًا:

- لا يا سيِّدي، لا أظنُّني قد فعلتُ.

- كان عليك أن تُخبِره. فقد كان السيد هيل سيعرِف كيف يَستفيد أقصى استفادةٍ مُمكِنة من معلومةٍ مُهمَّة كهذه.

قاطَعَني هيل قائلًا:

- أوه بربِّك يا فالمونت، إنك تُمازِحنا! كثيرٌ من الناس يَشترون كلَّ الصحف!

- لا أظنُّ ذلك، فحتَّى النوادي والفنادِق لا تشترِك إلا في الصُّحف الرئيسية فقط. لقد قلتَ كلَّ الصحفِ يا بودجرز كما أعتَقِد. أليس كذلك؟

- حسنًا، كلُّها - تقريبًا يا سيدي.

- ولكن أيٌّ منها؟ فثَمَّة اختلافٌ كبير بين الصحف وبعضها.

- يأخُذ الكثير منها يا سيِّدي.

- كم يأخذ؟

- لا أعلم يا سيدي.

صاح هيل بالقليل من نفادِ الصَّبر قائلًا: - يُمكِن اكتِشاف ذلك بِسهولةٍ يا فالمونت إذا كُنتَ تعتقِد أنه أمرٌ مهمٌّ حقًّا.

- أعتقِد أنَّ الأمر شديدُ الأهميَّة لدرجة أنَّني سأعود مع بودجرز بنفسي. أعتقدُ أنَّك يُمكِنُك أن تُدخِلَني إلى المنزِل عند عَودتِك. أليس كذلك؟

- أوه، بلى يا سيِّدي.

- لِنَعُد للحظةٍ إلى الصُّحف يا بودجرز. ماذا يَفعلون بها؟

- تُباع إلى أحد تُجَّار الأشياء البالِيَة مرَّةً كلَّ أسبوع.

- ومَن الذي يأخُذُها من غُرفة المكتب؟

- أنا يا سيِّدي.

- وهل تبدو أنها قد قُرِئت بِعنايةٍ شديدة؟

- حسنًا، لا يا سيدي، يبدو بعضها على الأقلِّ لم يُفتَح إطلاقًا، أو طُوِيَت بعنايةٍ شديدةٍ مرَّةً أخرى.

- هل لاحظتَ أنَّ بعض أجزاءٍ منها قد قُصَّت؟

- لا يا سيدي.

- هل يحتفِظ السيد سمرتريز بسِجلِّ قُصاصات؟

- لا أعرف يا سيِّدي.

قلتُ وأنا أضطجع في مقعدي وأتفحَّص وجه هيل الحائر ووَجْهي يرتَسِم عليه ذلك التعبير الملائكي الذي ينمُّ عن رِضًا ذاتي، وهو ما أعلمُ أنه يُزعِجُه كثيرًا: - أوه، إن القضيَّة واضحةٌ تمامًا.

ردَّ بخشونةٍ زائدة ربما تخرِق آدابَ السُّلوك قائلًا:

- ما هو الواضِح تمامًا؟

- سمرتريز ليس مُزيّف عُملةٍ وليس على علاقةٍ بأيٍّ من عِصابات مُزيّفي العُملات.

- ما دَورُه إذن؟

- آه، هذا يَفتحُ مَجالًا آخَرَ للتَّحقيق. كلُّ ما أعرِفه هو أنه على العكس مما نتصوَّر، قد يكون أكثرَ الناس صِدقًا. قد يبدو في الظاهر أنه تاجِر كادِح إلى حدٍّ كبير في طريق كورت توتنهام يَشعر بالقلق من عدم وجود صِلةٍ واضِحة بين مجال عمله العادي ومَسكِنه الفَخم في بارك لين.

عند هذه النُّقطة، ارتَسَم على وجه سبنسر هيل بريق الفَهم الذي نادِرًا ما يَظهر، ويُدهِش أصدقاءه دومًا عند ظُهورِه.

ردَّ هيل قائلًا:

- هذا هُراء يا سيِّد فالمونت؛ فالرجل الذي يَخجَل من الصِّلة بين عمله ومَنزِله هو شخصٌ يُحاوِل الانخِراط في المجتمع، أو تُحاوِل نساء عائلته ذلك، كما هي الحال في أغلَب الأحيان. وسمرتريز ليس لديه عائلة، وهو نفسه لا يذهب إلى أيِّ مكان، ولا يَستضيف الناس في منزله ولا يقبل منهم دعوات، كما أنه غير مُشترِك بأيِّ نادٍ؛ ومن ثَم، فالقول إنه يَخجَل من صِلتِه بالمتجر الكائن على طريق توتنهام كورت يُنافي العقل. إنه يُخفِي هذه الصِّلة لسببٍ آخر يَحتاج النَّظر فيه.

- أوه يا عزيزي هيل، حتى إلَهةُ الحِكمة نفسها لم تكن لتُدلي بملاحظات بهذا القدْر من المنطقيَّة. والآن يا عزيزي، أما زلتَ ترغَبُ في مُساعدتي أم لديك ما يكفي من المعلومات لتُواصِل القضية؟

- ما يَكفي من المعلومات لأُواصِل القضية؟! ليس لَدَينا أيُّ معلوماتٍ أكثرَ مما كان لدينا حينما اتَّصلتُ بك ليلةَ أمس.

- ليلة أمس يا عزيزي هيل كنتَ تفترِض أنَّ هذا الرجُل مُتواطئٌ مع مُزيّفي العُملات، واليوم صِرتَ تعلَم أنه ليس كذلك.

- أعلم أنَّك - تقول إنه ليس مُتواطئًا معهم.

هززتُ كتِفيَّ ورفعتُ حاجبيَّ وابتسمتُ له.

- الأمر سِيَّان يا سيِّد هيل.

- حسنًا، من بين كلِّ المغرورين ... ولكن هيل الطيِّب لم يَستطِع الاستِفاضة أكثرَ من ذلك.

- إذا كنتَ تحتاج مُساعدتي، فهي لك.

- جيِّد جدًّا، بِمُنتهى الصَّراحة ودون خَجَل، أجل، أحتاجُها.

- في تلك الحالة ستعود يا عزيزي بودجرز إلى مَنزِل صديقنا سمرتريز وستَحزِم جميع صُحف الأمس الصباحية والمسائية التي تمَّ تَوصيلها إلى المنزل وتُحضِرها لي. هل يُمكِنك فِعل ذلك، أم أنها في كَومةٍ غير مُرتَّبة في قَبو الفحم؟

- يُمكِنُني فِعل ذلك يا سيدي. لديَّ تعليمات بأن أضَعَ صُحف اليوم في كومةٍ مُنفصِلة حال احتاجوها مرَّةً أخرى. تُوجَد دائمًا إمدادات أسبوعٍ كامل من الصحف في القَبْو، ونبيع صحفَ الأسبوع السابق لتاجرِ الأشياء البالية.

- ممتاز! حسنًا، خاطِر باستِخراج صُحف يومٍ واحد وجهّزها لي. سأمرُّ عليك في تمام الثالثة والنصف وبعدها أريدُك أن تأخُذَني إلى غُرفة الكاتب بالطابق الثالث، والتي أعتقِد أنها لا تكون مُقفَلةً خلال النهار. أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، لا تكون مُقفَلَة.

همَّ بودجرز الصَّبور بالرحيل، ونهضَ سبنسر هيل عندما رحلَ مُساعِده.

سألني قائلًا:

- هل ثَمَّة أيُّ شيءٍ آخر يُمكِنني فِعله؟

- أجل، أعطِني عنوان المَتجَر الموجود في طريق توتنهام كورت. هل لديك واحدةٌ مِن قِطع الخمسة الشلنات الجديدة التي تَعتَقِد أنها سُكَّت على نحوٍ غير قانوني؟

فتح محفظة جَيبِه وأخرَجَ منها قطعةَ المَعدِن الأبيَض وأعطاني إياها، قلتُ وأنا أضعها في جيبي:

- سأمرُّ قبل المساء لأُعيدَها إليك وأتمنَّى ألا يُلقي أحدٌ من رجالك القبض عليَّ.

ضحِك هيل وهوَ يهمُّ بالخروج قائلًا: (لا عليك.)

كان بودجرز في انتظاري في تمام الثالثة والنصف وفتح الباب الأمامي بينما كنتُ أصعَد الدَّرَج، مما أعفاني من دقِّ الجرس. بدا المنزل هادئًا على نحوٍ غريب. كان من الواضِح أنَّ الطبَّاخ الفرنسي في البدروم، وكان الجزء العُلويُّ بأكمله مُتاحًا لنا على الأرجح، اللهم إلَّا إن كان سمرتريز في غُرفة مكتبه، وهو ما أشك فيه. قادَني بودجرز إلى أعلى مُباشرةً إلى غرفة الكاتب في الطابق الثالث وهو يسير على أطراف أصابعه في تكتُّم وصمتٍ مُطبِق على نحوٍ مُبالَغ فيه، وهو ما وَجدتُه غير ضروريٍّ على الإطلاق.

قلتُ لبودجرز:

- سأفحَصُ هذه الغرفة. رجاءً انتظرْني بالأسفل عند باب غرفة المكتب.

اتَّضَح أن حجم غُرفة النَّوم يُعتبَر كبيرًا مُقارنةً بصِغَر حجم المنزل. كان السَّرير مُرتَّبًا بإتقان، وكان في الغرفة مقعدان، ولكن الحوض المخصَّص لغسل الوجه واليدين ومرآة الزِّينة لم يكونا ظاهرَين. ولكن حينما رأيتُ ستارة في نهاية الغُرفة أزَحْتُها، وكما توقَّعت، وجدتُ حَوضًا في أحد الأركان عُمقه أربع أقدام وعَرضُه خمس تقريبًا. وبما أن الغرفة كانت بعرْض خمس عشرة قدمًا تقريبًا، فقد كان ثُلثا المساحة المُتبقِّية غير مُستغلَّة. بعد لحظةٍ فتحتُ بابًا ظهر خلفه خزانة تمتلئ بالملابس المُعلَّقة على خطَّاف، وهو ما ترك مساحة خمس أقدام بين خزانة الملابس وحوض الغسل. اعتقدتُ في البداية أنَّ

المدخل إلى السُلَّم السريّ لا بُدَّ أن تكون بِدايته من عند الحوض، ولكن بفَحْص الألواح الخشبيَّة جيدًا، وعلى الرَّغم من أنها بدَتْ جَوفاء حتى المفصَّلات، فقد كان واضحًا أنها كانت مُجرَّد ألواحٍ مُعشَّقة، وليست بابًا خفيًّا. إذن، لا بُدَّ أنَّ المدخل إلى السُلَّم يبدأ من خزانة الملابس. ولكن اتَّضح أنَّ الجِدار الأيمن شَبيهٌ بالألواح الخشبية المُعَشَّقة الموجودة عند الحَوض من حيث الشكل والملمَس، ولكنَّني لاحظتُ على الفَور أنه كان بابًا. اتَّضح أن مِزلاج الباب يُفتَح ويُغلَق بصورةٍ مُبتَكرة عن طريق واحدٍ من الخطَّافات التي تحمِل سراويل قديمة. اكتشفتُ أنَّه بالضغط على الخطَّاف لأعلى، يُفتَح الباب إلى الخارج فوق بداية السُلَّم مُباشرة. وبالنزول إلى الطابق الثاني، قادَني مِزلاجٌ شَبيهٌ إلى خِزانة ملابس مُشابهةٍ في الغُرفة السُفليَّة. كانت الغُرفَتان مُتماثِلَتَين في الحجم، إحداهما فوق الأُخرى مُباشرة. كان الفرْق الوحيد هو أنَّ باب الغُرفة السُفلية يُفضي إلى غُرفة المكتب، بدَلًا من أن يُفضي إلى الرَّدهة كما هي الحال في الغُرفة العُلويَّة.

كانت غرفة المكتب أنيقةً ومرتَّبة على نحوٍ استثنائي، إمَّا لأنها لم تُستخدَم كثيرًا، أو لأنَّ ساكِنَها رجلٌ مُنَظَّم بشدَّة. لم يكُن على الطاولة أيُّ شيءٍ سوى كَومةٍ من صُحف هذا الصباح. مَشيتُ إلى نهاية الغرفة، وأدرْتُ المفتاح في القُفل وخرجتُ لأجِدَ نفسي في مُواجَهة بودجرز الذي ارتَسَمتْ على وجهه أمارات الاندِهاش.

صاح في دَهشةٍ قائلًا:

- لا أُصدِّق عينيَّ!

فأجبتُه قائلًا:

- فعلًا، لقد كنتَ تسير على أطراف أصابِعك أمام غُرفةٍ فارغة خلال الأسبوعين الماضيين؛ والآنَ إذا أتيتَ معي يا بودجرز، فسأُريك كيفيَّةَ القِيام بالخدعة.

أغلقتُ الباب مرةً أخرى عندما دخل غرفة المكتب، وقدتُ رئيس الخدَم المُزيَّف، الذي كان لا يزال يسير على أطراف أصابعه بِحُكم العادة أعلى الدَّرَج إلى غرفة النوم العُلوية، ثم خارجها مرَّةً أخرى، تاركَين كلَّ شيءٍ كما كان تمامًا. نزلْنا عبر الَّدرَج الرئيسي إلى الرَّدهة الأمامية، وهناك أتاني بودجرز برِزْمةِ الصحف التي طلبتُها وهي مُغلَّفةً بإحكام. أخذتُ الرِّزْمة إلى شقَّتي، وأعطيتُ أحد مُساعديَّ بعض التعليمات وتركتُه يعمل على الصحف، أخذتُ عربة أجرة إلى نهاية طريق كورت توتنهام ومَشيتُ عبر الشَّارع وُصولًا إلى مَتجر الغرائب القديم - جيه سيمبسون . بعد التَّحديق في نوافِذ العرض المُكتظَّة لبعض الوقت، تنحيتُ جانبًا بعد أن اخترتُ صليبًا صغيرًا مصنوعًا من الحديد كان معروضًا خلف اللَّوح الزُّجاجي، وكان يبدو أنه مِن صُنع أحد الحِرَفِيِّين القُدامى، علمتُ على الفَور من وَصف بودجرز أنَّ من كان في استقبالي هو الكاتِب المُحتَرَم الحقيقي الذي يُحضِر حقيبةَ النُّقود كلَّ ليلةٍ إلى بارك لين، والذي كنتُ مُتأكِّدًا من أنه هو رالف سمرتريز نفسه، لم يكن في أسلوبه شيءٌ يَختلِف عن أسلوب أيِّ بائعٍ هادئ آخر. كان سِعر الصليب سبعةَ شلنات وستة بنسات، فأخرجتُ عُملةً ذهبيَّة لأدفَع ثمنه، فسألني:

- هل تُمانِع لو أعطيتُك الباقي كلَّه عُملاتٍ فِضيَّة يا سيدي؟ فأجبتُ دون إبداء أيِّ لهفة، على الرغم من أنَّ سُؤاله قد أثار بِداخِلي شُكوكًا كانت قد بدأت تَقِلُّ شيئًا فشيئًا:

- لا، على الإطلاق.

أعطاني نصف كراون، وثلاثَ قِطَعٍ معدِنية من فِئة الشِّلِنَين، وأربعة شلنات مُنفصِلة، وكانت جميعها عُملاتٍ فضيَّةً باليَةً مِن كثرة الاستِخدام، وهي بلا شكٍّ المُنتَج الخالي من أيِّ شكلٍ فنِّي جَمالي لدار سَكِّ النقود البريطانية الشهيرة. بدا في ذلك ما يَدحَضُ النظريَّة القائلة إنَّه يتخلَّص من النقود غير الشرعية. سألني إن كنتُ مُهتمًّا بفرعٍ مُعيَّنٍ من فُروع التُّحَف القديمة، وأجبتُه

أنَّ فُضولي مُجرَّد فضولٍ عامٍّ لهاوٍ يَفتقِر إلى الخِبرة. عندئذٍ دَعاني لأُلقِيَ نظرةً على المكان، وهو ما شرعتُ فيه فعلًا، بينما استأنفَ هو عَنونةَ ودَمْغ بعضٍ من الكُتيِّبات المُغَلَّفة التي خَمَّنْتُ أنها نُسَخٌ من قائمة سِلَعِهِ.

لم يُحاوِل مُراقَبَتي ولا الضغط عليَّ لشِراء بضاعته. اخترتُ عشوائيًّا مَحبرَةً صغيرة وسألتُ عن سِعرِها، فقال إنه شِلِنَان، فأخرجتُ قِطعةَ الخمسة الشلنات المُزيَّفة التي كانت معي. فأخذَها وأعطاني الباقي دُون أن ينبِس بِبِنت شَفة، لتتلاشى بذلك آخِرُ ذرَّةِ شكٍّ كانت لديَّ حول صِلته بمُزيِّفي العُملات، في هذه اللحظة، دخل شابٌّ أدركتُ على الفَور أنه ليس زبونًا، وسار بسرعةٍ إلى آخِر المَتْجر واختفى خلفَ حاجِزٍ لم يكن يَحتوي سوى على لَوحٍ زُجاجيٍّ واحدٍ يُواجِهُ الباب الأمامي.

قال صاحِب المتجر:

- اسمح لي بلَحظات ، ثُم تَبِع الشابَّ إلى مكتبه الخاص.

بينما كنتُ أفحص المجموعة الغريبة غير المُتجانِسة من السِّلع المعروضة، سمعتُ صرير العُملات المعدنية وهي تُفَرَّغ على السطح الخشبيّ لأحد المكاتب أو على طاولةٍ غير مُغطَّاة، وتَسلَّلتْ إلى مسامِعي أصوات هَمهمة. كنتُ أقِف بالقُرب من مَدخل المتجر، وبخفَّة يَدٍ أخذتُ مِفتاح الباب الأمامي دُون صوت وأنا أرمُق بجانِب عيني اللَّوحَ الزجاجي للمكتَب الخاصّ وطبعتُ نسخةً من المِفتاح على قطعةِ شمعٍ ثُمَّ أعدتُه إلى مكانه مرةً أخرى خِلسة. في هذه اللحظة دخل شابٌّ آخر ومرَّ أمامي مُتَّجهًا نحو المكتب الخاص، وسمعتُه يقول :

- أوه، أستميحُك عُذرًا يا سيد سيمبسون. كيف حالك يا روجرز؟

حيَّاه روجرز قائلًا:

- مرحبًا، ماكفيرسون ، وخرج بعد ذلك وتمنَّى ليلةً سعيدة للسيد ماكفيرسون، وغادر المتجَر إلى الشارع وهو يصفر، ولكنَّه كرَّرَ العِبارة نفسها

مرَّةً أخرى وهو يُحيّي شابًّا آخَرَ دعاه تيريل، كان قد دخل المتجر في وقت مُغادَرته نفسه.

دَوَّنتُ هذه الأسماء في عقلي. دخل اثنان آخران، ولكنَّني اضطُرِرتُ إلى الاكتفاء بحِفظ ملامِحِهما؛ إذ لم أعرف اسمَيهما. كان واضحًا أنهما مُحصِّلا أموال؛ إذ سمعتُ صرير العُملات في كلِّ حقيبة؛ في حين أنَّ المتجَر كان صغيرًا، لا يبيع سوى القليل، ولأكثر من نصف ساعةٍ قضيتُها داخل المتجر، كنتُ أنا الزبون الوحيد. لو كانت ثَمَّةَ ثِقةٌ كافِية بينهم، لكان مُحصِّلٌ واحِد كافيًا بالتأكيد، إلَّا أنَّ خمسة آخرين دخلوا المتجر وأفرغوا عُملاتهم فوق الكَومة التي يُفتَرض أن يأخذها سمرتريز معه إلى المنزل في تلك الليلة، عزمتُ أن آخُذَ واحدًا من الكُتيِّبات التي كان يُعنونِها البائع. كانت مُكدَّسة فوق رفٍّ خلفَ طاولة البيع، ولكنَّني لم أجِد صعوبةً في أنْ أمُدَّ يدي وآخذ الكُتيِّب الأول الذي دَسستُه في جيبي. عندما خرج الرجل الخامس من المتجر مُتوجهًا إلى الشارع، ظهر سمرتريز نفسه، وكان يحمِل في يده هذه المرة الحقيبة الجِلدية المملوءة بالمال وكانت أحزِمَتها مُتدلية. كانت الساعة الآن تقترِب من الخامسة والنِّصف، ورأيتُ أنه كان مُتلهِّفًا لإغلاق المَتجَر والذَّهاب.

سألني قائلًا:

- هل أعجبَك أيُّ شيءٍ آخر يا سيدي؟

- لا، أو بالأحرى لا ونعم؛ لديك مجموعة مُثيرة للاهتمام هنا، ولكن الظلام يحلُّ حتى إنَّني لا أستطيع الرؤية جيدًا.

- أنا أُغلِق المتجر في الخامسة والنصف يا سيدي.

قلتُ وأنا أتفحَّص ساعتي: - أوه، في هذه الحالة سيكون من دواعي سُروري أن أمرَّ بِك في وقتٍ آخر.

ردَّ سمرتريز بهدوءٍ قائلًا: - شُكرًا لك سيدي. وهَممتُ بالرحيل.

من ناصِيَة زقاقٍ على الجانب الآخر من الشارع، رأيتُه وهو يُغلق مِصراع النافذة بيديه، ثُمَّ ظهر مُرتديًا مِعطفًا وحقيبة المال الجِلديَّة تتدلَّى من فوق كَتِفه. أغلق الباب ودفعه بأصابعه ليتأكد أنه قد أُغلِق جيدًا، ثم مشى في الشارع حاملًا تحت إحدى ذِراعيه الكُتيِّبات التي كان يُعنونها. تَبِعتُه من بُعدٍ ورأيتُه وهو يرمي الكُتيِّبات في صندوق أول مَكتب بريد مرَّ به، ثُمَّ سار مُسرعًا نحوَ منزله في بارك لين.

عندما عدتُ إلى شقَّتي واستدعيتُ مُساعِدي، قال:

- بعدما استبعدتُ الإعلانات العاديَّة للأقراص والصابون وما إلى ذلك، وجدتُ شيئًا واحِدًا مُشتركًا بين جميع الصحف الصبَّاحية والمسائية على حدٍّ سواء. لقد وجدتُ أنَّ الإعلانات ليست مُتطابِقة يا سيدي، ولكنها تشترِك في شَيئَين، أو ربما ثلاثة أشياء لأكون دقيقًا؛ كلها تَدَّعي تقديم علاجٍ لشُرود الذِّهن، وكلها تتطلَّب أن يُوضِّح المُتقدِّمون هوايَتهم الأساسية، وكلها تحمِل العنوان نفسه: دكتور ويلوبي، طريق توتنهام كورت، شكرتُه بينما كان يَضَع قُصاصات الإعلانات أمامي، قرأتُ العديد من الإعلانات وكانت جميعها صغيرة، وربما لذلك لم ألحَظ أيًّا منها في الصحف، وقد كانت بلا شكٍّ غريبةً بما يكفي. فقد طَلَبَ البعض منها قوائم بالأشخاص الذين يُعانون من شُرود الذِّهن، وهوايات كلِّ واحدٍ منهم، ولقاء هذه القوائم سَتُقدَّم جوائز بداية من شِلنٍ واحدٍ إلى ستة شلنات. وفي قُصاصاتٍ أخرى، ادَّعى دكتور ويلوبي أنه قادِر على علاج شُرود الذهن. لم تكن ثَمَّةَ رُسوم ولا علاج، بل كُتيِّب سيُرسَل إلى المُهتمين، إذا لم يَستفِد منه من تلقَّاه، فهو على الأقلِّ لن يَضُرَّه. لن يتمكن الطبيب من مُقابلة المرضى شخصيًّا، ولا يُمكِنه أن يتبادل المُراسَلات معهم. وكان العنوان الموضَّح هو نفس عنوان متجر الغرائب القديم في طريق توتنهام كورت. عند هذه النُّقطة، أخرجتُ الكُتيِّب من جيبي ووجدتُه بعنوان - العلم المسيحي وشُرود الذهن ، من تأليف دكتور ستامفورد ويلوبي، وكانت العبارة

نفسها الواردة في الإعلانات مَوجودة في نِهاية المقال: دكتور ويلوبي لن يرى المرضى ولن يتبادَل المُراسَلات معهم، سحبتُ ورقةً نحوي وكتبتُ إلى الدكتور ويلوبي زاعِمًا أنَّني رجلٌ يُعاني من شُرود الذهن الشديد، وأنَّني سأكون سَعيدًا بتلقِّي كُتيِّبه، مُضيفًا أن هُوايَتي هي جمع الطَّبعات الأولى، ثم وقَّعتُ تحت اسم وعنوان: - ألبورت ويبستر، شقق إمبريال، لندن، المنطقة البريدية الغربية.

يُمكِنُني توضيح الأمر هنا بأنه غالِبًا ما يكون من الضروري بالنِّسبة إليَّ استِخدام أسماء أخرى غير اسمي المعروف، يوجين فالمونت. يُوجَد بابان لشقَّتي، مكتوب على واحدٍ منهما - يوجين فالمونت ؛ بينما مُثبَّتٌ على الآخر حامِل زُجاجي مُفرَّغ يمكن أن يُوضَع فيه لَوح زجاجي مُنزَلِق يحمِل أيَّ اسمٍ مُستعار أختاره. تُوجَد الحوامِل الزُّجاجية نفسها في الطابق الأرض، أغلقتُ الخِطاب وعَنْونتُه وخَتمتُه، ثم أخبرتُ مُساعِدي أن يَضَع على اللَّوح الزُّجاجي بالباب اسم - ألبورت ويبستر ، وأن يُحدِّد مَوعد زيارةٍ أخرى إذا حدث وأتى أيُّ شخصٍ لزيارة هذا الرجل الوَهميّ ولم أكن مَوجودًا حينئذٍ.

كانت الساعة السادِسة تقريبًا من عصر اليوم التالي عندما أرسَل أنجوس ماكفيرسون بطاقته إلى السيد ألبورت ويبستر. تعرَّفتُ على هذا الشاب على الفَور بِوصفِه الشابَّ الثاني الذي دخل المتجر الصغير البارِحة حامِلًا مُساهمَتَه النقدية إلى السيد سيمبسون. كان يحمِل تحت ذِراعه ثلاثة مُجلَّدات، وكان يتحدَّث بأسلوبٍ لطيفٍ دَمِث لا يخلو من التَّملُّق نَوعًا ما، فعرفتُ على الفَور أنه كان ماهرًا في مِهنة الترويج للسِّلَع التي كان يشتغلها.

- لتجلس يا سيد ماكفيرسون، كيف يُمكِنُني مُساعدتك؟

وضَعَ المُجَلَّدات الثلاثة وظهرُها إلى أعلى على طاولتي.

- هل أنت مُهتَمٌّ بالإصدارات الأولى يا سيد ويبستر؟

أجبتُ قائلًا: - إنه الشيءُ الوحيد الذي أهتمُّ به؛ ولكن لسوء الحظ، غالبًا ما تتكلَّف الكثير من المال.

قال ماكفيرسون في تعاطُف: - هذا حقيقي، ولديَّ هنا ثلاثة كُتب، واحدٌ منها هو مِثال على ما تقول؛ إذ تبلُغ تكلِفَته مائة جنيه. آخر نُسخةٍ بِيعت بالمزاد في لندن كانت تكلفتُها مائةً وثلاثةً وعشرين جُنيهًا. أما تكلفة الكتاب الثاني فتبلُغ أربعين جنيهًا، والثالث عشرة جُنيهات. أنا واثِقٌ أنك لن تَجِد نظيرًا لهذه الكُنوز الثلاثة في أيِّ متجر بَيع كُتُب في بريطانيا بهذه الأسعار، تفحَّصتُها بدقَّة، لأُدرِك على الفَور أنَّ ما يقوله صحيح. كان لا يزال واقفًا على الجانب الآخر من الطاولة.

- اجلس أرجوك يا سيد ماكفيرسون. هل تَعني أنك تَجوب لندن حامِلًا تحت ذِراعك بضاعةً بِقيمة مائة وخمسين جنيهًا بهذا الاستهتار؟

ضحك الشاب.

- المخاطر شِبْهُ مَعدومة يا سيد ويبستر. أعتقد أنَّ أيَّ شخصٍ أُقابِله سيَتخيَّل أنَّ المُجلَّدات الثلاثة التي أحمِلُها تحت ذِراعي ما هي إلَّا كُتب رخيصة اشتريتُها لقاء ثمنٍ زهيدٍ لا يَتجاوَز أربعة بنسات فقط.

تأمَّلتُ المُجلَّد الذي طلَب لقاءَهُ مائة جُنيه، ثم قلتُ وأنا أنظُر إليه عبر الطاولة:

- كيف آل إليك هذا الكِتاب مثلًا؟

التفَتَ إليَّ بأسارير صافِيةٍ غير مُتحفِّظة وأجاب دُون تردُّدٍ وبأقصى قدْرٍ مُمكِن من الصراحة قائلًا:

- في الواقع أنا لا أمتلِكُه يا سيد ويبستر. أنا خبير في الكُتُب النادِرة والقَيِّمة، وإن كنتُ بالطبع لا أملك سوى القليل من المال، فلا يُمكِنني شراؤها. غير أنَّني على دِرايةٍ بِمُحبِّي الكُتب المطلوبة في مُختلِف أنحاء لندن. هذه المُجلَّدات الثلاثة، على سبيل المثال، من مكتبة زبونٍ خاصٍّ في ويست إند، كان يرغب في بيعِها لِقاء ثمن يُضاهي قِيمَتَها الحقيقية، وقد تفضَّل بالسَّماح لي بإجراء

المفاوضات. لقد اتخذتُ من اكتِشاف من يَهتمُّون بالكُتب النادِرة عملًا لي، وبهذه المُقايَضة أزِيد من دَخلي إلى حدٍّ كبير.

- كيف عرفتَ على سبيل المثال أنني مُحبٌّ للكتُب؟

ضحِك السيد ماكفيرسون بحرارة.

- حسنًا يا سيد ويبستر لا بد أن أعترِف أنه كان من قَبيل الصُّدفة. أفعل ذلك في الكثير من الأحيان، أمرُّ بشقةٍ كهذه مثلًا، وأُرسِل بطاقتي للاسم الموجود على الباب؛ فإذا دَعاني الشخص لزيارته، أسألُه السؤال الذي سألتُك إياه الآن: - هل أنت مُهتمٌّ بالإصدارات النادِرة؟ إذا كان جَوابه بالنفي، أعتذِر منه وأغادِر، وإذا جاء بالإيجاب، أعرِض عليه بِضاعتي.

أومأتُ قائلًا:

- فهمت. يا له من لَبِقٍ كاذِب صغير، بوجهِه البريء هذا! ولكن السؤال الذي طرحتُه تاليًا هو ما كشَفَ الحقيقة.

- بما أنَّ هذه هي المرَّة الأولى التي تزورُني فيها يا سيد ماكفيرسون، فلن تُمانع، كما أظنُّ، أن أطرَح عليك سؤالًا آخر. هل تُمانع إخباري باسم صاحِب هذه الكُتب في ويست إند؟

- اسمه السيِّد رالف سمرتريز من بارك لين.

- من بارك لين؟ آه، بالطبع.

- سأكون مسرورًا بأن أترُك الكُتب معك يا سيد ويبستر، وإذا كُنتَ مُهتمًّا بتحديد مِيعادٍ مع السيد سمرتريز، فأنا مُتأكد من أنه لن يَتوانى عن تأييد ما قُلتُه.

- أوه، أنا لا أشكُّ في ذلك، ولا أرغَب في إزعاج هذا السيِّد المحترَم.

أردفَ الشابُّ قائلًا:

- كنتُ سأُخبِرك أنَّ لي صديقًا مَيسور الحال، يَدعمُني نوعًا ما؛ فأنا كما أخبرتُك، لا أملك سوى القليل من المال. غالبًا ما أجِد أنَّ دفْع مبلغٍ كبير من

المال يكون غير مُناسِبٍ بالنِّسبة إلى الناس. ولكنَّني عندما أعقِد صفقة، يشتري صديقي الثريُّ الكتاب، بينما أتَّفِقُ مع زُبوني أن يَدفع مَبلغًا مُحدَّدًا كلَّ أسبوع، وبالتالي لا يَشعر بأنه قد دفع مبلغًا كبيرًا حتى لو كانت السِّلعة مُرتفعة السِّعر، إذ إنَّني أُقَسِّط المبلغَ على دفعاتٍ صغيرة بما يكفي لتُناسِب زبوني.

- أنت تعمل خلال النهار كما أعتقِد. أليس كذلك؟

- بلى، أنا كاتِب في المنطقة التجارية في لندن.

ها نحن أولاء نعود إلى عالم الخيال البهيج!

- لنفترِض أنَّني اشتريتُ هذا الكتاب لقاء عشرة جنيهات، فما المبلغ الذي يتعيَّن عليَّ دَفعُه كلَّ أسبوع؟

- أوه، كما ترغَبُ يا سيدي؛ هل خمسةُ شِلنات مبلغ كبير؟

- لا أعتقد ذلك.

- حسنًا، إذا دفعتَ لي خمسة شلنات الآن يا سيدي، سأترُك الكِتاب معك، وسيُسعِدني أن أمرَّ عليك في اليوم نفسه من الأسبوع القادِم للحصول على الدفعة التالية.

وضعتُ يدي في جَيبي وأخرجتُ عُملتَين نِصف كراون وأعطيتُه إياهما.

- هل أحتاجُ لتَوقيع أيِّ استمارةٍ أو تعهُّدٍ بدفْع الباقي من المبلغ؟

ضحك الشابُّ بود.

- أوه، لا يا سيدي، ليس هناك أي ضرورة للرسميَّات. كما ترى يا سيدي، فأنا أقوم بهذا العمل بدافع الحُب، وإن كنتُ لا أُنكِر أنَّني أفكِّر في المستقبل. أُحاول تكوين شبكةٍ من العلاقات مع الرِّجال المحترَمين أمثالك من المُولَعين بالكُتب، وأثِق أنَّني في يومٍ من الأيام سأكون قادِرًا على الاستقالة من شركة التأمين وتأسيس عملٍ خاص صغير من اختياري يُمكِنني فيه استغلال مَعرِفَتي بالأعمال الأدبية القَيِّمة.

وبعد ذلك دَوَّنَ مُلاحظةً في دفترٍ صغير أخرَجه من جَيبه ثم ودَّعَني بلَباقةٍ وغادَر، تاركًا إيَّاي مُستغرقًا في التفكير مُحاوِلًا فَهْم كلّ ما حدث، في صباح اليوم التالي، استلمتُ مقالَتَين. الأولى عبر البريد، وكانت عبارة عن كُتيِّبٍ عن - العِلم المسيحي وشُرود الذِّهن ، تُشبِه تمامًا ذلك الكُتيِّب الذي أخذتُه من مَتجر الغرائب القديم. أما الثانية فكانت عبارة عن مِفتاح صغير صُنِع من النُّسخة الشَّمعيَّة التي صنعتُها لفتح الباب الأمامي للمَتجر؛ وقد صنعه أحد أصدقائي الرائعين من الفوضويين في شارعٍ مَجهول بالقُرب من هولبور، في تلك الليلة في العاشرة مساءً كنتُ داخل مَتجر الغرائب القديم، أحمل بطَّارية تخزين صغيرةً في جيبي، ومصباحًا كهربائيًّا صغيرًا في عُروة سُترتي، وهو أداة مُفيدة للغاية سواء للُّصوص أو للمُحقِّقين.

توقعتُ أن أجِدَ كُتب المتجر في خِزانة، وإذا كانت شبيهة بالخِزانة الموجودة في بارك لين، فسأكون إذن مُستعدًّا لفتحها بالمفتاح الزائِف الذي في حَوزتي، أو طبْع نُسخةٍ من ثُقب المفتاح وأعهد إلى صديقي الفَوضوِي ببقيَّة الأمر. ولكن لدَهْشتي، اكتشفتُ أنَّ جميع الأوراق المُتعلِّقة بالأمر موجودة في مكتبٍ لم يكن حتى مُقفَلًا. كانت الكتُب الثلاثة الموجودة هي دفتر المبيعات اليوميَّة التقليدي، ودفتر يوميَّات، ودفتر حسابات المتجر؛ وهو النَّمَط القديم لنِظام مسك الدفاتر. ولكنَّني وجدتُ في ملفٍّ سِتًّا من أوراق الفولسكاب مُعنوَنة: - قائمة السيد روجرز ، - قائمة السيد ماكفيرسون ، - قائمة السيد تيريل ، وهي الأسماء التي كنتُ أعرفها بالفعل، بالإضافة إلى ثلاثةٍ آخرين. احتوَتْ هذه القوائم على الأسماء في العمود الأول، والعناوين في الثاني، والمَبالِغ المالية في الثالث؛ تَبِعها في الخانات الصغيرة مَبالغ تبدأ من نصف كراون إلى جُنيه. في أسفل قائمة ماكفيرسون وجدتُ اسم ألبورت ويبستر، شقق إمبيريال، عشرة جُنيهات، ثم خانة، ثم خمسة شلنات. كان من الواضِح أنَّ هذه الوَرَقات الستَّ التي يَعلوها اسم كلّ مُروِّج سِلعٍ هي سِجلَّات لمجموعة السلع الحالية،

وبدا الأمر برمَّته بريئًا على نحوٍ جلي، حتى إنه لولا القاعدة الثابتة التي أومن بها بألَّا أعتقِد أنَّني قد وصلتُ إلى حلِّ القضيَّة حتى أصادِف شيئًا مُريبًا، لخرجت من المتجر خاليَ الوِفاض تمامًا كما دخلتُه.

كانت الوَرَقات الستُّ مُنفصلة دُون ربطٍ داخل حافِظة رفيعة، ولكن ثمة خمسة مجلَّدات ضخمة على الرفِّ الموجود فوق المكتب. أنزلتُ واحدةً منها ووجدتُ أنها تحتوي على قوائم مُشابهة تعود لعدَّة سنوات ماضية. لاحظتُ على قائمة السيد ماكفيرسون الحالية اسم اللورد سيمبتام، وهو عجوزٌ من النُّبلاء كنتُ أعرفه معرفةً طفيفة. انتقلتُ بعد ذلك إلى القائمة التي تَسبِق القائمة الحالية مُباشرةً وكان الاسم لا يزال موجودًا. بحثتُ عنه في قائمة تلوَ الأخرى حتى وجدتُ المُدخَلَ الأول الذي دُوِّن فيه اسمه قبل ثلاث سنواتٍ ماضية أمام قِطعةٍ من الأثاث ثمنُها خمسين جُنيهًا، كان يدفع لقائها جنيهًا كلَّ أسبوعٍ لأكثر من ثلاثِ سنوات، بمجموع مائةٍ وسبعين جنيهًا على الأقل، وفي الحال تجلَّت البساطة الرائعة للمَكيدة أمام عينيَّ وصرتُ شديد الاهتِمام بعمليَّة الاحتيال هذه، حتى إنَّني أضأتُ مصباح الغاز خَوفًا من أن يُستنفَد مِصباحي الصغير قبل أن أنتهيَ من بحثي، الذي توقَّعتُ أن يكون طويلًا.

في العديد من الحالات، كانت الضحيَّة المُستهدَفة تُثبِت أنها أذكى مما كان يظنُّ سيمبسون العجوز، وكان مكتوبًا - دُفِعَ بالكامل. على الخطِّ نفسه الذي يحمل الاسم عند استيفاء جميع الأقساط. ولكن عندما انسحب الضحايا الأذكياء، حلَّ محلَّهم آخرون، وكان يبدو اعتماد سيمبسون على شُرود ذِهنهم وَجيهًا في تِسع حالاتٍ من أصل عشر؛ إذ كان مُحصِّلوه يَستمرُّون في تحصيل الأموال حتى بعد سداد الدَّين بفترةٍ طويلة. في حالة اللورد سيمبتام، صارت عمليَّة دفع المال مُستديمة على نحوٍ واضح؛ إذ ظلَّ العجوز يدفع جنيهًا كلَّ أسبوع إلى السيد ماكفيرسون الدَّمِث بعد سنتَين من سداد دَينِه.

أخذتُ الورَقة المُفكَّكة التي تَرجِع إلى عام ١٨٩٣ من الملفِّ الضخم، والتي سجَّلتُ شراء اللورد سيمبتام لطاولةٍ مَنقوشةٍ مُقابل خمسين جنيهًا، ظلَّ يدفع لقاءها جنيهًا كلَّ أسبوع منذ ذلك الوقت حتى الوقت الذي أكتُب فيه الآن، أي نوفمبر ١٨٩٦. فإذا أخذتُ هذه الورقة الوحيدة من الملف الذي يعود لثلاث سنواتٍ مَضَت، فلن يُلحظ الأمر على الأرجح، على العَكس من لو أخذتُ ورقةً حديثة. ومع ذلك، فقد صنعتُ نسخةً من أسماء عُملاء ماكفيرسون الحاليِّين وعناوينهم، ثمَّ وضعتُ كلَّ شيءٍ كما كان بِعناية، وأطفأتُ مِصباح الغاز وخرجتُ من المَتجَر وأغلقتُ الباب خلفي. بوجود الوَرَقة التي تعود إلى عام ١٨٩٣ في جيبي، قررتُ أن أُحضِّر مفاجأةً صغيرة سارَّةً لصديقي اللطيف ماكفيرسون عندما يَزورُني للحصول على قِسط الخمسة الشلنات التالي.

على الرَّغم من وُصولي في ساعةٍ مُتأخِّرة لميدان ترافالجار، لم أستطِع أن أحرِم نفسي من مُتعة الاتصال بالسيد سبنسر هيل، الذي كنتُ أعرِف أنَّه لا يزال يَعمل حتى هذا الوقت المتأخِّر. لم يكن يبدو في أفضل حالاته أبدًا خلال ساعات العمل؛ إذ كان الروتين الحكومي يُقوِّضُ هيئته القويَّة الشُّجاعة. كان في داخله مُنبهرًا بأهميَّة مَنصِبه، كما لم يكن مسموحًا له بتدخين غليونه الأسود الكبير وتَبْغِه البَشِع. استقبلَني بالفظاظة التي اعتدتُ توقُّعها عندما كنتُ أفرِض وجودي عليه في مكتبه. حيَّاني بخشونةٍ قائلًا:

- أُفكرُ يا فالمونت فيما هي المُدَّة التي تتوقَّع أن تقضيها في هذه المهمَّة؟

أجبتُ بلُطف: - أيُّ مُهمَّة؟

- أوه، أنت تعرِف ما أعنيه؛ قضية سمرتريز.

صحتُ بدهشة:

- أوه، تلك القضية! لقد انتهيتُ فِعلًا من قضيَّة سمرتريز. لو كنتُ أعلم أنَّك في عجلةٍ من أمرك، لانتهيتُ من كلِّ شيءٍ البارِحة، ولكن بما أنك أنت وبودجرز

وأنا، ولا أعلم كم شخصًا آخر، نعمل على هذه القضيَّة منذ ستَّة عشر أو سبعة عشر يومًا، إن لم يكن أكثر، فقد فكرتُ في المغامرة باغتِنام كلّ ما يُمكِنُني اغتِنامه من وقتٍ لأنني أعمل بِمُفرَدي تمامًا؛ فأنت لم تقُل أيَّ شيءٍ عن إتمام العمل سريعًا.

- أوه، بربك يا فالمونت، هذه مُبالَغة كبيرة. هل تقصِد أن تقول إنك قد حصلتَ بالفعل على دليلٍ يُدينه؟

- أدلَّة قاطِعة وكامِلة.

- من هم مُزيّفو العُملات إذن؟

- كم مرَّةً أخبرتُك يا صديقي المُبجَّل ألا تقفِز إلى استنتاجات؟ لقد أخبرتُك عندما تحدَّثتَ معي أول مرَّة عن الأمر أن سمرتريز ليس مُزيّفَ عُملات ولا شريكًا لمُزيّفي عُملات. ولكنَّني حصلتُ على أدلَّةٍ كافِية تُدينه بارتِكاب جريمةٍ أخرى، ربما تكون فريدةً من نَوعِها في سجلَّات الجرائم. لقد حللتُ لُغز المتجر الغريب، واكتشفتُ السبب وراء كلّ تلك الأعمال المشبوهة التي قادَتْك لاقتِفاء أثرِه كما ينبغي. والآن أريدُك أن تأتي إلى شقَّتي مساء الأربعاء القادِم في السادسة إلَّا الرُبع وأنت على أُهبة الاستعداد لإلقاء القبض عليه.

- لا بد أن أعرِف بأيّ صِفةٍ سأقوم بعمليَّة احتِجازٍ وبأيّ تُهمة.

- أنت مُحِقٌّ تمامًا يا صديقي هيل؛ لم أقُل إنك ستقوم بعمليَّة احتجاز، بل حذَّرتُك فقط لتكون مُستعدًّا. إذا كان لديك الوقتُ الآن للاستِماع إلى ما اكتشفتُه، فأنا في خِدمتك. أعِدُك بأنَّ بعض سِمات القضية غريبة ومُثيرة للجدَل. أما لو كان الوقتُ غيرَ مُناسِب الآن، فلتمرَّ بي في الوقتِ الذي يناسِبُك واتَّصِل بي هاتفيًّا قبل أن تأتي لتَعرِف إذا ما كنتُ موجودًا أم لا؛ حتى لا تُهدِر وقتك الثمين هباءً.

اختتمتُ كلامي بانحناءةٍ شديدةِ الدَّماثة، وعلى الرَّغم من أنَّ تعبير وجهِهِ الحائر كانَ يُشير إلى أنه يشكُّ في أنَّني أُمازِحه، كما كان يقول دَومًا، فقد تلاشى

عنه وَقار الرسميَّات إلى حدٍّ ما، وأعلَن عن رغبتِه في سَماع كلّ شيءٍ عن الأمر بالتَّفصيل في التوّ واللحظة. لقد نجحْتُ في إثارة فُضول صديقي هيل. أنصَتَ إلى الدَّليل وحاجِبُه مَرفوع في حيرة، وأخيرًا هتفَ بقوَّةٍ قائلًا إنه محظوظ.

قلتُ مُختتمًا حديثي:

- سيزورُني هذا الشابُّ في السادِسة من بعد ظُهر يَوم الأربعاء ليَحصُل على دُفعته الثانية من الخمسة الشلنات. أقترح أن تكون جالِسًا معي في استِقباله حينئذٍ مُرتديًا زِيَّك الرسمي؛ فأنا أتوقُ لتفرُّس مَلامِح السيد ماكفيرسون حينما يُدرِك أنَّه قد اقتِيد لمواجهة شُرطي. وإذا شئت، فلتسمَح لي بعد ذلك باستجوابه لبِضع لحَظاتٍ بالأسلوب الحرّ والسهل الذي نتَّبِعه في باريس، وليس بطريقة سكوتلانديارد التَّحذيرية حتى لا يُدين نفسه، ثم سأحيل القضيَّة إليك للتَّعامُل معها كما تشاء.

أثنى عليَّ سبنسر قائلًا:

- يا لجزالة لِسانك يا سيد فالمونت. سأكون مُستعدًّا في السادسة إلَّا الربع يوم الأربعاء.

أجبتُه قائلًا:

- في هذه الأثناء، رجاءً لا تُخبر أيَّ شخصٍ عن الأمر. لا بُدَّ أن نُرتِّب مُفاجأةً كامِلةً لماكفيرسون؛ هذا ضروري. رجاءً لا تتَّخِذ أيَّ إجراءٍ في هذه المسألة على الإطلاق حتى مساء الأربعاء.

أومأ سبنسر هيل مُذعنًا بانبهارٍ شديد، واستأذنتُه بأدبٍ ورحلت.

تُعتبَر الإضاءة مسألةً مُهمَّة في غرفةٍ كغرفتي، وتوافُر الكهرباء فُرصة جيِّدة لاستغلال ذلك بذكاء، وقد استَغْللتُ هذه الحقائق الاستغلال الأقصى. يمكنني التَّلاعُب في إضاءة غرفتي بحيث تكون أيُّ بُقعةٍ فيها مُبهِرة الإضاءة، بينما تظلُّ باقي المساحة المحيطة مُظلِمة بالنسبة لها. في مساء ذلك الأربعاء، جهَّزتُ المصابيح بحيث تكون قوَّةُ أشعَّتها كاملةً مُوجَّهةً نحو الباب، بينما

جلستُ على أحد جوانِب الطاولة في ظلامٍ شِبه كامل، وجلَس هيل على الجانب الآخر والضوء مُسلَّط عليه من الأعلى، وهو ما أعطاه مَظهرًا غريبًا وكأنَّه مَنحوتة حيَّةٌ لتمثال العدالة، بملامِحِه الدَّالَّة على الصَّرامة والانتِصار. كان من شأن أيِّ شخصٍ أن يَنبهِر بالضوء حال دُخوله الغرفة، ثم يرى هيئة هيل الضخمة وهو يرتدي زِيَّه الرَّسميَّ كاملًا.

عندما دخل أنجوس ماكفيرسون إلى الغرفة، بدا جَليًّا أنه قد تفاجأ، فتوقَّف فجأةً عند عتبة الباب مُثبِّتًا نظرَه على الشرطيِّ الضخم. أظنُّ أنَّ رد فعله الأول كان أن يَستدِير ويهرُب، إلَّا أنَّ الباب أُغلِق من خلفه، وقد سمع بلا شكٍّ، كما سَمِعنا جميعًا، صوتَ اندفاع مِزلاجِ الباب وهو يُقفَل ليصير ماكفيرسون محبوسًا بالداخل.

تلعثَم قائلًا:

- أ... أستميحُك عُذرًا، كنتُ أتوقَّع مُقابلة السيد ويبستر.

بينما كان يقول ماكفيرسون هذه العبارة، ضغطتُ على زرٍّ أسفل طاولتي، فَسُلِّطَ الضوء عليَّ في الحال وأحاط بي من كلِّ جانب. ارتسمَت ابتسامةٌ واهِيةٌ على وجه ماكفيرسون عندما رآني، وقام بِمُحاولةٍ جديرة بالتَّصديق للتَّعامُل مع الموقِف برباطَةِ جأشٍ ولا مُبالاة.

- أوه، ها أنتَ ذا يا سيد ويبستر؛ لم ألحَظْك في البداية.

كانت لحظةً عمَّ فيها التوتُّر. تحدثتُ ببطءٍ وعلى نحوٍ يُثير الإعجاب قائلًا:

- سيِّدي، ربما لا تكون على علمٍ باسم يوجين فالمونت.

ردَّ بوقاحةٍ قائلًا:

- يؤسِفُني أن أقول يا سيِّدي إنَّني لم أسمَع باسم هذا السيد من قبل.

أطلقَ سبنسر هيل الأبلَه ضحكةً عاليَةً تُشبِه صهيل الحصان جاءت في غير وقتها، مُفسِدًا الموقفَ الدِّراميَّ الذي حضَّرتُ له بعد تفكيرٍ وعناية شديدَين، لا عجَبَ في أنَّ الإنجليز ليس لديهم أيُّ دراما؛ فهم يُظهِرون تقديرًا ضئيلًا

للَّحظات المُهمَّة في الحياة، نهَقَ سبنسر هيل ضاحِكًا، مُحوِّلًا الجوَّ الدِّراميَّ المشحون في الحال إلى جوٍّ عاديٍّ للغاية. ولكن ماذا على المرء أن يفعَل في مُواجَهةِ مِثل هذه المواقف؟ لا عليه سوى التَّعامُل مع الأدوات التي حباه الله بها. تجاهلتُ ضحكةَ هيل غير الملائمة.

- اجلس يا سيدي. هكذا قلتُ لماكفيرسون وأطاعَني.

واصلتُ حديثي مُتجهِّمًا قائلًا: - لقد زُرْتَ اللورد سيمبتام هذا الأسبوع.

- أجل يا سيِّدي.

- وأخذتَ منه جُنيهًا؟

- أجل يا سيدي.

- لقد بِعتَ للُّورد سيمبتام في أكتوبر عام ١٨٩٣ طاولةً قديمة منقوشةً لقاء خمسين جُنيهًا. أليس كذلك؟

- هذا صحيح تمامًا يا سيِّدي.

- عندما كُنتَ هنا الأسبوع الماضي، أخبرتَني باسم رالف سمرتريز بوصفِه سيِّدًا يعيش في بارك لين. هل كنتَ تعلمُ في ذلك الوقت أنَّ هذا الرجل هو ربُّ عملك؟

كان ماكفيرسون ينظُر إليَّ دون أن تَطرِف عيناه، ولم يَردَّ على سؤالي، فواصلتُ قائلًا بهدوء:

- وكنتَ تعلم أيضًا أن سمرتريز الذي يعيش في بارك لين هو نفسه سيمبسون صاحِب المتجر الكائن في طريق توتنهام كورت. أليس كذلك؟

رد ماكفيرسون:

- حسنًا يا سيِّدي، لا أعلم ما تقصِده بالضَّبط من حديثك هذا، ولكن من المُعتاد تمامًا أن يُزاول الشَّخص نشاطًا تجاريًّا تحت اسمٍ مُستعار؛ لا يُوجَد ما يُخالِف القانون في ذلك.

- سآتي على ذِكر مُخالَفة القانون بعد لحظاتٍ يا سيد ماكفيرسون. أنت وروجرز وتيريل وثلاثة آخرون شركاء لهذا المدعو سيمبسون.

- أجل، نحن نعمَل لديه يا سيِّدي، ولكنَّنا لسنا سوى مُجرَّد مُوظَّفين.

- أعتقِد يا سيد ماكفيرسون أنني قد قلتُ ما يكفي لأوضِّح لك أن اللُّعبة قد انتهت، كما تقولون. أنت الآن في حضرة السيد سبنسر هيل من سكوتلانديارد، والذي ينتظِر سماع اعترافِك.

وهنا اندفَع هيل الغبيُّ قائلًا:

- وتذكَّر يا سيِّدي أنَّ أيَّ شيءٍ ستقوله...

قاطعتُه سريعًا:

- مَعذِرة، سيِّد هيل، سأُحيل القضيَّة لك بعد لحظاتٍ قليلة، ولكنَّني أطلبُ منك أن تتذكَّر اتفاقنا، وأن تترُك الأمر كُلَّه حاليًّا في يدي. والآن يا سيد ماكفيرسون، أريد اعترافك، وفي الحال.

اعتَرَض ماكفيرسون مُتصنِّعًا الدَّهشة بصورةٍ مُثيرةٍ للإعجاب قائلًا:

- اعتراف؟ شركاء؟ إنك تَستخدِم مُصطلَحاتٍ غير عاديَّة يا سيد ... سيد ... ماذا كان اسمُك؟

صاح هيل ضاحِكًا: - اسمه السيد فالمونت.

- أرجو منك يا سيد هيل أن تترُك لي هذا الرَّجُل لبِضعِ لحظات. والآن يا ماكفيرسون، ماذا لديك لتقوله دِفاعًا عن نفسك؟

- بما أنَّني لم أُتَّهَم بأيِّ جُرم يا سيِّد فالمونت، فلا أرى أيَّ داعٍ للدِّفاع عن نفسي. إذا كنتَ ترغَب في أن أعترِف بأنك قد حصلتَ على عددٍ من التفاصيل الخاصَّة بعمَلنا، فأنا على أتمِّ استعدادٍ للقيام بذلك وأن أضيف إلى دِقَّتها أيضًا. إذا تكرَّمتَ وأخبرتَني بما تحتجُّ عليه، فسأُحاول أن أوَضِّح لك الأمر إذا أمكنَني ذلك. من الواضِح أنَّ ثمَّة سوء فهم، ولكن دُون مزيدٍ من التَّوضيح، إن

عقلي في ضبابية تامَّة بشأن هذا الأمر، تمامًا كما كان بَصري وأنا في طريقي إلى هنا؛ إذ إن الضَّباب في الخارج كثيفٌ بعض الشيء.

كان ماكفيرسون يتصرَّف بتعقُّلٍ شديد بلا رَيب، وكانت هيئتُه وإيماءاته، دُون أن يقصِد، أكثر دبلوماسية بكثير من صديقي سبنسر هيل الذي كان يجلِس مُتيبِّسًا كالصَّنم قُبالَتي. كانت نبرتُه نبرةً احتجاجيَّة مُعتدِلة خفَّفَ من وطأتها إشارته إلى أنَّ الأمر كلَّه سوء فهم وسيزول سريعًا. ظاهريًّا، رسَم ماكفيرسون صورةً مثاليةً للرَّجُل البريء؛ فلم يُغالِ في الاعتراض ولم يَمتنِع عن إبدائه أيضًا. غير أنَّني كان لديَّ له مُفاجأة أخرى، كانت بمثابة ورَقةٍ رابحة، وضعتُها على الطاولة أمامه.

صحتُ بحماس:

- ها هي! هل رأيتَ هذه الورَقة من قبل؟

ألقى عليها نظرةً سريعة دُون أن يَعرِض أخذَها ليرى ما فيها.

وأجاب:

- أوه نعم، لقد استُخرِجَت من مَلفِّنا. إنها ما أُسمِّيها بقائمة زياراتي.

صحتُ بحدَّة:

- برَبِّك يا سيدي، إنك ترفُض الاعتراف، ولكنَّني أُحذِّرك من ذلك. هل سمعتَ عن الدكتور ويلوبي من قبل؟

- أجل، هو مُؤلِّف الكُتيِّب السَّخيف عن العلوم المسيحية.

- أنت مُحِقٌّ يا سيد ماكفيرسون، عن العِلم المسيحي وشُرود الذِّهن.

- ربما، فأنا لم أقرأه منذُ فترةٍ طويلة.

- هل سبق لك مُقابلة هذا الطبيب المُطلع يا سيد ماكفيرسون؟

- أوه، أجل، الدكتور ويلوبي هو الاسم المُستعار للسيد سمرتريز. إنه يؤمن بالعِلم المسيحي وهذه الأشياء ويكتُب عنها.

- أوه، حقًّا. إننا نحصُل على اعترافِك تدريجيًّا يا سيد ماكفيرسون. أعتقِد أنه سيكون من الأفضل أن تكون صريحًا معنا.

- كنتُ سأقترح عليك الشيء نفسَه حالًا يا سيد فالمونت. إذا أخبرتَني باختصارٍ ما هي التُّهمة المُوجَّهة ضِدِّي أو ضدَّ السيد سمرتريز، سأعلم حينئذٍ ما عليَّ قولُه.

- نحن نَتَّهمكما يا سيِّدي بتقاضي أموال تحتَ ادِّعاءات كاذِبة، وهي جريمة زَجَّت بأكثر من ثَريٍّ بارزٍ إلى السجن.

هزَّ سبنسر هيل سبَّابَته السمينة في وَجهي قائلًا:

- لا لا يا فالمونت، يجِب ألا تُهدِّد، يجِب ألا تُهدِّد كما تعلم. ولكنَّني أكملتُ دون الالتفات إليه.

- لنأخُذ اللورد سيمبتام على سبيل المثال. لقد بعتَه طاولة لقاء خمسين جُنيهًا بالتقسيط، على أن يدفَع جنيهًا كلَّ أسبوع، وفي أقلِّ من عامٍ كان قد سدَّد دَينَه بالفِعل. ولكنَّه يُعاني من سُرود الذهن، ككلِّ زبائِنكم. ولذلك أتيتَ لي؛ فقد أرسلتُ خِطابًا ردًّا على إعلان ويلوبي الوَهمي. وهكذا ظَلَلتُم تجمعون المزيد والمزيد من المال لأكثر من ثلاثِ سنوات، والآن هل تفهَم التُّهمة المُوجَّهة إليك؟

كان رأس السيد ماكفيرسون يميل جانبًا قليلًا أثناء سَماعه لهذا الاتهام. في البداية، ارتَسَم على وجهه أبرَعُ تعبيرٍ زائفٍ للتركيزِ المَشوب بالقَلَق رأيتُه في حياتي، ولكنَّه أخذَ يتلاشى تدريجيًّا كلَّما زاد إدراكه للأمر. وعندما انتهيتُ، كانت على شفتَيه ابتسامةٌ مُتملِّقة.

وقال:

- إنه حقًّا، كما تعلم، مُخطَّط ضخم؛ عصابة شاردي الذهن، كما يُمكن أن نُسمِّيه. مُخطَّط عبقريٌّ بالفعل! لو كان لدى السيد سمرتريز أيُّ حسِّ دُعابة، ولكنَّه ليس كذلك، لتفاجأ من أنَّ هَوَسَه البريء بالعِلم المسيحي قد قادَه

ليُصبح مُشتهًا به في الحصول على مالٍ تحت ادِّعاءاتٍ كاذبة. ولكن في الواقع ليس في الأمر أيُّ ادِّعاءات على الإطلاق. الأمر، كما أفهمه، هو أنني أقوم بزياراتٍ وأُحصِّل الأموال بكلِّ بساطةٍ مُعتمدًا على سُوء ذاكرة الأشخاص المُدرَجين في قائمتي؛ إذن وفقًا لنظريَّتِك الجريئة هذه، فإذا كنتَ تتَّهمني وسمرتريز، فسيكون اتهامُك هو اتِّهام بالتآمُر. ولكنَّني أُدرِك سبب هذا الخطأ: لقد استنتجتَ أنَّنا لم نَبع أيَّ شيءٍ للُّورد سيبمتام منذ ثلاث سنوات مضت سوى الطاولة المنقوشة. يُسعِدُني أن أُشير إليك أن سيادته عميل دائم لدَينا، وأنه قد اشترى منَّا الكثير من الأشياء في وقتٍ ما أو آخر. في بعض الأحيان يكون مَدينًا لنا، وفي بعض الأحيان نكون نحنُ المدينين. إننا نحتفِظ معه بنَوعٍ من أنواع التَّعاقُدِ المُستمرِّ يدفَع لنا بِمُقتضاه جُنيهًا كلَّ أسبوع. هو والعديد من الزَّبائن الآخرين يتعامَلون معنا وفقًا لخُطَّة الدفع نفسها؛ وفي مُقابِل دَخلٍ يُمكِننا الاعتماد عليه، يحصلون على العُروض الأولى من أيِّ شيءٍ يُفتَرَض أنَّ لديهم اهتمامًا به. وكما أخبرتُك، نحن ندعو هذه الأوراق في المكتب بِقوائم الزِّيارة، ولكن لكي تُصبِح كاملة، فنحن بحاجةٍ إلى ما نُطلِق عليه مَوسوعتنا. ونُطلِق عليها هذا الاسم لأنها تتألَّف من مُجلَّدات عديدة، بواقِع مُجلَّدٍ لكلِّ عام، ولكنَّني لا أعلم إلى متى تعود بالضبط. ستُلاحِظ بعض الأرقام الصغيرة هنا من وقتٍ لآخر مكتوبةً فوق المبلَغ المذكور في قائمة الزِّيارات هذه. تُشير هذه الأرقام إلى الصفحة من الموسوعة الخاصَّة بالسنة الحالية، وفي تلك الصفحة تُسجَّل عملية البيع الجديدة وكميَّتها، مِثلما قد تُسجَّل في دفتر الحسابات على سبيل المثال.

- هذا تفسير مُمتِع للغاية يا سيد ماكفيرسون. أعتقِد أنَّ هذه الموسوعة، كما تُسمِّيها، موجودة في مَتجر طريق توتنهام كورت.

- أوه، كلا يا سيِّدي، كلُّ مُجلَّدٍ من الموسوعة مُغلَق على نفسه. فهذه المُجلَّدات تحتوي على السرِّ الحقيقي لعَمَلنا، وهي محفوظة في خِزانة بمنزل السيد

سمرتريز في بارك لين. لنأخُذ حِساب اللورد سيمبتام على سبيل المثال، ستجِد الرقم ١٠٢ مكتوبًا على نحوٍ باهتٍ أسفل تاريخ مُحدَّد. إذا انتقلتَ إلى الصفحة ١٠٢ من مَوسوعة ذلك العام، فستجِد قائمة بما اشتراه اللورد سيمبتام والأسعار التي دَفَعها لقاءها؛ إنَّ الأمر حقًّا بسيط للغاية. وإذا سمحتَ لي أن أستخدِم هاتِفك للحظة، فسأطلُب من السيد سمرتريز، الذي لم يبدأ في تناوُل عَشائه بعد، أن يأتي إلى هنا ويُحضِر معه مُجلَّد عام ١٨٩٣، وفي غضون رُبع ساعة ستتأكد تمامًا من أن كلَّ شيءٍ قانوني تمامًا.

أعترِف أنَّ طبيعية هذا الشابِّ وثِقَته في نفسه قد أذهلاني، لا سيما عندما رأيتُ الابتسامة الساخِرة التي ارتسمَتْ على وجه هيل دلالةً على أنه لم يُصدِّق كلمةً واحدة مما قيل. كان يُوجَد هاتِفٌ نقَّال على الطاولة، وعندما انتهى ماكفيرسون من شرحه، مدَّ يدَه وجذَب الهاتِف نحوه، فتدخَّل سبنسر هيل قائلًا:

- مَعذِرة، أنا من سأُجري المكالمة. ما رقم السيد سمرتريز؟

- ١٤٠ هايد بارك.

اتَّصَل هيل في الحال بالسِّنترال، وأجاب عليه أحدُهم في بارك لين. سمِعناه يقول:

- هل هذا هو منزل السيد سمرتريز؟ أوه، أهذا أنت يا بودجرز؟ هل السيد سمرتريز موجود؟ رائع. أنا هيل، أنا في شقَّة فالمونت — شُقَق إمبيريال — كما تعلم. أجل، حيثما أتيتَ معي بالأمس. حسنًا، اذهب للسيد سمرتريز وأخبره أنَّ السيد ماكفيرسون يُريد موسوعة عام ١٨٩٣. هل فهِمت؟ أجل، موسوعة. أوه، سيفهَم ما هي. أجل، السيد ماكفيرسون. لا، لا تذكُر اسمي إطلاقًا؛ فقط أخبِرْه أن السيد ماكفيرسون يُريد موسوعة عام ١٨٩٣، وأنك ستُحضِرها له. أجل، يُمكِنك أن تُخبِره أنَّ السيد ماكفيرسون في شُقَق إمبريال، ولكن لا تذكُر اسمي على الإطلاق. بالضَّبط. بمجرَّد أن يُعطيك

المجلد، أوقِف عربة أُجرة وتعالَ به إلى هنا في أسرع وقتٍ مُمكِن. وإذا لم يَسمح سمرتريز بأن تُحضِره أنت، فأخبِره أن يأتي معك. وإن لم يفعل، ضَعْه قيد الاعتِقال وأحضِرْه هو والمجلَّد إلى هنا. حسنًا. بأسرع ما يُمكنك، نحن في الانتظار.

لم يُبدِ ماكفيرسون أيَّ اعتراضٍ على استِخدام هيل للهاتف، بل اكتفى بالجلوس مُسترخيًا في كرسيِّه وقد ارتسمَ على وجهه تَعبير مُذعِن، لو رسم على لَوحة كنافا، لأُطلِق علمها - المُتَّهم زُورًا . عندما أغلَقَ هيل الخط، قال ماكفيرسون:

- أنت تعرِف عملك جَيدًا بلا شك، ولكن إذا اعتقَلَ رجُلُك سمرتريز، فسيجعلك أضحوكة لندن. تُوجَد تهمة تُعرَف بالاعتقال غير المُبرَّر، مثلما تُوجَد تُهمة الحصول على مالٍ تحت ادِّعاءات كاذبة، والسيد سمرتريز ليس ممن يَغفِرون الإهانة. ثم، إذا سمحتَ لي بأن أقول ذلك، كلَّما فكرتُ في نظريَّتِك حول استِغلال شارِدي الذهن، بدا الأمر مُستغرَبًا تمامًا، وإذا وصلَتِ القضية إلى الصُّحف، فأنا مُتأكد يا سيد هيل أنك ستخضع لنِصف ساعةٍ من الاستِجواب المُزعِج من رؤسائك في سكوتلانديارد.

رد هيل بعنادٍ قائلًا:

- سأخوض تلك المُخاطرة، شُكرًا.

تساءل الشاب:

- هل أعتَبِر نفسي قَيْد الاعتقال؟

- لا يا سيدي.

- إذن، إذا سمحتُم لي، سأذهب أنا. سيُريكم السيد سمرتريز كلَّ ما ترغَبون فيه في مُجلَّداته، وهو أقدر بكثيرٍ على شَرح عملِه منِّي؛ لأنه يعلم المزيد عنه؛ لذا، أيُّها السيدان، أتمنَّى لكما ليلةً سعيدة.

صاح هيل وقد انتفضَ واقِفًا تزامُنًا مع نُهوض الشابِّ للرحيل:

- لا، لا لن تذهب. ليس بعد، ستبقى لبعض الوقت.

احتجَّ ماكفيرسون قائلًا: (إذن أنا قَيْد الاعتقال.)

- لن تَبرحَ هذه الغُرفة حتى يأتي بودجرز بذلك المجلَّد.

- أوه، حسنًا. ثم عاوَدَ الجلوس مرةً أخرى.

والآن، بما أنَّ الكلام يُجفِّف الحلق، فقد جهَّزتُ شيئًا لأشرَبَه وأخرجتُ عُلبتَي السيجار والسجائر. مَزَجَ هيل مَشروبه المفضَّل، بينما تجنَّب ماكفيرسون الخمر المصنوع في بلده واكتفى بكأسٍ من الماء المعدِني، وأشعل سيجارة. ثم استرعى انتِباهي كثيرًا عندما قال بلُطفٍ وكأنَّ شيئًا لم يكن:

- بينما نحن في الانتِظار يا سيد فالمونت، أُذَكِّرُكَ بأنك مَدين لي بخمسةِ شِلنات.

ضحكتُ وأخرجتُ النُّقود من جَيبي ودفعتُ له، فشكَرَني، سألني ماكفيرسون بطريقة شَخصٍ يُحاوِل تجاذُب الحديث لاجتِياز فترةِ الصَّمت المُملَّة:

- هل أنت على صلةٍ بسكوتلانديارد يا سيد فالمونت؟ ولكن قبل أن أتمكن من الرد، اندفع هيل دون تفكيرٍ قائلًا:

- لا أبدًا!

- إذن أنتَ لا تعمَل رسميًّا كمُحقِّقٍ يا سيد فالمونت. أليس كذلك؟

أجبتُ بسرعةٍ لأسبِقَ هيل:

- لا على الإطلاق.

تابع هذا الشابُّ الرائع بصدقٍ واضِح:

- يا لها من خسارة لبلدِنا!

بدأتُ أدرِك أنَّ بإمكاني استِغلال شابٍّ شديد الذَّكاء كهذا إذا سنَحتْ لي فُرصة تدريبه، أردف قائلًا:

- الأخطاء الفادِحة التي يرتكِبُها رجال شرطَتِنا هي أمرٌ يُرثى له. إذا كانوا لن يأخذوا سوى دُروسٍ في فنون التخطيط، لنقُل من فرنسا، لأدَّوا مَهامَّهم المُزعِجة على نحوٍ أكثر قَبولًا بكثير، وبطريقةٍ أقلَّ إزعاجًا لضحاياهم.

نخَرَ هيل بسخرية:

- فرنسا! إنهم يَعتبِرون الشَّخص مُذنِبًا حتى تَثبُت براءته.

- أجل يا سيد هيل، وهذا هو ما يحدُث هنا الآن بالفعل. لقد قرَّرتَ أنَّ السيد سمرتريز مُذنِب، ولن ترضى حتى يُثبِتَ براءته. سأجازِفُ بِتوقُّع أنَّ ما ستسمَعُه منه بعد وقتٍ قصير قد يُذهِلُك على نحوٍ ما.

زَمجرَ هيل ونظر إلى ساعته. مرَّت الدقائق ببطءٍ شديد بينما كنَّا نجلِس نُدخِّن السجائر. وفي النهاية بدأتُ أنا في الشُّعور بالتململ وعدَم الارتياح. قال ماكفيرسون وقد لاحظَ قلقنا، إنه عندما أتى، كان الضَّباب شديدَ الكثافة كما كان في الأسبوع السابق، وأنه ربما يُوجَد صعوبة في العُثور على عربة أُجرة. وفي أثناء حديثه، فُتِحَ الباب من الخارج ودَخل بودجرز حامِلًا مُجلَّدًا سميكًا في يدِه وأعطاه رئيسه، الذي أخذ يُقلِّب في صفحاته في ذهول، ثم نظر إلى ظهر المُجلَّد وصاح قائلًا:

- موسوعة الرياضة، عام ١٨٩٣! أيُّ نوعٍ من الدُّعابة هذه يا سيِّد ماكفيرسون؟

ارتسمَتْ نظرةُ انزعاجٍ على وَجه السيد ماكفيرسون وهو يَميل إلى الأمام ويأخُذ المجلَّد، ثم تنهَّد قائلًا:

- لو كُنتَ سمحتَ لي باستِخدام الهاتف يا سيِّد هيل، لأوضحتُ لسمرتريز المجلَّد المطلوب بالضبط؛ كنتُ أعلَم أنَّ هذا الخطأ من المُمكِن أن يحدُث. يُوجَد طلبٌ مُتزايد على كُتُب الرياضة القديمة، ولا شكَّ أنَّ السيد سمرتريز اعتقَدَ أنَّ هذا هو المجلَّد الذي كنتُ أقصده. الحلُّ الوحيد أن تُرسِل رَجُلَك مرَّةً أخرى إلى بارك لين ليُخبِر السيد سمرتريز أنَّ ما نُريده هو المجلَّد المُغلَق

لحسابات عام ١٨٩٣، والذي نُسمّيه الموسوعة. اسمَح لي بِكتابة طلبٍ كي يُحضِره؛ أوه، سأُريك ما كتبتُه قبل أن يأخُذه رجلك. فوقف هيل استعدادًا لقراءة ما كتبَه ماكفيرسون من فوق كتِفه.

كتبَ على ورقة مُلاحظاتي طلبًا كما قال، وسلَّمه إلى هيل الذي قرأه وأعطاه لبودجرز.

- خذ هذا لسمرتريز وعُد بأسرعِ ما يمكنك، هل تنتظِرُك عربة أجرة بالخارج؟

- أجل يا سيدي.

- هل الجوُّ ضبابي بالخارج؟

- ليس كما كان منذ ساعةٍ يا سيِّدي، لا صعوبة في المرور الآن يا سيدي.

- جيد جدًّا، عُد في أقرَب وقتٍ مُمكن.

حيَّانا بودجرز وغادَر وهو يحمِل المجلَّد تحت ذِراعه. أُغْلِقَ الباب مرَّةً أخرى، وجلَسْنا وعاوَدْنا التَّدخين في صمتٍ كسَرَه صوتُ جرس الهاتف. وضع هيل السمَّاعة على أُذُنه.

- نعم، هنا شُقق إمبريال. أجل. فالمونت. أوه، أجل؛ ماكفيرسون هنا. ماذا؟ نفدَت من ماذا؟ لا أسمعُك. نفدَت من الطباعة. ماذا؟ نفدَت الموسوعة من الطباعة؟ من المُتحدِّث؟ دكتور ويلوبي؛ شكرًا.

نهض ماكفيرسون وكأنه سيتَّجِه نحوَ الهاتف، ولكنَّه بدلًا من ذلك التقَطَ الورقة التي كان يُسمِّيها قائمة الزيارة - وكان يتصرَّف بهدوءٍ شديد حتى إنني لم أُلاحِظ ما كان يفعله حتى انتهي منه فعلًا ، ومشى بهدوءٍ بلا عجلة، وأمسك بها ووضعها في الجمر المُوقَد المُتوهِّج حتى اختفت في وَمضةٍ من لهبٍ ارتفعَت عبر المدخنة. انتفضْتُ وأنا أستشيط غضبًا، ولكن كان الوقتُ قد فات حتى لكي أقفِز مُحاوِلًا إنقاذ الورقة من الحرق. تأمَّل ماكفيرسون كِلينا بابتسامة الاستِهانة نفسها التي أضاءت وَجهه في العديد من المواقف السابِقة.

قلتُ بحزم: - كيف تجرؤ على حرْقِ هذه الورقة؟

- لأنها لم تكُن تخصُّك من الأساس يا سيد فالمونت؛ لأنك لا تَنتمي إلى سكوتلانديارد؛ لأنك سرقْتَها؛ لأنه لم يكن من حَقَّك ذلك؛ ولأنك ليس لك أيُّ صفةٍ رسمية في هذا البلد. لو كانت الورقة في حَوزة السيد هيل، لما جَرؤتُ على إتلافِها، كما قلتَ أنت، ولكنَّني قد أتلفتُ هذه الورقة بحرِيَّةٍ بما أنك قد أخذتَها من مقرّ عمل سيِّدي دُون أن تكون مُخوَّلًا بذلك تمامًا. ولو كان سيِّدي قد وجدَك وأنت تقتَحِم مكانه وأبديتَ أيَّ مُقاوَمة، لأرداك قتيلًا ولم يكن ليُعاقَب على ذلك. لطالما كان رأيي هو عدَم الاحتِفاظ بهذه الأوراق؛ إذ إنها لو وقعتْ في يدِ شخصٍ في ذكاء يوجين فالمونت وفحَصَها، وهو ما حدَث بالفعل، لتوصَّل لاستِنتاجاتٍ غير صحيحة. ومع ذلك، فقد أصرَّ السيد سمرتريز على الاحتِفاظ بها، ولكنَّه وافَقَ على أنَّني إذا أرسلتُ له برقيَّةً أو اتَّصلتُ به هاتفيًّا وذكرتُ كلِمة - موسوعة ، فسيحرِق هذه السجِلَّات على الفور، ثم يتَّصل بي أو يرسِل إليَّ برقيَّةً ليُبلِغَني أنَّ

- الموسوعة قد نفدَت من الطباعة ، وعندها سأعلَم أنه قد أتمَّ الأمر بنجاح.

والآن أيُّها السادة، افتحوا هذا الباب، فهذا سيُوفِّر عليَّ عناء دَفعِه بالقوَّة. إمَّا أن تَعتقلاني رسميًّا، أو تَكُفَّا عن تقييد حُرِّيَّتي. أنا في غاية الامتِنان للسيد هيل لإجرائه الاتِّصال الهاتفي؛ وعلى الرغم من الباب المُوصَد، لم أُبدِ أيَّ اعتراضٍ على كرَم ضِيافة السيد فالمونت، ولكن هذه المَهزلة قد انتهت الآن. كلُّ الإجراءات التي خضعتُ لها هنا كانت غير قانونية، واعذُرني يا سيد هيل، كانت إجراءات فرنسية لا تُناسِب الوضع هنا في إنجلترا القديمة، ولن تكون مُرضيةً لرؤسائك إن خرجَتْ في تحقيقٍ صحفي. أنا أُطالِب إمَّا بالقبضِ عليَّ رسميًّا، أو فتْح هذا الباب.،

ضغطتُ على الزرِّ في صمت، وفتحَ خادِمي الباب على مِصراعَيه. اتَّجه ماكفيرسون إلى عتبة الباب ثمَّ توقَّف واستدار ناظِرًا إلى سبنسر هيل الذي كان يجلِس صامِتًا كأبي الهول.

- طابت ليلتُك يا سيد هيل.

لم ينبِس هيل ببنت شفة، فالتفتَ ماكفيرسون تِجاهي بالابتسامة المُتملِّقة نفسها قائلًا:

- ليلة سعيدة يا سيد فالمونت، سيُسعِدني زيارتُك الأربعاء القادِم في السادسة مساءً لتحصيل شلناتي الخمسة.

telegram @soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

Adventures of
the Detective Valmount

انتشرت كتابة الروايات البوليسية في العالم كله، وارتبطت بظاهرة خاصة، هي رجال التحري الذين يعملون بصورة مستقلة عن الشرطة ويتعاون مع رجالها أحيانا، وأصبحت شخصيات كثيرين من رجال التحري ذات شهرة عالمية.

من أشهر كتاب الأدب البوليسي كان روبرت بار، الذي قدم للادب البوليسي (المحقق يوجين فالمونت) المختلف في هذا المحقق عن اقرانه، انه يجمع السخرية والجدية في عمله، المتعة والاثارة والتشويق ثلاث عوامل ارتكزت عليها كتابات روبرت بار، وهذا ما ميزه عن باقي كتاب الادب البوليسي، تجد في هذا الكتاب افضل خمسة قصص بوليسية خطها قلم الكاتب الاسكتلندي الشهير وهي :-

1- لغز الثروة المفقودة
2- عصابة شاردي الذهن
3- لغز الملاعق الفضية
4- لغز رامي القنبلة

telegram @soramnqraa

9 789922 937052
بغدادي